هو العليم

دورة في العلوم والمعارف الإسلامية ٦

الجزء الأول من

نور ملكوت القرآن

من أقسام

أنوار الملكوت

تأليف سماحة العلامة الراحل

آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

أفاض الله علينا من بركات أنفاسه القدسية

تعريب:

حسن إبراهيم

دار المحجة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحیم

هو العليم

أنوار الملكوت :

نور ملكوت القرآن

نور ملكوت المسجد

نور ملكوت الصلاة

نور ملكوت الصيام

نور ملكوت الدعاء

الفهرس

فهرس مطالب و موضوعات

نور ملكوت القرآن

الجزء الأوّل

المطالب	الصفحات
المقدَّمة	٣
البحث الاول :	
القرآن هو الدليل إلى الدين و النظام الأقوم	
الصفحة ٧ إلى الصفحة ٦٩	
يشمل المطالب التالية :	
القرآن كتاب هداية و بشارة و انذار	٩
خطبة «نهج البلاغة »فى وصف القرآن كريم	١١
جزاء السب السب فقط او العفو عنه	١٣
حكم القصاص فى القرآن حكم حيوىّ	١٥
بحث فى القصاص والدية والعفو	١٧
حكم التوراة و الانجيل فى القصاص يطابق حكم القرآن	١٩
انتقاد ول ديورانت لقانون الانجيل لعدم فرض القصاص	٢٠

المطالب	الصفحات
تطبيق حكم القصاص ، يمنع ارتكاب الجريمة فى المجتمع	٢٢
الرد على الاطبآء الذين ترددوا فى قطع يد السارق	٢٤
شروط اجراء حكم قطع يد السارق	٢٧
مناظرة شعريّة بين المعرّىّ و علم الهدى فى قطع يد السارق	٣٠
فى مفهوم و لطائف آية: وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ.	٣٢
مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ	٣٤
تفسير آية : لاَّ يُحِبُّ اللَهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ	٣٦
استثناء خطب الزهراء و زينب و فاطمة بنت الحسين بين الرجال	٤١
خطب الزهراء و زينب فى المدينة و الكوفة و الشام دفاع عن حق المسلمين	٤٩
مفهوم آية : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَـٰهِلِينَ	٥٠
معنى : صِلْ مَن قَطَعَكَ! وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ!و اَعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَك	٥٣
مواجهة مع بعض المتطاولين الذين يعبر عنهم القرآن بالملا	٥٧
القرآن يتكشف فى آية : وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ	٦٠
معنى شفاعة القرآن فى الدنيا ، و ظهورها فى الآخرة	٦٣
مقام الامام و الولاية هما تحقق الوجود الخارجىّ للقرآن	٦٥
عفو السجّاد عن الشيخ الشامىّ الذى شتم أسرى آل محمد	٦٧

البحث الثانى :

القرآن هو الهادى إلى سبل السلام و المخرج من الظلمات إلى النور

الصفحة ٧٣ إلى الصفحة ٢٠٣

يشمل المطالب التالية :

تفسير آية : قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ اللَهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ	٧٣
فى معنى نور القرآن	٧٦

المطالب	الصفحات
النور مقابل الظلمه كلاعلم مقالب الجهل و الإبصار مقابل العمى	٧٩
خطب من نهج البلاغة عبّر فيها عن القرآن بالنور	٨٠
معنى الكتاب المبين والإمام المبين و مرور أبى ذر بوادى النمل	٨٢
الآيات الدالّة على أنّ القرآن واضح بيّن بلا إبهام	٨٤
علاقة القرآن بالإنسان الكامل و الإنسان الكامل بالقرآن	٨٦
عينيّة نفس الإمام الملكوتيّة مع حقيقية القرآن	٨٨
حركة المؤمنين بتلاوة القرآن مع النبيّ فى العروخ المتعاليى للأسماء الإلهيّة	٩٠
الطواغيت يريدون قرآناً وفق هوى أنفسهم	٩٣
كان نزول آيات القرآن للمؤمنين بهجة وسروراً	٩٧
القرآن لهداية وإرشاد من يخشى اللـه	٩٨
معنى السلام و تفسير آية : يَهْدِى بِهِ اللَهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَ نُهُ و سُبُلَ السَّلَـٰمِ	١٠١
الآيات القرآنيّة الداعية إلى سبل السلام	١٠٥
مقارنة تعاليم القرآن بالتمدّن الأجوف للشرق والغرب الناشئ من الكفر	١٠٦
لطائف ونكات ظريفة فى تفسير آية :..وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ	١١١
قصة بائق خوّال قد كشف له حجاب الملكوت لبرّه بأمّه	١١٤
برّ الأمّ بسقيها ليلاً وكشف الحجاب الملكوتىّ	١١٩
الآيات الدالّة على أنّ من يرى العرآن يراه حقّاً وأنّ من لا يرى الحقّ، أعمى	١٢٣
قصّة بيعة نساء مكّة، مع شرط عدم قتل أولادهنّ	١٢٤
حرمة قتل النفس ومنها حرمة إسقاط الجنين فى الإسلام	١٢٧
الانتحار قتل للنفس وهو محرّم فى الإسلام	١٣٠
عرب الجاهليّة يئدون البنات خوف العار والأولاد والبنات خوف الفقر	١٣٤
دية الولد والبنت، ومقدار دية الجنين حسب مراتب الحمل	١٣٦
حرمة إسقاط الجنين ووجوب الدية والكفّارة عند التعمّد	١٣٩
قانون الدول الكافرة يقرّ الإسقاط ، والإسلام يحرّمه وإن كان من نطفة الزنا	١٤١

المطالب	الصفحات
مفاسد العزل واستعمال أدوية منع الحيض و منع الحمل	١٤٤
كثرة فوائد حمل النساء، ويثرة أضرار ترى الإنجاب	١٤٨
إغلاق أنابيب رحم المرأة محرّم وإن كان برضاها ورضى زوجها	١٥٢
حثّ الإسلام على الزواج بالنساء الولودات دون الجميلات	١٥٦
آيات قرآنيّة أخرى الداعية إلى سبل السلام	١٥٩
الطلاق هو طريق العلاج عند عدم توافق الحكمين	١٦١
دعوة العآن للصلح وتحذيره من جميع مساوئ الأخلاق	١٦٢
جميع آيات القرآن تدعو إلى سبل السلام	١٦٣
الظلامة ناشئة من الشرك و الثنويّة ، ونور التوحيد واحد	١٦٦
أفراد عميان يتلون القرآن بموهبة الهية	١٦٩
الروايات الواردة عن الامام العسكرى فى نور القرآن و صيام شعبان	١٧٥
انبعاث نور القرآن من صحابة رسول اللـه الأربعة وإضاءة الصحراء	١٧٧
كلام العلاّمة الطباطبائىّ رضوان اللـه عليه فى تفسير الصراط المستقيم	١٧٩
لاشرك و لا ظلم و لا ضلال فى الصراط المستقيم	١٨٣
الصراط المستقيم واحد مختصّ باللـه؛ والسبل كثيرة وتنسب للغير	١٨٥
تمثيل المعارف الإلهيّة فى الأفهام المختلفة بالصراط المستقيم والسبل إلى اللـه	١٨٨
صفات اصراط المستقيم وخصوصيّاته	١٨٩
معنى المجاهدة فى اللـه وفى سبيل اللـه	١٩٣
مزيّة الشريعة الإسلاميّة بعلوّ معارفها لابكثرة أحكامها	١٩٤
تفسير آية : مَا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَى' صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٌ	١٩٥
خطبة سيّد الشهداء عليه السلام صبح عاشوراء	١٩٨
مواعظ سيّد الشهداء عليه السلام وإنكار أهل الكوفة	١٩٩

المطالب	الصفحات
البحث الثالث:	
أحكام القرآن هو مطابقة للحقّ و خالدة أبد الدهر	
الصفحة ٢٠٧ إلى الصفحة ٣٠١	
يشمل المطالب التالية :	
فى معنى القرآن و الفرقان	٢٠٩
القرآن مجد و عظمة و متانة و وضوح	٢١١
كيفية نزول وحى القرآن بواسطة اللــه و الروح و الملائكة	٢١٢
كيفية الوحى بواسطة اللــه و جبرائيل و السفرة الكرام البررة	٢١٣
ابيات ابن الفارض فى السفر الى حق اليقين	٢٢٠
اشعار ابن الفارض فى كشف التوحيد الذاتى	٢٢١
اشعار ابن الفارض فى الصحو بعد المحو، اى الاحاطة الكلية بجميع العوالم	٢٢٥
وقوع امور عجيبة من نفوس اولياء اللــه باذن اللــه	٢٣٢
انطواء الربوبية المطلقة فى العبودية المطلقة	٢٣٧
تمثل جبرائيل امين الوحى الالهى بصورة دحية الكلبى	٢٣٩
رواية ابن قولويه فى ان اللــه قد ترائى لنبيه فى احسن صورة	٢٤٢
الجمع بين روايات التنزيه الخالص و روايات لقاء اللــه	٢٤٥
الروايات الواردة فى تجلى اللــه فى صور مختلفة	٢٤٩
معنى ان اللــه خلق الانسان على صورته عند المحققين	٢٥٢
آيات القرآن تنهى بشدة عن اتباع الظن ، و العمل بلا عمل	٢٥٧
عجز الاكتشافات العلمية و الفلسفة عن الطعن باصالة القرآن و حقانيته	٢٦٠
احكام الاسلام على اساس الفطرة ، المنحرفين عنه فى خسر	٢٦٣
طريق التكامل هو الايمان باللــه و الخشية من الرجوع اليه	٢٦٧
تعاليم القرآن هى الصراط المستقيم ، و هى قائمة على نهج العقل و الفطرة	٢٦٩
معنى ظهر القرآن و بطنه ، وحدّه و مطّلعه ، و جريانه مجرى الشمس و القمر	٢٧١

المطالب	الصفحات
سبب قراءة قصص القرآن هو وجود اشباهها فی نفوس الناس جمیعاً	٢٧٢
قصص القرآن الخاصة عبرة لجمیع الناس	٢٧٤
للنفس الانسانية قابلية التكيّف مع ایّ نوع من انواع التعليم و التربية	٢٧٦
خطاب القرآن لیهود زمان النبی لمؤاخذتهم بعمل اسلافهم	٢٨٢
جمود الوهابیّین و الاخباریّین علی المعنی الظاهری حرمهم من حقیقة القرآن	٢٨٦
نفی امیرالمؤمنین علیه السلام ان یکون لدیه شیء من الوحی	٢٩٠
حدیث علل الشرایع فی ان علیّاً علیه السلام قسیم الجنة و النار	٢٩٢
استمهال الامام الحسین القوم لیلة عاشوراء للصلاة و التلاوة و الدعاء	٢٩٧
ابیات سید الشهداء علیه السلام لیلة عاشوراء و حال زینب علیها السلام	٢٩٩

المقدّمة

أعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

ولَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أعْدَائِهِمْ أجْمَعِينَ مِنَ الانَ إلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

ولاَ حَولَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

و بعد ، تمثّل مطالب هذاالكتاب خلاصة و ثمرة لما ألقيته بعد فريضة العصر من شهر رمضان المبارك سنة ألف و ثلاثماتة و تسعين هجريّة فى مسجد القائم فى طهران بين جمعٍ من أخلاء الروح و إخوة الإيمان . و لأنّ الكلام قد دار بين خمسة مطالب ، هى : أهمّيّة القرآن الكريم ، أهمّيّة الصلاة ، الصيام و آداب المسجد ، و أهمّيّة الدعاء و شروطه ، فقد أدرجت هذه المطالب فى كتاب باسم « أنوار الملكوت» يضمّ : «نور ملكوت القرآن» ، «نورملكوت المسجد» ، «نورملكوت الصلاة» ، «نور ملكوت الصيام» ، و «نورملكوت الدعاء» .

تضمّنت طريقة البحث تفسير آيات القرآن الكريم و الروايات الواردة عن الأئمّة المعصومين صلوات الله و سلامه عليهم فى هذه المسائل مع شرح و جيز .

و كان من الألطاف الخاصّة للحضرة الأحديّة أن وُفِّقتُ فى ذلك الشهر المبارك من إعداد الآيات والروايات التى كانت مدار البحث ، و كتابة شروح أساسيّة مختصرة لتلك الأبحاث ، لتكون تذكرة لى عند مراجعتها فيها بعد ،

لذا فلم يخلُ طبعها بتلك الصورة من نقص ، كما أنّ أشغالى العلميّة قد منعتنى طيلة هذه المدّة من مراجعتها و إعادة كتابتها .

و للَه الحمدُ و له المنّة ، فقد حالفنى التوفيق لمراجعتها مرّةً أُخرى و إعادة كتابتها و تقديمها و تقديمها بشكل مناسب للأصدقاء والأحبّة و أهل الفكر. و كما هو معلوم فإنّ إعادة كتابتها بعد مضى ثمان عشرة سنة سيضفى عليها زيادات كثيرة منبثقة عن إعجاز القرآن و إجاباته على المسائل المستحدثة ؛ و أسأل البارى المنّان توفيق العلم و العمل لنفسى ولجميع الناظرين والمطالعين و شيعة مولى الموّحدين أميرالمؤمنين عليه السّلام .

رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا و إِلَيْكَ أَنَبْنَا وَ إِلَيْكَ المَصِيرُ . [١]

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . [٢]

١٤ شوّال المكرّم ١٤٠٨ هـ . البلدة الطيّبة للمشهد المقدّس الرضوىّ على ثاويها آلاف التحيّة و الإكرام ، و الصلاة و السلام .

عبده الفقير : السيّد محمّد الحسين الحسينىّ الطهرانىّ

١- الآية ٤ ، من السورة ٦٠ : الممتحنة .

٢- الآية ١٢٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

البَحْثُ الأوّلُ

القُرْآنُ هُوَ الدَّلِيلُ الى الدِّينِ وَالنِّظَامِ الأَقْوَمِ

أعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

ولَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أعْدَائهِمْ أجْمَعِينَ مِنَ الانَ إلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

ولاَ حَولَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَهِ العَلِى ِّ العَظِيمِ

قال اللـه الحكيم فى كتابه الكريم :

إ ِنَّ هَـ ـ'ذَا الْقُـرْءَانَ يَـهْدِى لِلَّتِـى هِـىَ أَقْـوَمُ وَيُبَشِّـرُ الْمُؤْمِنِـينَ الَّذِيـنَ يَعْمَلُـونَ الصَّـ ـ'لِحَـ ـ'تِ أَ نَّ لَـهُمْ أَجْـرًا كَبِـيرًا *و َأَنَّ الَّذِيـنَ لاَ يُؤْمِنُـونَ بِـالاْخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. [1]

لو تأمّلنا فى مفهوم الآية الكريمة فسنحصل على ثلاثة مطالب :

الاوّل : أنّ القـرآن الكـريم كتـابٌ يـهدى المجتمـع البشـرىّ ويرشـده لامـتن وأتقـن الاديـان والاسـاليب والمذاهـب والمسـالك وأرسـخها، وهـو معنىً يستحقّ التأمّل والدقّة لاهمّيّتـه البالغـة ، إذ منـذ زمـن أبى البشـر آدم وإلى يومنا هذا فما جـاء بـه الانبيـاء ومـا نطقـوا بـه عـن اللـه الحـىّ القيّـوم كـان لإرشاد البشر وهدايتهم ، وكذا الكتـب المنزلـة إليـهم كـانت مـن أجـل الدعـوة إلى التوحيـد ، وبيـان الحقـائق وإرشـاد النـاس إلى مـنزل السـعادة و تجـاوز العقبـات المهـلكة و تحـذيرهم مـن الأمـراض الروحيّـة والخلقيّـة ، وكذا ما جاء

١ـ الايتان ٩ إلى ١٠، من السورة ١٧: الإسراء .

بـه الحكمـاء الإلهيّـون الحقيقيّـون الذيـن مجّدهـم الإسـلام كلقمـان الحكيـم وسـقراط وأفلاطـون وآخريـن غـيرهم، ومـا بحثـه هـؤلاء ومـا سـطّروه مـن كتـب أو أسّسـوه مـن مـدارس فكريّـه ، ومـا قدّمـوا للعـالم الاءنسـانىّ مـن تلامـذة مقتدريـن ، وكذلـك مـا يقـوم بـه العلمـاء والمفكّـرون المتـأ لّـهون وغـير المتـألهين اليـوم سـعياً لتحقيـق سـعادة المجتمعـات ، ومـا وضعـوه مـن العلوم المستقلّة باسم علـم الاجتمـاع وعلـم النفـس والفلسـفة ودراسـة الأُسـس الاخلاقيّة و الأُسـلوب الواقعـىّ السـليم لسـعادة البشـر والحيـاة فى ظـلّ الهـدوء والطمأنينة والسلام والاستمتاع بجميع مواهب الاءنسـانيّة ، و كـذا مـا اكتظّـت بـه الجامعات والكلّيّات من البحوث والدراسات الدقيقة .

وكـلّ مـا جـاء بعـد ذلـك نتيجـة التكـامل العلمـىّ والبحـث والتحقيـق وتـأليف الكتـب وتقـديم فلاسـفة جـدد للعـالم ، والجلـوس علـى الطـاولات المسـتديرة ، أو البيضاويّـة أو مسـتطيلة أو مسدّسـة ، والصعـود إلى الفضـاء وتسـخير كواكـب المرّيـخ والزهـرة وعطـارد سـعياً لتخطيـط أفضـل برنـامج للسـعادة والرقـىّ ، و مـع سـعة المجـال و رحبـه ، و شمـول النظـرة إلى الأديـان السـماويّة والوضعيّـة، فـالقرآن ـ نعـم ، هـذا القـرآن الـذى نضعـه فى جيوبنـا ونقرأ فيه ـ هوالأقوم والأكثر سـداداً و أصالـةً ، والأكـثر جـدارة فى قبـولاً كـهاد للمجتمـع البشـرى إلى الصـلاح العـام والسـعادة المطلقـة والحيـاة النظيفـة المفعمة بالفائدة والعيش الرغيد.

و هذا المطلب مهمّ جدّاً ، لأنّ هذه الآية ـ الـتى تُـذاع اليـوم مـن إذاعـات الدول الإسلاميّة والكافرة ـ تُظـهر علنـاً أنّ برنـامج القـرآن هـو الأفضـل ، و أنّ طريقة هديه وإرشاده هى أكـثر مـن كـلّ الطـرق سـداداً وَ إنّ سـكّان المعمـورة علـى اختـلاف ألوانهـم ومناطقـهم ومعايشـهم لـو اجتمعـوا وبحثـوا فى آداب وتقـاليد وأهـداف وعقيـدة ونهـج الحيـاة وأُسـلوب العيـش والاستفادة من أرقى

الطرق والمذاهب التى وضعوها نصب أعينهم ثمّ قارنوها مع أحكام القرآن من الكسب والتجارة والنكاح والعبادة والصلاة والصيام والحجّ والجهاد والقوانين التوحيديّة والبيانات العرفانيّة والمواعظ الاخلاقيّة والتعاليم العمليّة لرأوا بأُمّ أعينهم أنّ الإسلام هو الأفضل بكثير والأرفع والإسمى والأرقى ، لأنّه يوصل البشر إلى تكاملهم الإنسانىّ بأقصر طريق ، ويخطو فى توظيف قوى الإنسان وطاقاته بأُسس حكيمة راسخة .

الثانى : أنّه يبشّر المؤمنين والمعتقدين بالحضرة الإلهيّة والمعترفين بالرسالة والمقرّين بالولاية بأنّ الخالق المنّان قد كتب لهم الأجر والثواب الجزيل جزاء جهدهم المتواصل وسعيهم الجادّ وجهدهم فى العمل والسلوك للوصول إلى النجاح والنجاة والخلاص من هواجس النفس ونيل الدرجات العالية والمقامات السامية . فالقرآن إذاً ، هو : كتاب بشارة وأمل وسرور و توفيق .

الثالث : أنّه يُحذّر منكرى الخالق والرسالة والولاية ، وبالتالى منكرى الآخرة ويوم الثواب والعقاب ، ويخوّفهم من العذاب الأليم العسير جزاء كفرهم وعقاب عدم إيمانهم . لذا يُعدّ القرآن كتاب تحذيرٍ وإنذار وتنبيهٍ وإيقاظ .

فالقرآن كتاب أمل وبشارة ، و كتاب إنذار وتخويف، فى نفس الوقت الذى يُعدّ برنامجاً لحركة الإنسان ، بل هو أقوم البرامج وصولاً إلى أصدق الأديان وأصحّ المناهج والتطلّعات .

ونجد لهذه المطالب الثلاثة أمثلة كثيرة فى القرآن الكريم، كما فى صدر سورة النمل : طس تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ

يُوقِنُونَ *إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالاْخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ.[١]

و فى سورة الكهف ، حيث يقول : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى' عَبْدِهِ الْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ و عِوَجَا * قَيِّمًا لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَهُ وَلَدًا[٢]* مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لاِبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَ ' هِهِمإِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا.[٣]

والقرآن ملىء بالآيات المبشِّرة للمؤمنين والمنذرة والمخوِّفة للكافرين باعتباره أكمل كتاب وأفضل وأوضح ، طريق للتربية والتكامل مُلحقاً بجناحى الخوف و الرجاء . لذا نرى أنّ الذين مثّلوا وجسّدوا الامل والرجاء المحض كعيسى ابن مريم ، أو الذين مثّلوا الخوف المحض كيحيى ابن زكريّا، على نبيّنا وآله وعليهما الصلاة والسلام ، لم يمتلكوا درجة ومقام وشمول وجامعيّة رسول الله، الذى تمثّل وتجسّد فيه كلا الرجاء والخوف، فلهذا كان طلاب هذه المدين أوسع و أشمل و أكمل .

وقد اعتبر الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ـ بهذا النظر ـ شخص الفقيه منحصراً بالشخص الذى يجمع هاتين الصفتين معاً ، كما جاء فى « نهج البلاغة » : وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : الفَقِيهُ كُلُّ الفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِاللَهِ ؛ وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَهِ ؛ وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِاللَهِ![٤]

---

١ ـ الآيات ١ إلى٤ ، من السورة ٢٧: النمل .

٢ ـ كاليهود الذين يدعون عزير ابناً للّه والنصارى الذين يدعون عيسى ابناً للّه والمشركين الذين يسمّون الملائكة بنات الله .

٣ ـ الآيات ١ إلى٥ ، من السورة ١٨: الكهف .

٤ ـ «نهج البلاغة» الحكمة رقم ٩٠ ، و فى طبعة مصر بتعليق محمّد عبده : ج ٢ ، ص ١٥٦ .

وكذلك فقد عَدَّ فِى « نهج البلاغة » القرآنَ ربيعاً لقلوب الفقهاء فقال عليه السلام : وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ الفُقَهَاءِ. لذا فمن الجلىّ أنّ كتاباً كهذا من شأنه أن يجلو ويصقل قلوب الفقهاء الحقيقيّين والعارفين بالله الجامعين لصفتَى الرجاء والخوف، ويُحيى قلوبهم ويملؤها بالطراوة والبهجة . كهبوب نسائم الربيع على الورود .

وقد ورد هذا التعبير ضمن خطبةٍ بدأت بعنوان يَعْلَمُ عَجِيجَ الوُحُوشِ فِى الفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِى العِبَادِ فِى الخَلَوَاتِ ، وَاخْتِلاَفِ النِّينَانِ فِى البحَارِ الغَامِرَاتِ ، وبعد بيانٍ وافٍ فى الموعظة والأمر بالتقوى ومدح بلإسلام ، والثناء على عظمة و جلال النبىّ الاكرم محمّد صلّىالله عليه وآله وسلّم ، يصل إلى وصف القرآن : الكتاب النازل على رسولالله صلّىالله عليه وآله وسلّم ، فيقول :

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ نُوراً لاَ تُطْفَأُ مَصَابيحُهُ ؛ وَسِرَاجاً لاَيَخْبُو تَوَقُّدُهُ؛ وَبَحْراً لاَيُدْرَكُ قَعْرُهُ ؛ وَمِنْهَاجاً لاَ يُضَلُّ نَهْجُهُ؛ [1] وَشُعَاعاً لاَيُظْلَمُ ضَوْؤُهُ؛ وَفُرْقَاناً لاَيُخْمَدُ بُرْهَانُهُ ؛ وَتِبْيَاناً لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ ؛ وَشِفَاءً لاَتُخْشَى أَسْقَامُهُ ؛ وَعِزّاً لاَتُهْزَمُ أَنْصَارُهُ ؛ وَحَقّاً لاَ تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ .

فَهُوَ مَعْدِنُ الايمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ ، وَيَنَابيعُ العِلْمِ وَبُحُورُهُ،و رِيَاضُ العَدْلِ وَغُدْرَانُهُ، وَأَثَافِى الإسْلاَمِ وَبُنْيَانُهُ ،و أَوْدِيَةُ الحَقِّ وَغِيطَانُهُ . وَبَحْرٌ لاَيَنْزفُهُ المُسْتَنْزفُونَ ، وَعُيُونٌ لاَ يُنْضِبُهَا المَاتِحُونَ ، وَمَنَاهِلُ لاَيُغِيضُهَا الوَارِدُونَ ، وَمَنَازِلُ لاَ يَضِلُّ نَهْجَهَا المُسافِرُونَ ، وَأَعْلاَمٌ لاَيَعْمَى عَنْهَا

---

١ ـ وردت فى نسخة محمّد عبده بلفظ يُضِلُّ وَيُظْلِمُ بصيغة المعلوم من باب الافعال، ولكن نظراً لورودها فى نسخة الملاّ فتح الله الكاشىّ ، ص ٣٣٦ ، بصيغة المجهول ، بصيغة المجهول ، و هو الأنسب من حيث المعنى ، فقد أُخِذَ بذلك فى هذا الكتاب.

السَّائِرُونَ، وَأَكَامٌ لاَ يَجُوزُ عَنْهَا القَاصِدُونَ .

جَعَلَهُ اللَهُ رَيَّاً لِعَطَش العُلَمَاء ، وَرَبِيعَاً لِقُلُوب الفُقَهَاء، وَمَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحاء، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنيعاً ذِرْوَتُهُ ، وَعِزّاً لِمَنْ تَوَلاَّهُ ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَهُدىً لِمَنْ ائْتَمَّ بِهِ، وَعُذْراً لِمَنْ انْتَحَلَهُ ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ ، وَفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَجُنَّةً لِمَنْ اسْتَلاَمَ ، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى. [١]

نعم ، إنّ البرنامج القرآنيّ خير برنامج للوصول إلى أفضل الأديان والانظمة وأمثلها، ولابدّ لإثبات هذا المدّعى أن نأخذ قوانين وأساليب وآداب وعادات وأخلاق المجتمعات سواءً فى ذلك المجتمعات القديمة أو الحديثة ، و الأُمم المتحضّرة أو المتوحّشة، وما جاء به أصحاب المذاهب الإلهيّة وأصحاب المذاهب الماديّة والطبيعيّة كلاّ على انفراد ، ثمّ نقارن ذلك القانون والبرنامج الخاصّ بموضوعٍ معيّن مع ما جاء فى القرآن الكريم ، لتتّضح ميزة الحكم القرآنيّ وسمّوه وتفوّقه فى ذلك الموضوع .

وعلى سبيل المثال ، لو صدر من أحد الرعايا فى عصر معيّن ـ حتّى لو كان من الرعاع السوقة ـ جسارة ووقاحة تجاه السلطان ذلك العصروحاكمه المُطلق ، كأن يسبّه ويشتمه ويلعنه، فسيحكم عليه حسب القوانين المتداولة بعقاب خاصّ من حبس وتعذيب ونفيٍ وجَلد وقتل . أمّا الإسلام فيقول : المسلمون سواسيةٌ كأَسنان المشط ، لافضل للحاكم على المحكوم ،

١ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٩٦، وفى طبعة مصر بتعليق محمّد عبده ، ج ١ ، ص ٤١٢ و ٤١٣ .

ولا للراعى على الرعيّة، ولاللسطان على من انضوى تحت سلطانه ؛ فلو صفع أحدٌ ما الحاكمَ فللحاكم أن يقتصّ منه صفعةً بصفعة لا أكثر ، وله كذلك أن يعفو عن ذنبه ويتجاوز عن إساءته، فذاك أولى وأجمل .

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ. [1]

ولقد شاهدنا فى ز من الحكم الإسلامىّ العادل أنّ الأمر كان بهذه الكيفيّة حقّاً، وأنّ هذا الحكم القرآنىّ الرفيع كان يُطبّق على الشريف والوضيع ، والغنىّ والفقير، والحاكم والمحكوم على حدٍّ سواء فَحَبَّذَا بِهَذَا المِنْهَاج .

ورد فى « نهج البلاغة » أنّ أحد الخوارج سبّ أميرَالمؤمنين عليه السلام فوثب أصحاب الإمام ليقتلوه ، فمنعهم وبيّن لَنّ جزاءه سبٌّ بسبّه أو عفو وإغضاء عن ذنبه.

يقول السيّد الرضىّ جامع « نهج البلاغة » وَرُوِىَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ كَانَ جَالِساً فِى أَصْحَابِهِ، فَمَرَّتْ بِهِمُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ فَرَهَقَهَا القَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: إِنَّ أَبْصَارَ هَذِهِ الفُحُولِ طَوَامِحُ ، وَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ هَبَابِهَا. فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى امْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلاَمِسُ أَهْلَهُ. فَإِنَّمَا هِىَ امْرَأَةٌ كَامْرَأَةٍ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الخَوَارِجِ:

قَاتَلَهُ اللَهُ كَافِراً مَا أَفْقَهَهُ ! فَوَثَبَ القَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ .

فَقَالَ: رُوَيْدَاً؛ إِنَّمَا سَبٌّ بِسَبٍّ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْب .[2]

ونلاحظ فى هذا المورد أنّ الإمام عليه السلام كان فى زمن خلافته

١ ـ الآية ١٢٦، من السورة ١٦: النحل .

٢ ـ «نهج البلاغة» ج ٢ ، ص ٢٣٥ ، الحكمة رقم ٤٢٠ ، طبعة مصر بتعليق محمّد عبده .

وفى أوج قدرته الظاهريّة ، لكنّه لم يتخطّ حين سبَّه رجلُ خارجيٌّ القانونَ القرآنىَّ قيد شعرة، وأوضح أنّ جزاءه السبّ بالمثل لاغير، ثمّ جعل العفو فى المرتبة العليا والفضلى.

فقد أجرى عليه السلام نفس هذا الحكم القرآنىّ فى الواقعة التى انهال بها ابن ملجم المرادىّ بالسيف على مفرق رأسه الشريف و التى خُتمت باستشهاده، ، إذ يقول عليه السلام : فى وصيّته بعد إصابته :

أَنَا بِالاَمْس صَاحِبُكُمْ ، وَاليَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ، إنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِىُّ دَمِى، وَإنْ أَفْنَ فَالفَنَاءُ مِيعَادِى ، وَإنْ أَعْفُ فَالعَفْوُ لِى قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَهُ لَكُمْ. [١]

وَ يقول : يَا بَنِى عَبْدِ المُطَّلِب ! لاَ أَلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ المُسْلِمِينَ خَوْضَاً، تَقُولُونَ قُتِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ . أَلاَ لاَتَقْتُلُنَّ إلاَّ قَاتِلِى! انْظُرُوا إذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بضَرْبَةٍ؛ وَلاَيُمَثَّلُ بِالرَّجُل. فَإنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: إيَّاكُمْ وَالمُثْلَةَ وَلَوْ بِالكَلْبِ العَقُورِ . [٢]

---

١ ـ «نهج البلاغة» مقطع من الرسالة رقم ٢٣، وفى طبعة مصر بتعليقة محمّد عبده، ج ٢ ، ص٢١ .

٢ ـ «نهج البلاغة» مقطع من الرسالة رقم ٤٧، وهى وصيّته عليه السلام، وفى طبعة مصر بتعليق محمّد عبده ، ج ٢، ص ٧٧ و ٧٨ . ورواه فى «بحار الانوار» ج ٩، ص ٦٦٣ ، الطبعة القديمة (الكمبانىّ) بنفس هذه العبارة نقلاً عن «نهج البلاغة» ونقله فى ص ٦٦٠ عن «المناقب» للخوارزمىّ .

يقول الطبرىّ فى تاريخه المطبوع بتحقيق وتعليق أبى الفضل إبراهيم فى ج ٥ ، ص ١٤٨: وقد كان علىٌّ نهى الحسن عن المُثلة؛ وقال : يا بنى عبد المطّلب ! لا ألفينّكم تخوضون فى دماء المسلمين تقولون : قُتل أميرالمؤمنين؛ قُتل أميرالمؤمنين ! ألا لا يُقتلن إلاّ قاتلى . انظر يا حسن ! إذا أنا متُّ من ضربته هذه ، فاضربه ضربةً بضربة ! ولا تُمثّل

وهذا من أرقى وأسمى القوانين القرآنيّة و أسماها ، لانّه يعطى لولىّ الدم حقّ القصاص بالمثل لا غير ، ثمّ يضع العفو أمام أنظاره ويرغّبه فيه، ولو قُدّر لاميرالمؤمنين عليه السلام أن يشفى ويعافى من ضربته لعفى كما قال، إذ العفو خير؛ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابرينَ ؛[1] وحين يكون العفو المنبثق عن أفضل الصفات النفسيّة والكمالاتَ الروحيّة أفضل لعموم المسلمين، فمن المسلّم أن يكون لأميرالمؤمنين عليه السلام ـ و هو السابق إلى الإيمان ـ أفضل

بالرجل فإنّى سمعتُ رسولاللّه صلّىاللّه عليه [وآله] وسلّم يقول: إيّاكم والمثلة ولو أنّها بالكلب العقور .

وذكر ابنُ الاثير نفس هذا الحديث فى «الكامل» ج ٣ ، ص ٣٩١ .

١ ـ يقول المستشار عبد الحليم الجندىّ ـ وهو من أعضاء المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة ـ فى كتاب «الإمام جعفر الصادق» ص ٤٥ و ٤٦ :

لقد طعنه عبد الرحمن بن ملجم فى السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ ، باتّفاق بينه وبين زميلين من الخوارج، أن يقتلوا عليّاً [عليه السلام] ومعاوية وعمراً . فأُصيب معاوية فى عجزه . ولميصب عمرو إذ لميخرج للصلاة وأناب نائباً عنه فقتل .

أمر معاوية بالرجل فقتل . وأمر عمرو برجله فقتل . لكنَّ أميرالمؤمنين [عليه السلام] أمر باستبقاء قاتله قائلاً ـ وهو الطعين المشرف ـ : إنّه إذا عاش فهو ولىّ دمه . وإذا مات فإنّه ينهى عن المثلة . ليعلِّم الناس الدين، كمثل ما علَّم العالَم جميعه قوانين الحرب والسلام فى حروبه ، فى الجمل سنة ٣٥ ، وصفّين سنة ٣٦ ، والنهروان سنة ٣٧ . فتداولتها المذاهب الاربعة لتقدّمها هديّة من فقه الإسلام للقوانين المعاصرة .

ومات أميرالمؤمنين [عليه السلام] بعد يومين عن ٦٥ أو٦٣ عاماً ، وأربعة أعوام وتسعة أشهر يوم واحد فى خلافة كلّها معارك .

ولمّا مات [عليه السلام] لم يوجد بخزائنه إلاّستمائة درهم استبقاها ليشترى بها خادماً . بل ـ وكما لخّص حياته سفيان الثورىّ ـ : «ما بنى لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وإن كان ليؤتى بحبوحته فى جراب » . الحبوة : الخراج .

وكما يقول محمّد بن كعب القرظىّ : «سمعت علىّ بن أبى طالب يقول : لقد رأيتنى وأنا أربط الحجر على بطنى من الجوع وإنّ صدقتى لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار» .

وأولى. لكن العفو كان بيد الإمام الحسن المجتبى ولى دم أبيه بعد رحيله ، ولو اقتضت الظروف لعمل هو أيضا وفق رغبة أبيه و تبعا للأولوية القرآنية لعفى، لكن أوضاع ذلك الوقت ، من خروج الخوارج، وشق معاوية وأعوانه عصا الطاعة على أميرالمؤمنين ، كانت ستجعل عفو وصى الأب عن جان خطر كابن ملجم ، محمولا على وهن قدرته وضعف حكومته، لذا فقد رجح الإمام الحسن عليه السلام القصاص ، وطبقا لوصية أبيه، فقد أنزل به ضربة واحدة فقط.

إن القصاص الذى يطبق فى الجرائم المتعمدة ، من قتل القاتل مقابل القتل، وقطع يد الضارب مقابل قطع اليد ، وقطع اللسان باللسان، وفقأ العين بالعين يعد من أرقى القوانين القرآنية .

إذ أولا : يأخذ للمجنى عليه الفطرى و العقلى والشرعى ، بعد ارتكاب الجناية العمدية ، و تهديد حياته الاءنسانية وسلامته ، وسلب نعمة عمره أو كمال أعضائه ، إذ يقابل الجانى بالمثل ،أى يطبق بحقه المجنى بنفس ما قام به ضد المجنى عليه .

و ثانيا : القصاص مانع للجريمة ، فلو علم الناس أنهم سيجزون بمثل ما ارتكبوه عمدا ، أى أن القاتل سيقتل، والصافع سيصفع، ومن كسرعظم شخص فسيكسر منه نفس العظم، ومن صلم أذن شخص فإن أذنه ستصلم ، عندها سوف لن يجرؤ أحد على بالإقدام على الجريمة .

لكن حكم القصاص إن لم يقر كقانون ، واكتفى بجعل عقاب الجريمة الحبس أو التبعيد أو الدية ، فسيفتح ذلك الطريق للناس بارتكاب الجريمة وإنزال الأذى بأعدائهم قتلا أو ضربا، وخاصة الطبقات الغنية المرفهة التى تمتلك المال الكثير والتى لايضيرها دفع الدية . و بهذه الحال ، سيذهب دم المظلوم هدرا ، و سيحل من جراء ذلك التفكك فى الحياة الاجتماعية

وأُسسها .

لذا فقد ورد فی القرآن الکریم بهذا الخصوص :

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰأُولِي الاَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .[1]

وقد وردت هذه الآیة المبارکة بعد آیة تحدّثت هی أیضاً عن القصاص ، تقول :

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالاُنثَى بِالاُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ و مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ و أَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ و رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ و عَذَابٌ أَلِيمٌ .[2]

علماً أنّ حکم القصاص والثناء علی العفو الواردین فی القرآن الکریم ، هما بعینهما حکم القصاص والعفو اللذان نزلا فی شریعة موسی فی التوراة ثمّ فی شریعة عیسی فی الإنجیل علی نبیّنا وآله وعلیهما الصلاة والسلام ، ثمّ أُحکما وأُقِرّا فی القرآن الکریم .

أمّا فی التوراة ، فیقول الله سبحانه :

إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّـٰنِيُّونَ وَالاَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَـٰبِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلاَتَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَـٰفِرُونَ* وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالاَنفَ بِالاَنفِ وَالاُذُنَ بِالاُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ و وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنزَلَ

---

١ ـ الآیة ١٧٩، من السورة ٢ : البقرة .

٢ ـ الآیة ١٧٨، من السورة ٢ : البقرة .

الله فأولـ'ئك هم الظـ'لمون. [١]

ما نراه فى هذه فى الآيتين حكـم القصـاص حـق للمجـنى عليـه ، والعفـو ـ الذى هو أمر مقبول ـ قد وضـع فى اختيـاره . وقـد ورد هـذا المطلـب بعينـه فى التـوراة المتداولـة حاليـا ، حيـث جـاء فى الإصحـاح الحـادى والعشـرين مـن سفر الخروج من التوراة أنه:

(١٢) من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا .

(١٣) ولكن الذى لم يتعمد ، بل أوقع اللـه فى يده ، فأنـا أجعـل لـهمكانا يهرب إليه.

(٢٣) وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس ، وعينا بعـين ، وسـنا بسـن ، ويدا بيد ، ورجلا برجل ، وكيا بكى ، وجرحا بجرح ، ورضا برض . [٢]

وجاء فى الإصحاح الرابع والعشرين من سفر اللاويين أنه :

وإذا أمات أحد إنسانا فإنه يقتل ، ومن أمـات بهيمـة فإنـه يعـوض عنـها نفسا بنفس، وإذا أحدث إنسان فى قرينـه عيبـا ، فكمـا فعـل كذلـك يفعـل بـه ، كسر بكسر، وعين بعـين ، وسـن بسـن ، كمـا أحـدث عيبـا فى الاءنسـان كذلـك يحدث فيه . [٣]

وأما فى الإنجيل فلأن اللـه عزوجل بعد الآيات السابقة يقول :

وقفينا علـى ءاثـ'رهـم بعيسـى ابـن مريـم مصدقـا لمـا بيـن يديـه مـن التورية وءاتينـ'ه الإنجيل فيه هدى ونـور ومصدقـا لمـا بيـن يديـه مـن التوريـة وهـدى ومـوعظـة للمتـقين * وليحـكم أهـل الإنجيـل بمـآ أنـزل اللـه فيه ومن

---

١ ـ الآيتان ٤٤ و٤٥ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢ ـ طبقـا لنقـل العلامـة الطباطبـائى رضـوان اللـه عليـه فى «المـيزان» ج ٥ ، ص ٣٩١ و ٣٩٢ عن التوراة باللغة العربية المطبوعة فى كمروج سنة ١٩٣٥ م .

لم يحكم بمآ أنزل الله فأولـ'َنءك هم الفـ'سقون. [1]

ونرى فى هذه الآية أن اللـه سبحانه جعل عيسى مصدقـا للتـوراة وجعـل كتابه الاءنجيل أيضا مصدقا لها ، ويلاحظ أن جملـة مصدقـا لمـا بيـن يديـه مـن التورى'ة التى تكررت للمرة الثانية لم تكن تأكيدا، بل أفـادت تصديـق الاءنجيـل للتوراة إضافة إلى تصديق المسيح لها .

لذا ، فكتاب الإنجيـل تـابع لشـريعة كتـاب التـوراة ، و لم يـأت حكـم فى التوراة إلا وقد أمضاه الإنجيل ودعا النـاس إليـه ، عـدا بعـض محرمـات التـوراة التى أحلها المسيح ، كما نطق الحق بلسانه :

ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم . [2]

وبناء على هذا ، فحكم القصاص والعفـو مـن وجهـة نظـر السـيد المسـيح وتعاليم الإنجيل هو نفسه عند موسى وكتاب شريعته : التوراة .

وأما فى القرآن الكريم ، فلأن اللـه سبحانه يقول بعد هذه الآية :

وأنزلنـآ إليـك الكتـ'ب بـالحق مصدقـا لمـا بيـن يديـه مـن الكتـ'ب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بمآ أنـزل اللـه ولاتتبـع أهوآءهـم عمـا جـآءك مـن الحق لكل جعلنا منكـم شـرعة ومنـهاجا ولـو شـآء اللـه لجعلكـم أمـة و'حـدة ولـ'كن ليبلوكـم فـى مـاءاتكم فاسـتبقوا الخـير'ت إلـى اللـه مرجعكـم جميعـا فينبئكم بما كنتـم فيـه تختلفـون * وأن احكـم بينـهم بمـآ أنـزل اللـه ولاتتبـع أهوآءهـم واحذرهـم أن يفتنـوك عـن بعـض مـآ أنـزل اللـه إليـك فـإن تولـوا فاعلـم أنمـا يريـد اللـه أن يصيبـهـم ببعـض ذنـوبهـم وإن كثـيرا مـن النـاس

---

١ ـ الآيتان ٤٦و٤٧، من السورة ٥ : المائدة .

٢ ـ الآية ٥٠ : مـن السـورة ٣ آل عمـران . ومصدقـا لمـا بيـن يديـه مـن التـوراة ولاحـل لكـم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بـاية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون .

لفـ'سقون . [١]

وما بحثناه هنـا فى حكـم القصـاص والعفـو ، طبقـا لدلالـة هـذه الآيـات المباركـة، فـإن شـرائع النـبى محمـد والمسـيح وموسـى عليـهم الصـلاة والسـلام تتطـابق وتتفـق بشـأنه، وأن مـا يشـاهد فى الإنجيـل المتـداول حاليـا أن « إذا صفعك أحد على خـدك الأيمـن فـأدر لـه الايسـر ، وإذا أرادوا انـتزاع عبـاءتك فهب لهم معها ثوبك » !

إما أن تكون عبارات مختلقة نسبت للمسيح عليـه السـلام ، أو أنـه عليـه السـلام أراد أن يمتـدح العفـو والمسـامحة ويثـنى عليـهما، وأن يؤكـد علـى إعمال صفة الاءغضاء وكـرم الاخـلاق، وأن يثـير فى النـاس بشـكل مبـالغ فيـه مشاعر العفـو والمسـامحة بعـد فـرض قـانون القصـاص وصيرورتـه بـين النـاس فى حكم المسلم ، وإلا فإن إجبار الناس على هذا الأسـلوب مـن العفـو سـيؤدى لا إلى تعطيل قانون القصاص وعـدم اهتمـام بـأمر العفـو فحسـب ، بـل سـتصل رغبـة المسـيحيين فى الانتقـام وإذلال الآخريـن بقسـوة وعدوانيتـهم وتعطشـهم لسـفك الدمـاء إلى الحـد الـذى بـرزت نماذجـه فى الحـروب الصليبيـة وفى الحـروب العـالميتين ، حيـث سـودت فظائعـهم وقسـوتهم وعنفـهم صفحـات تأريخ المسيحية .

يقـول ول ديورانـت : لم يـدع الاءسـلام إلى مقابلـة الإسـاءة بالإحسـان ، فمن اعتدى' عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى' عليكم ، [٢]

---

١ ـ الآيتان ٤٨ و٤٩ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢ ـ ذيل الآية ١٩٤ ، من السورة ٢ : البقرة .

الشـهر الحـرام بالشـهر الحـرام والحرمـ'ت قصـاص فمـن اعتـدى' عليكـم فـاعتدوا عليـه بمثل ما اعتدى' عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين .

ولمن انتصر بعد ظلمه فأولـ'ءك ما عليهم من سبيل ، [1] تلك أخلاق تليق بالرجال ، شبيهة بما جاء فى العهد القديم ، فهى تؤكد فضائل الرجولة كما تؤكد المسيحية فضائل الانوثة ، وليس فى التأريخ دين غيردين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء، ولم يفلح فى هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الاءسلام .

ويستشم من تعبير ديورانت بأنوثة أخلاقية تعاليم الإنجيل رائحة انتقاده لها ، وعزى ذلك إلى الضعف والقوى الانفعالية ، على العكس من الإسلام الذى تكون قوانينه ناشئة من القوة والموقف الراسخ ، وقوى الفعل .

إن عدم تطبيق الحدود وفقدان قانون القصاص عند أتباع الكنيسةفى شريعة الإنجيل الفعلية قد أدى إلى شيوع الفحشاء والمنكرات والعلاقات المنحرفة بينهم أكثر من شيوعها بين اليهود و الأمم الأخرى ؛ ولقد كشف شاعر ظريف عن معنى عميق فى هذا الشأن وفى أمثاله بأبيات أنشدها بأسلوب الملحة والطريفة ، قال :

كشيشى را شنيدم در كليسا
سخن می‌گفت از أحكام عيسى
كسى تان گر زند سيلى به رخسار
مياشوبيد بر وى هيچ ، زنهار [2]

---

١ ـ الآيتان ٤٠ و٤١، من السورة ٤٢ : الشورى .
وجزآؤا سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره وعلى الله إنه ولا يحب الظـ'لمين .
٢ ـ للشاعر المحترم أحمد الاشترى ، يقول ما ترجمته :
«سمعت فى الكنيسة قسيسا يتحدث عن تعاليم عيسى عليه السلام .
أن إذا صفعك أحد على وجهك فلا تنزعج منه أبدا » .

اگر بر راست زد چپ پیش دارید
وگر چپ ، راست را نزدیکش آرید
زجا برخاست ماهی عنبرین موی
گشود از یکدگر لعل سخنگوی
که بهر سیلی این حکم مبین است ؟
ویادربوسه هم حکم‌این‌چنین است؟[1]

أجل ، فتماسك المجتمع الإنسانى ، وقوام الحضارة البشرية ، والوصول إلى معارج الحياة إنما هو فى فرض حكم القصاص الذى يردع الناس خوفا وحذرا عن ارتكاب الجريمة ، مما يؤدى إلى امتناع تحقق هذا الحكم عمليا فى الخارج ، أما إذا ما ارتكبت جريمة ما ، ووجد لهذا الحكم مصداق يجعله يتحقق فعلا، فإن حكم القصاص سيمنح ـ على أية حال ـ المجتمع حياة وقدرة ويهبه عزة واستقلالا سهل المنال .

وأهم من هذا كله فالقصاص يدعو إلى ترك الجريمة ، مما يؤدى إلى عدم تحققه فى الخارج ، أى أن هذا الحكم فى عموميته وشموله سيؤدى إلى انتفاء تحقق مصاديق له فى الامور الجزئية ، ويمتلك كل واحد من الاحكام الجزائية فائدة فى عدم تحقق الجريمة فى المجتمع فينتج عنه عدم تحقق ذلك الحكم الجزائى نفسه.

فالإسلام الذى قال : يجب قطع يد السارق ، إنما قال لمنع السرقة و حفظ الأيادى من القطع ، وإذا لم نشاهد فى المجتمع الإسلامى يدا

١- يقول : وإذا ما صفعك على الخد الايمن فأدر الايسر ، أو الايسر فأدر الايمن .
انهض إذ ذاك بدر بشعر كالعنبر ، وافتر عن شفاه كالعقيق الاحمر.
وقال : أمختص حكمكم بصفع الخدود ؟ أم يجرى كذاك على تقبيلها؟».

مقطوعة ، فلاينبغى أن نقول إن حكم قطع يد السارق منسوخ لا يجرى تطبيقه ، بل يجب القول : إن إجراء الحكم وتطبيقه بالشكل الكامل والدقة المتناهية قد وأد السرقة فى مهدها فانتفت ، فتعذر وجود يد مقطوعة لاحد .

وحين قال الإسلام : بإمكان ولى دم المقتول أن يقتص من القاتل فيقتله ، كان ذلك من أجل أن ينتفى القتل وينعدم وجود قاتل كى يقتل قصاصا ، ولم يقل الإسلام ذلك لكى يستمر حدوث القتل ويعدم القتلة قصاصا ، فهذا الحكم هو الطريق الأفضل والحل الأمثل لتجنب القتل .

ونستنتج من ذلك : سخافة وبطلان تساؤل البعض : أى جدوى تعود من قطع يد السارق غير إضافة رجل أجذم إلى المجتمع ؟ لقد قتل القاتل أحد أفراد المجتمع وألحق بالمجتمع خسارة بهذه الجسامة ، فإذا ما قتلنا القاتل نكون قد أعدمنا فردا آخر من المجتمع وخسرنا فى النتيجة فردين من أفراده .

نحن لا نقول هنا : إن قطع يد الساق أمام مرأى الناس سيجعل الآخرين يرتدعون ، بل نقول : إذا ما تقرر قطع يد السارق فإن أحدا لن يقدم على السرقة ، ولذا فإن العلاج الوحيد لمنع ارتكاب السرقة و حالة القلق والاضطراب فى الاجتماع ، وطمأنة هواجس الامهات النائمات فى ظلمة الليل البهيم عند أطفالهن الرضع ، أنما يمكن فى تجسيد هذا الحكم عمليا ، وإلا فالتوقيف والسجن والغرامة والنفى لاتفى بالغرض ، لأن السجون والحال هذه سوف لن تمنع من السرقة ، بل ستكون بؤرا لإعداد اللصوص .

فعلى أساس إجراء حكم القصاص بالنسبة للقاتل ، سوف لن يكون هناك مقتول لينال القاتل قصاصه ، و عليه فسوف لن نفقد الفرد الاول ولا الفرد الثانى ، بل سيعيش الاثنان سالمين عمرا طويلا يتمتعان بمواهب

الحياة ، وأمافى حالة عدم إجراء حكم القصاص ، فسيحدث القتل الاول بكل تأكيد ، وسيرتكب هذا القاتل المتجرى أعمال قتل عديدة أخرى ، كما أكدته التجربة ـ مضافا إلى ذلك فإن عدم القصاص من قاتل سيشجع بقية إفراد المجتمع على ارتكاب القتل .

فعدم القصاص من القاتل ـ الذى يمثل فردا واحدا ـ سيجعلنا نشاهد قتل عدة من الأفراد، وبدلا من فرد واحد فإن الكثيرين سيموتون ويرحلون عن عالم الوجود بلاذنب أو جرم .

هنا ، تتجلى عبارة القرآن الكريم المدهشة العميقة متلألئة أن :

ولكم فى القصاص حيو'ة يـ'أولى الالبـ'ب لعلكم تتقون . [١]

(أى : يا أولى الألباب ! يا من تخوضون فى عالم العلم والمعرفة ! إنكم قد سقتم المجتمع نحو الحياة الواقعية ولمستم حقيقة العيش و الحياة فى ظل إجراء حكم القصاص ؛ و إن الغاية من جعل هذا الحكم لأجل إبعادكم عن القتل و عدم تلويث أياديكم بالجريمة ، و لحفظ و صيانة أفراد مجتمعكم من التعرض لجرائم قتل العمد) .

زارنى ذات يوم فى البيت مجموعة من أطباء مستشفى القائم فى مدينة مشهد المقدسة ، حيث قضى هذا الحقير مدة هناك للعلاج نشأت فيها بيننا علاقات تعارف ومودة ، وخلال المباحثة قال أحدهم : لقد جاءوا يوما بسارق إلى المستشفى ليقطعوا يده ، فقلنا إننا ارتدينا لباس الطبابة الأبيض لنعالج الاصابع المقطوعة فنخيطها ونصلها بيدها التى قطعت منها لا أن نعمد إلى أصابع سالمة فنقطعها ونفصلها بالمبضع والسكين ؛ ثم تساءل : أكان كلامنا صائبا أم لا ؟

---

١ ـ الآية ١٧٩، من السورة٢ : البقرة .

فأجبت : لقد كان خاطئا بالتأكيد ، إن قولكم هذا هو مغالطة وكلام شاعرى ينبع من أوهام و تخيلات واهية ولا يرتكز على أساس من البرهان والتعقل .

وقد دهش الجميع لقولى ـوكانوا بحدود خمسة عشر طبيباـ بينهم عدة جراحين ورئيس ونائب رئيس المستشفى وتأهبوا للدفاع عن مقولتهم .

فقلت : أسألكم أولا ، ألا تقطعون إصبعا أو أصابعا سالمة بأى وجه من الوجوه ؟ فلو أصيبت ـ مثلاـ أصابع مريض ما بالجدرى أو بالتعفن والتلف أفلاتقطعونها ؟ أو لم يحتم واجبكم الطبى قطعها فى هذه الحالة ؟!

قالوا : عند إصابة الاصابع بأى مرض معد يؤدى إلى انتشار العدوى وسريانها إلى باقى الأعضاء ويهدد حياة المريض وسلامته ، فتستلزم الحالة هنا قطع الاصابع واستئصالها .

فقلت : الجواب هو ما تفضلتم به ، والشرع الإسلامى يقطع أصابع السارق لاأصابع الشخص الأمين ، وإن لم تقطع أصابع السارق فإن مرض السرقة سيسرى إلى أيدى وأكتاف وجميع بدن المجتمع، وسيؤدى إلى مرض وفساد المجتمع بأسره ، وسيجعل السرقة تبدو أمرا هينا سهلا . ومضافا إلى إعداد السارقين ، فإنه سيهدد راحة وأمن الرجال والنساء بكل وقاحة ويعرض أموالهم ومكاسبهم وثمرة أتعابهم للسلب والمصادر سرا .

فهو أولا يمثل تضييعا وهدرا بلا داع لرصيد عمر الافراد بالقهر والاعتداء ، وهو ثانيا سيدعهم يتجرعون الحسرة و يعيشون حالة اليأس بدلا من الحياة المعتدلة التى كانوا يعيشوها كعريسين قد أثثا حديثا غرفة وفرشاها وشرعا حياتهما الجديدة . وهو ثالثا يسلب راحة البال والنوم الرغيد والأمن أفراد المجتمع . ورابعا فإن السارق الذى كان ينبغى أن

يكـون فـرداً مؤمنـاً ملتزمـاً قـد آل مصـيره إلى شـخص جـانٍ مجـرم ، فصـار عضـواً فاسـداً زائـداً ، و بـدلاً مـن مسـاهمته فى خدمـة المجتمـع قـد تحـوّل إلى عالةٍ عليه ، فهو يتلف ثرواتهـم غصبـاً وعدوانـاً ، ويلـوّث نفسـه ويُسـقطها مـن حـدّ الإنسـانيّة إلى مسـتوى البهيميّـة والسـبُعيّة الـتى لاتفقـه إلاّ الافـتراس ولاتعرف إلاّ النهب والإتلاف .

أفلا تعـدّ هـذه المفاسـد بحكـم الجـدرى الـذى تقتضـى الوقايـة منـه إلى الإسراع فى قطع الأصابع للحدِّ من عدم انتشار الوباء ؟

إنّ واجـب الطبيـب والجـرّاح قطـع الجـزء الفاسـد والجـرح المـهلك ، واستئصال غدد المـخّ والغـدد السـرطانيّة ، فـإذا كـانت أصـابع السـارق فى نظـر الشـارع الحكيـم بمثابـة الغـدّة الملكـة ، فعلـى كـلّ طبيـب ملـتزم أن يسـارع لاستئصالها إبقاءً على كيان المجتمع من التلف .

ومن وجهة نظر فلسـفة وحكمـة تشـريع قطـع يـد السـارق يقـول اللـه الحكيم فى القرآن الكريم :

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَـزَآءً بِمَـا كَسَـبَا نَكَـٰلاً [١] مِّـنَ اللَـهِ وَاللَهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَمَن تَابَ مِن بَعْـدِ ظُلْمِـهِ وَ أَصْلَـحَ فَـإِنَّ اللَـهَ يَتُـوبُ عَلَيْـهِ إِنَّ اللَهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . [٢]

أى أنّ هـذه العقوبـة المعيّنـة إنّمـا كـانت لاتّعاظـه واعتبـاره ، فـإذا نـدم السـارق وتـاب مـن جرمـه ، فإنّ الربّ العطـوف سيتجاوز عن ذنبه يوم القيامة

---

١ ـ وقـد بُيّنـت فى هـذه الكلمـة فـائدة حـدّ السـارق ، أى قطـع يـده ، لانّـها جـاءت بلفـظ «نَكـٰلاً من اللـه» ونكال اسـم للشـىء الـذى يُجعـل لاعتبـار الآخريـن ، مـن مـادّة نكـل ينكـل بفـلانٍ من باب نصر ينصر أى صنع به صنيعاً يُحذّر غيره إذا رآه .

٢ـ الآيتان ٣٨ و٣٩ ، من السورة ٥ : المائدة .

ويتغمده بعفوه، والله غفور رحيم .

أما من جهة خصوصيات وشروط إجراء هذا الحد ، فيجب العلم أن هذا الحكم لا يجرى على كل سرقة ، وبأى صفة وكيفية ، بل إن قطع يد السارق إنما يتم عند استيفاء اثنى عشرة شرط مجتمعن :

الاول : أن يكون السارق قد وصل **سن البلوغ** ، فلو سرق الصبى غيرالبالغ لايحد ، بل يكتفى الحاكم الشرعى بتعزيره .

الثانى : أن يكون السارق عاقلا ، فإن سرق المجنون فى حال جنونه ، فلاحد عليه.

الثالث : الاختيار، فلا تقطع يد من أجبرعلى السرقة .

الرابع : أن يكون قد سرق من حرز، أى إذا دخل موضعا مقفلا محرزا ، فلو سرق شخص من صحراء وجادة وحمام ومسجد ونظيرها من الاماكن التى يطرقها الناس بغير إذن فلايقطع يده .

الخامس : أن يكون الهاتك للحرز **نفس السارق** ، كأن يكسر قفلا أو ينقب جدار بيت ، فإن كسرشخص آخر القفل فسرق السارق المال فلا تقطع يد السارق .

السادس : أن يكون السارق فى معرض **شبهة الملكية** والمأذونية فى التصرف ، فلو توهم أن المال الفلانى ملكه ، أو أن له الإذن فى التصرف به ، أو حصل للحاكم الظن بذلك فلاحد عليه .

السابع : أن لا يكون مقدار المال المسروق **ربع دينار من الذهب الخالص المسكوك** أو ما يعادله ، فلو نقص عن ذلك ، فلا تقطع يده .

وربع الدينار بالقيمة الحالية ـ حيث إن (سكة آزادى) [1] تعادل ستة

---

١ ـ (سكة آزادى) هى السكة الذهبية المتداولة فى الجمهورية الاءسلامية فى إيران.

عشر [١] ألف تومانا ـ يبلغ ألفى تومان ، إذ إن صاحب « الجواهر » فى كتاب الزكاة من كتابه « الجواهر» قد ادعى الإجماع على أن الدينار الواحد ذهبا يزن مثقالا شرعيا واحدا ـ انتهى [٢] .

ومعلوم لدينا أن المثقال الصيرفى المتداول فى أسواقنا أثقل من المثقال الشرعى بمقدار الثلث ، أى :

أن المثقال الصيرفى يعادل(١/٣ + ١) المثقال الشرعى ، والمثقال الشرعى ٣/٤ المثقال الصيرفى .

وباعتبار أن المثقال الصيرفى وزنه ٢٤ حمصة ، فيصبح وزن المثقال الشرعى ١٨ حمصة (من الذهب المسكوك) .

١ ـ القيمة خاصة بزمن الكتابة. (م)

٢ ـ قال فى «الجواهر» : الدينار الواحد ذهبا يزن مثقالا شرعيا واحدا ، لكن الدرهم لايزن مثقالا، بل يزن سبعة أعشار المثال الشرعى .

والدرهم ستة دوانيق ، والدانق ثمان حبات من أواسط حب الشعير فى العظم والصغر والرزانة والخفة ، لذا فالدرهم ثمان وأربعون حبة شعير، والمثقال الشرعى ثمان وستون شعيرة وأربعة أسباع الشعيرة .

لان : ٤٨ × ١٠/٧ = ٤/٧ ٦٨ أى ثمان وستون شعيرة وأربعة أسباع الشعيرة .

والبعض القائل إن الدرهم نصف المثقال وخمس المثقال ؛ وهو سواء ، لان ١/٢ + ٧/١٠ المثقال الشرعى درهم وثلاثة أسباع الدرهم ،لان :١درهم = ٧/١٠ مثقال

س ١ مثقال .

س = ١٠×١×١/٧ = ١٠/٧ = ٣/٧

وفى زكاة الذهب ، فإن المثقال الشرعى هو المعتبر ، أى أن النصاب يجب أن يصل عشرين مثقالا شرعيا ، وفى زكاة الفضة فإن الدرهم الشرعى هو المعتبر، أى أن النصاب يجب أن يصل مائتى درهم شرعى ، أى ما يعادل ١٤٠ مثقالا شرعيا ، لان ٢٠٠ × ٧/١٠ ١٤٠ ولان المثقال الصيرفى يساوى ١/٣ ١ مثقالا شرعيا ، والمثقال الشرعى ٣/٤ المثقال الصيرفى ، لذا فإن نصاب الذهب يعادل ١٥ متقالا صيرفيا و نصاب الفضة يعادل ١٠٥ مثقالا صيرفيا .

ومن جهة أُخرى فقد عيّنوا [1] الوزن الدقيق لـ (سكّة آزادى) ٣٦/٢٥ حمّصة، أى مثقالاً ونصف المثقال وربع حمّصة صيرفىّ، وعلى هذا فإنّ وزن « سكّة آزادى » واحدة يعادل مثقالين وربع حمّصة شرعىّ.

« سكّة آزادى » واحدة = ٢٥ /٢ مثقالاً شرعيّاً .

وباعتبار المثقال الشرعىّ يزن ١٨ حمّصة ، لذا فإنّ:

« سكّة آزادى » واحدة = ٢×١٨+٠/٢٥ حمّصة أى ٣٦ حمّصة تقريباً .

وزن المثقال الشرعىّ = $\frac{\text{«سكّة آزادى»}}{٢} = \frac{٣٦}{٢} = ١٨$ حمّصة تقريباً .

قيمة المثقال الشرعىّ $\frac{١٦٠٠٠}{٢} = ٨٠٠٠$ تومان .

قيمة ربع المثقال الشرعى (اى ربع دينار) = $\frac{٨٠٠٠}{٤}$ ٢٠٠ تومان .

وعلى هذا الحساب فلو سرق السارق ما قيمته أقل من هذا المقدار ، فلا يُحَدّ .

الثامن : أن تكون السرقة سرّاً ، فلو سرق السارق شيئاً علناً بحضور مالكه ، فلايُقطع يده .

التّاسع : أن لاتكون السرقة سرقة أب من مال ولده، حيث إنّ الحكم لايُجرى فى هذه الحالة.

العاشر : أن لا تكون السرقة ، سرقة عبدٍ من مال مولاه ، إذ لا تقطع يد العبد فى هذه الحالة .

الحادى عشر : أن يكون إرجاع السارق للحاكم بناءً على طلب الغريم أى صاحب المال المسروق ، فلو عفى صاحب المال ولمْيُرجع السارق للحاكم لايُقام عليه الحدّ .

---

١ ـ عيّن أحد الأصدقاء من ذوى الخبرة الوزن الدقيق لـ(سكّة آزادى) ما يُعادل ٣٦/٢٥ حمّصة . أى مثقالاً ونصف المثقال وربع حمّصة ؛ ووزن نصف « سكّة آزادى » واحداً وعشرين حمّصة ، ووزن رُبعها ١٠/٤ حمّصة .

الثانى عشر : أن لاتكون السرقة فى عام مجاعة او قحط ، عندها لاحد عليه .

هذه هى الشروط التى ذكرها الفقهاء فى كتبهم الفقهيّة، لذا فإنّ قطع يد السارق إنّما يتحقّق فى موارد نادرة فقط ، وذلك حين تجتمع الشروط الاثنا عشر وتثبت سرقة السارق عند الحاكم الشرعىّ ، أى المجتهد الجامع للشرائط بإقرار السارق واعترافه ، أو بقيام البيّنة وشهادة رجلين عادلين، وإلاّ فلحاكم لايُقيم الحدّ على السارق .

أمّا حكم القطع فعبارة عن قطع أصابع اليد اليمنى فقط : الخنصر والبنصر والوسطى والمسبّحة (السبّابة) ، وتُترك راحة اليد والإبهام .

جاء فى « روضات الجنّات » فى شرح حال وترجمة أبى العلاء المعرّى أنّه كان يأتى من الشام إلى بغداد للحضور فى مجلس عَلَم الهدى السيّد المرتضى ، فاعترض يوماً على السيّد المرتضى رضوان الله عليه وأنشأ يقول بمقتضى إلحاده شعراً :

يَدٌ بخَمْس مَئين عَسْجدٍ وُدِيَتْ مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِى رُبْعِ دِينارِ

فأجَابه السيّد المَرتضى بهذا البيت:

عِزُّ الاَمَانَةِ أَغْلاَهَا ،و اَرْخَصَها ذُلّ الخِيَانَةِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ البَارِى[1]

وفى رواية:

حَرَاسَةُ الدَّمِ أَغْلاَهَاو اَرْخَصَهَا

حَرَاسَةُ المَالِ فَانْظُرْ حِكْمَةَ البَارِى

١ـ أورد هذه القصّة السيّد نعمة الله الجزائرىّ فى كتاب «زُهَر الربيع» ص ٣٨٢ ، طبعة انتشارات ناصر خسرو، وذكر أنَّ البيت * هناك مظلومةٌ غالت بقيمتها للشافعىّ ؛ ولايخفى ما فيه ؛ لانَّ الفترة ما بين الشافعىّ والسيّد المرتضى تتجاوز القرن، فقد عاصر الشافعىّ هارون الرشيد والإمام الكاظم عليه السلام ، بينما عاش علم الهدى بعد اختتام زمن الغيبة الصغرى .

وأجابه رجل آخر من أهل المجلس بقوله :

هُنَـاكَ مَظْلُـومَـــةٌ غَـالَـتْ بِقِيمَـتِهَـا
وَهَـا هُنَـا ظَلَمَـتْ هَـائتْ عَلَى البَارِى

وقال رجل آخر : لَمَّا كَانَتْ أَمِينَةً كَانَتْ ثَمِينَةً ؛ فَلَمَّا خَانَتْ هَانَتْ .

ونظم آخر هذا المعنى بقوله:

خِيَـانَتُـهَا أَهَـانَتْهـــا وكَانَـتْ ثَمِينَـاً عِنْـدَمَـا كَانَـتْ أَمِـينَـا [1]

وعلـى هـذا البيـان فـإنّ القوانـين الجزائيّـة تـرادف القوانـين العباديّـة والاجتماعيّـة والمدنيّـة فى ضرورتهـا ووجوبهـا للمجتمـع ، وواجـب الطبيـب أن لايتخلّف عن مسـؤوليّته فى إجـراء كـلا القـانونين ، إذ إنّـهما أشـبه بجنـاحَى طائر لايمكنه التحليق إلاّ بهما سويّاً ، وسيعجز هـذا الطـائر عـن الطـيران بجنـاحٍ واحد ويصبـح غنيمـةً بـاردة للصيـاد وملـهاةً لأطفـال الحـارة، وسـتبدّل حياتـه موتاً وتفوّقه وسعادته شقاءً وذلاّ ومسكنة . [2]

١ـ «روضـات الجنّـات» ج ١، ص ٢٧١ ، وهـذه القصّـة مذكـورة أيضـاً فى «نامـة دانشـوران ناصرى» (=رسالة الحكماء الناصريّة) ج ٢، ص ٢١١ ، بالفارسيّة .

وترجـع الإجابـات الـتى أُجيـب بهـا علـى اعـتراض أبى العـلاء بهـذا البيـان إلى أُمـور ثلاثـة يمكـن اعتبـار كـلّ منـها بصـورة منفصلـة سـبباً لقطـع يـد السـارق ، الاوّل : قيمـة الامانـة وغلاؤهـا وحقارة الخيانة وتفاهتها .

الثـانى : ردع الظلـم ومقاومـة الاعتـداء ، فلليـد المظلومـة قـدر وشـأن يُنتصـف مـن ظالمـها ، أمّا اليد الظالمة فجزاؤها القطع.

الثـالث : مـن أجـل إقـرار قـانون حفـظ وحراسـة دمـاء النـاس وأموالهـم فـإنّ مَـن قطـع يـد شـخص وأراق دمـه فعليـه أن يدفـع نصـف الديـة الكاملـة إن كـان غـير عـامد، وكـذا الأمـر إن كـان عـامداً ورضـى صـاحب اليـد المقطوعـة بـأخذ الديـة وأسـقط حقّـه فى القصـاص ، أمّـا إذا سـرق شخص فيجب قطع يده .

٢ ـ يجـب العلـم أنّ قطـع أصـابـع السـارق يحـدث عنـد تحقّـق جميـع الشـروط الـتى

ومن هنا فقد عبّر القرآن الكريم عن القصاص بكلمةٍ ما أعجبها من كلمة تأخذ بالالباب: الحياة.

وقد قال الأُستاذ العلاّمة الطباطبائى ّ قدّس الله سرّه الشريف فى تفسير هذه الآية المباركة القرآنيّة : وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰأُولِى الالْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، [1] إشارة إلى حكمة التشريع ، ودفع ما ربّما يتوهّم من تشريع العفو والدية ، وبيان المزيّة والمصلحة التى فى العفو، وهو نشر الرحمة وإيثار الرأفة ، أنّ العفو أقرب إلى مصلحة الناس ، وحاصله أنّ العفو ولو كان فيه ما فيه من التخفيف والرحمة ، لكنّ المصلحة العامّة قائمة بالقصاص ، فإنّ الحياة لايضمنها إلاّ القصاص دون العفو والدية ولا إىّ شىء ممّا عداهما و كلّ من كان ذالبّ لا يحكم إلا بذلك ، وقوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أى القتل ، وهو بمنزلة التعليل لتشريع القصاص .

وقال أيضاً : وقد ذكروا أنّ الجملة ، أعنى قوله تعالى وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ـ الآية، على اختصارها وإيجازها وقلّة حروفها وسلاسة لفظها وصفاء تركيبها من أبلغ آيات القرآن فى بيانها وأسماها فى بلاغتها، فهى جامعة بين قوّة الاستدلال وجمال المعنى ولطفه ورقّة الدلالة وظهور المدلول . وقد كان للبلغاء قبلها كلمات فى القتل والقصاص يعجبون ببلاغتها وجزالة أُسلوبها ونظمها ، كقولهم : قَتْلُ البَعْضِ إحْيَاءٌ لِلْجَمِيعِ . وقولهم : أَكْثِرُوا القَتْلَ لِيَقِلَّ القَتْلُ . وأعجب من الجميع عندهم قولهم :

ذُكرت، أمّا عند انتفاء بعض تلك الشروط فإنّ الحاكم يعاقب السارق بالتعزير، أى بالجلد والسجن ، وبشكل كلّى ّ فكلّما امتنع إجراء الحدّ لخلل فى شروط إقامته وكان الجرم بدون ذلك الشرط ثابتاً عند الحاكم فإنّه يعزّر ذلك الجانى .

٢ ـ الآية ١٧٩، من السورة ٢: البقرة .

القَتْلُ أَنْفَى لِلقَتْل ، غير أنّ الآية فاقت الجميع ونفت الكلّ : وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ، فالآية أقلُّ حروفاً وأسهل فى التلفّظ وفيها تعريف القصاص وتنكير الحياة ليدلّ على أنّ النتيجة أوسع من القصاص وأعظم ، وهى مشتملة على بيان النتيجة وعلى بيان حقيقة المصلحة وهى الحياة ، وتتضمّن إيصال معنى حقيقة غاية وفائدة القصاص ، فالقصاص هو المؤدّى إلى الحياة دون القتل، فإنّ من القتل ما يقع عدواناً ليس يؤدّى إلى الحياة ، وهى مشتملة على أشياء أُخر غير القتل تؤدّى إلى الحياة ، وهى القصاص فى غيرالقتل ، وهى مشتملة على معنىً زائد آخر ، وهو معنى المتابعة التى تدلّ عليه كلمة القصاص بخلاف قولهم **القتلُ أنفى للقتل** ، وهى مع ذلك متضمّنة للحثّ والترغيب ، فإنّها تدلّ على حياة مذخورة للناس مغفول عنها يملكونها فعليهم أن يأخذوا بها ، نظير ما تقول : لك فى مكان كذا، أو عند فلان مال وثروة ، وهى مع ذلك تشير إلى أنّ القائل لايريد بقوله هذا إلاّ حفظ منافعهم ورعاية مصلحتهم من غير عائدٍ يعود إليه حيث قال : وَلَكُمْ ، فهذه وجوه من لطائف ما تشتمل عليه هذه الآية ، وربّما ذكر بعضهم وجوهاً أُخرى يعثر عليها المراجع ، غير أنّ الآية كلّما زدتَ فيها تدبّراً زادتك فى تجليّاتها بجمالها وغلبتك بجُورُ نورها. وَكَلِمَةُ اللَهِ هِىَ الْعُلْيَا .[1]

أجل ، فقد كان الكلام بشأن القصاص وانتصاف الحقّ ، حيث اعتبر القرآن الكريم العفوَ والسماح أُسلوباً مرضيّاً وشيمةً حسنة حمدها وحثّ عليها ، واعتبر ـ فى الوقت نفسه ـ حقّ الانتقام مقابل المعتدى على حياة الإنسان أو ماله أو شرفه وكرامته وعرضه حقّاً طبيعيّاً مسلّماً، وقد عبّر بلفظ

١ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١، ص ٤٣٣ و٤٣٤ ، وهذه الآية هى الآية ٤٠ ، من السورة ٩ : التوبة .

الشهيد عمّن يُقتل فى طريق الدفاع عن حقوقه وإحقاقها واستعادتها .

روى السيوطىّ فى « الجامع الصغير» بسندٍ حسن ، عن سعيدبن زيد، عن كتاب « مسند أحمدبن حنبل »، و« صحيح البخارى » و« صحيح مسلم» ، و « صحيح الترمذى » ، و« صحيح ابن حَبَان» ، عن رسول‌الله صلّى‌الله عليه وآله وسلّم أنّه قال:

مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهيدٌ ، [١] وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينهِ فَهُوَ شَهيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهيدٌ . [٢]

روى الكلينىّ فى « الكافى » فى باب **قتل اللصّ** بسنده عن أبى بصير قال : سألتُ أبا جعفر الباقر عليه السلام عن الرجل يُقاتِل عن ماله فقال : إنّ رسول‌الله صلّى‌الله عليه وآله وسلّم قال : مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ شَهِيدٍ ـ الحديث . [٣]

وروى الكلينى أيضاً فى باب مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ بسنده المتّصل ، عن عبدالله‌بن سنان ، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال : قال رسول‌الله صلّى‌الله عليه وآله وسلّم ، مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهيدٌ . ٤

وروى بهذا الإسناد ، عن أبى مريم ، عن أبى جعفر الباقر عليه السلام قال : قال رسول‌الله صلّى الله عليه وآله : مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ شَهِيدٌ. ثمّ قال: يا أبا مريم ! هل تدرى ما دون مظلمته ؟

---

١ ــ ونقل هذه الفقرة فى «سفينة البحار» مادّة شهد ، ج١، ص٧٢٠ ، عن الإمام الصادق عليه السلام ، نقلاً عن «البحار» للمجلسىّ ج ٤، ص ١٤٣ ، طبعة الكمبانىّ القديمة .

٢ ـ «الجامع الصغير» ج ٢، ص ١٧٨، الطبعة الرابعة ، مطبعة مصطفى البابى الحلبىّ، مصر.

٣ ـ «الكافى» ج ٧، ص ٢٩٦ ، طبعة المطبعة الحيدريّة .

٤ ـ «فروع الكافى» ج ٥ ، الحديث الأوّل .

قلتُ: جُعلت فداك . الرجلُ يُقتل دون أهله ودون ماله وأشباه ذلك .

فقال: يَا أَبَا مَرْيَم ! إنَّ مِنَ الفِقْهِ عِرْفَانُ الحَقِّ . [1]

وروى السيوطىّ أيضاً فى « الجامع الصغير » عن سنن النسائىّ؛ وعن ضياء ، عن سويدبن مقرن بسند صحيح أنّ رسولاللّه صلّىاللّه عليه وآله وسلّم قال : مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ . [2]

(يا أبا مريم ! الفقيه مَن عرف مواضع القتال ـ فى أمثال هذه الموارد ـ ثمّ يتعرض لها . لذا ، ينبغى ترك التعرّض فى بعض الموارد .)

هذا من جهة ، ومن جهةٍ أُخرى فقد أهدر الاءسلام دمَ من كان بصدد الاعتداء على أموال الناس ، أو بصدد الفجور بأعراضهم ، وقد أعفى فى حكمه صاحب البيت الذى يتصدّى للسارق دفاعاً عن ماله أو عرضه فيقتله فى صراعهما ، إذ إنّ دم هذا المعتدى مهدور لاقيمة له .

وقد روى الكلينىّ بسنده المتّصل ، عن الإمام أبى الحسن موسىبن جعفر الكاظم عليه السلام فى رجل دخل على دار آخر للتلصّص أو الفجور فقتله صاحب الدار أيُقتل به أم لا ؟ فقال :

اعْلَمْ أَنَّ مَنْ دَخَلَ دَارَ غَيْرِهِ فَقَدْ أَهْدَرَ دَمَهُ ؛ وَلَايَجِبُ عَلَيْهِ شَىءٌ. [3]

(اعلم : أنّ من دخل بيوت الآخرين للسرقة أو الفجور ، فقد أهدر

---

١ ـ «فروع الكافى» ج ٥ ، الحديث الثانى .

٢ ـ «الجامع الصغير» ج ٢، ص ١٧٨. وأورد القاضى القضاعىّ فى كتابه «شرح فارسى شهاب الأخبار» بالفارسيّة ، ص ١٤٥ ، فى الكلمات القصار لخاتم الانبياء صلّى اللّه عليه وآله ، المطبوع مع تقديم وتصحيح وتعليق السيّد جلالالدين الحسينىّ الأُرقوىّ المحدّث ، وجمع فيه ٧٩٤ كلمة من كلمات النبىّ؛ أورد تحت رقم ٢٧٨ : وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ . و تحت رقم ٢٨٠ : وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ .

٣ـ «فروع الكافى» ج ٧، ص ٢٩٤، كتاب الديات ، باب مَن لا دية له ، الرواية ١٦ .

دمه . و فى هذه الصورة فليس على صاحب البيت من شىء فى قتله لذلك الرجل ، و لا تشغل ذمّته فى قصاص أو دية أو ما شابه ذلك .)

ومن هذه الطريق أجاز القرآن الكريم للمظلوم قول السوء وبيان عيوب وسيّئات الظالم ، ورخّص له أن يصرخ جاهراً بسيّئات الظالم فى ظلمه الذى ألحقه به ، وأن يحطّ من شأنه وكرامته أمام المجتمع ، وهذا فى الواقع المقام الاكبر الذى أقرّه القرآن الكريم للمظلوم لدفع ظلم الظالم ، حيث أقرّ القرآن الكريم أن :

لاَّ يُحِبُّ اللَهُ الْجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَهُ سَمِيعًا عَلِيمًا *إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا . [1]

قال العلاّمة الطباطبائىّ قدّس الله سرّه الشريف فى تفسير هذه الآية : يُستفاد من الجملة البَعديّة التى ترغّب فى العفو عن السوء أنّ قوله إِلاَّ مَن ظُلِمَ استثناء منقطع ، إذ يُستفاد من المستثنى منه أنّ الله سبحانه لايحبّ من المظلوم وغيرالمظلوم الجهر بالسوء من القول للظالم ولغير الظالم ، وبشكل كلّى فلاينبغى الجهر بالسوء من الجميع ، ويستفاد من هذه الجملة عدم المحبوبيّة ، ولأنّ استثناءً قد ورد عليها فإن كان مفاده استثناءً متّصلاً فإنّه يفيد محبوبيّة الجهر بالسوء من المظلوم فيمن ظلمه ، وباعتبار أنّ فى الآية التى تلتها قد ورد امتداح ومحبوبيّة العفو . الإغضاء عن كلّ سوء ، فيُعلم أنّ الاستثناء كان منفصلاً، ومفاده الجواز وعدم الحرمة لا المحبوبيّة والاستحباب أو الوجوب . وعلى هذا فالجهر بالسوء غيرمحبوب على الدوام إلاّ ممّن ظُلم فلابأس به .

---

١ ـ الآيتان ١٤٨ و ١٤٩، من السورة ٤ : النساء .

ويُستدلّ من القرائن المقاميّة أنّ المراد بالجهر بالسوء من القول : أوّلاً أن يكون فى خصوص الظلم الذى ألحقه الظالم بالمظلوم لامطلق كلّ مساوى الظالم . وثانياً أنّ هذا الجهر بالسوء يجب أن يكون للدفاع ومنع الظلم لامطلق الجهر بالسوء وإظهار المساوى والعيوب .[1]

ورأينا فى زماننا أُنموذجاً بارزاً لهذا الجهر بالسوء من القول وبيان وتعديد مساوى وعيوب الظالم ، والذى حكى وجسّد علناً نداء المظلوم وصرخته أمام عدوان الظالم .

تلك هى قصّة النساء المؤمنات اللاتى هرعن فى حجابهنّ ووقارهنّ إلى الشوارع عند سقوط وانهيار حكم العائلة البهلويّة الجائرة التى لم تتأبّ وتتورّع عن إلحاق مختلف أنواع الظلم والجناية والخيانة بأرواح وأموال ومقدّرات وأعراض الشعب المسلم ، ومن بين ذلك إلغاؤه حجاب النساء المسلمات وفرضه ونشره السفور والفحشاء والرذيلة والاعمال المنافية للعفّة والشرف على الشعب المسلم بالقوّة والعنف .

فلقد جاءوا بعدّة من النساء العاريات المتهتّكات من اللواتى عشن فى الغرب فبُهرن به وشُغفن ، وقدّموهن ـ بنواياهم وأفكارهم الفاسدة القذرة ـ باسم أُنموذج التحضّر ومثال التحرّر ، ووضعوا تحت تصرّفهنّ زمام الإعلام فى المدارس ، ووسائل الإعلام وميزانيّة الماليّة والاوقاف ، وقدّموهنّ على أنّهنّ نساء إيران الأصيلات المتحرّرات ، وحاولوا عرض إيران على أنّها خالية من الحياء والعصمة والعفّة ، خاوية من العلم والادب والفنّ والدين والاخلاق ، وأنّ النساء المؤمنات المتديّنات المتعلّمات المحجّبات

---

١ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٥ ، ص ١٢٩ ؛ مختصر كلام العلاّمة فى تفسير هذه الآية.

لايُمثّلن إلاّ أقليّة لا مكان لها إلاّ قعر البيوت ومجالس العزاء وبعض المحلاّت الفقيرة المستضعفة والبعيدة عن الرقيّ والتحضّر، وأنّ العلم والأدب والثقافة والتحضّر مختصّ بأُولئك لايقاسمهنّ فيه غيرهنّ !

ولقد حبسوا أنفاس الناس فى صدورهم بالإرعاب والإرهاب وتشديد السياسة الغربيّة المتسلِّطة ، بحيث إنّ أحداً لم يكن ليجرؤ أن يتفوّه بكلمة ؛ ولميكن لنساء إيران المسلمات اللاتى ربّين فى حجورهنّ لألف سنة ، ويتعاهدن حاليّاً بنفس النهج والاُسلوب ـ الشجعانَ والعلماء والرجال الناجحين المثمرين ، لم يكنّ يمتلكن مطلقاً حقّ الكلام والمناقشة والدفاع عن حقوقهنّ الاوّليّة المسلّمة ، وكانت تلك الزمرة المتهتّكة قد أمسكت زمام الأُمور لدرجة التى جعلت المدارس منحصرة بين أيديهنّ بالشكل الذى كان يسوق جميع بنات وحفيدات تلكم النساء الأصيلات قهراً إلى الجانب الآخر ويربّيهنّ ويُنشّئهنّ على أساس المدنيّة الغربيّة والثقافة الاستعمارية الكافرة .

لقد كان هذا ظلماً ، وكان عدم السماح للنساء المسلمات بالدفاع عن حقوقهنّ ظلماً آخر يُضاف إليه ، فقد كان عليهنّ أن يتحملنّ هذه المظالم وأن يُحرمنَ الحقّ فى التحدّث والكملام والدفاع عن الحقوق ، وهكذا فقد تدفّقت النساء المسلمات إلى الشوارع والازقّة فى ثورة الناس والنهضة الشاملة ضدّ الحكومة الجائرة ، وأعلنَّ بالصرخات والاصوات الجَهوَريّة الغاضبة مساوىءالحكومة البهلويّة ، وأزحن الستار عن الظلم الذى تجرّ عنه غصصاً طيلة السنين الخمسين الماضية ، وأعلنّ بصفوفهنّ مُلائهنّ السوداء وحجابهنّ الوقور أنّ الغالبيّة الساحقة لنا ، وأنّ الدين والإيمان والحياء

والعفّة والعلم والادب والتحمّل والصبر فى تنظيم أُمور البيت وتربية النسل المسلم من شأننا .

إنّ الإسلام لا يرتضى صرخات النساء ، ولا يسيغ جهرهنّ بالسوء من القول ، ولايقرّ لهن الخروج من البيت وتشكيل التظاهرات والتجمّعات ، والهتاف بالشعارات ، فهى تمثّل فى نظر الإسلام أعمال إساءة لطائفة النساء .

لكنّ التظاهر والهتاف بالشعارات فى حالة الدفاع عن حقوقهنّ ، أو لاستعادة حقوقهنّ المهدورة ، ولرفع المظالم التى لحقت بهنّ فهو مصداق حقيقىّ لــ لاَ يُحِبُّ اللَهُ الْجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ ، وتصبح الصراخات الهدّارة المدوّية مقبولة وأَمراً جائزاً يقرّه الإسلام ويُمضيه .

وبشكل عامّ ، فإنّ هذه الآية المباركة هى الدليل القرآنى الافضل على جواز التمرّد والانتفاض على الحكومة الظالمة الجائرة من قبل الرجال والنساء برفع الشعارات وبالصرخات القويّة التى تكسر شوكة ظلم الظالمين وتردّ فساد المفسدين ؛ لأنّ الجهر كما يقول الراغب الاصفهانى فى مادّة (جَهَرَ) يُقال لظهور الشيء بإفراط حاسّة البصر أو حاسّة السمع ، أمّا البصر فنحو:ر أَيْتُهُ جهاراً ، قال الله تعالى : لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى' نَرَى اللَهَ جَهْرَةً . [1] و: أَرِنَا اللَهَ جَهْرَةً ؛ [2] إلى أن يقول : وأمّا السمع فمنه قوله تعالى : سَوَآءٌ مِّنكُمْ مَّنْ أَسَرَّالْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ . [3]

١ــ مقطع من الآية ٥٥ ، من السورة ٢: البقرة : وَإِذَا قُلْتُمْ يَا'مُوسَى' لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى' نَرَى اللَهَ جَهْرَةً .

٢ ـ مقطع من الآية ١٥٣، من السورة ٤: النساء : فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى' أَكْبَرَ مِن ذَ'لِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَهَ جَهْرَةً .

٣ ـ مقطع من الآية ١٠، من السورة ١٣ : الرعد : سَوَآءٌ مِّنكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن

لذا فإنّ أى تظاهر وهتاف بشعار لدفع ظلم الظالم وعَدِّ تجاوزاته ومظالمه يمتلك أساساً وأصلاً قرآنيّاً .

وهنا ينبغى العلم أنّ زينة النساء بالحجاب والعفّة وإدارة شؤون البيت والإنجاب وعدمرفع الصوت عند الأجنبىّ ، و لكن الجهر بالسوء من قبلهنّ مع أنّه يندرج تحت عنوان السوء والقبح إلاّ أنّه قد استثنى بشكل خاصّ وارتفع عنه عنوان القبح والسوء إن تعلّق ببيان مساوى الظالم .

أى أنّ للمرأة الحقّ ـ بشكل استثنائىّ وبعنوانٍ ثانوىّ ـ أن ترفع صوتها مقابل الرجال بشتم الظالم جهراً للظلم الذى ألحقه بها ، لا أن يكون لها الحقّ فى كلّ وقت ومكان ، وفى مختلف الظروف فى المشاركة فى المسيرات و إلقاء الخطب والسير مع الرجال كتفاً لكتف ، فهذا العمل يُخالف الإسلام ويتناقض مع بُنية المرأة وكيانها الخلقىّ والفطرىّ ويتعارض مع مصالحها ومنافعها .

فإعلاء صوت المرأة ـ فى الظروف العاديّة ـ من خلال التحدّث مع الرجال ، وإلقاء الخطب ومشاركتها فى مجالس الرجال ومحافلهم ، أو فى الحفلات المختلطة ، خلاف النصوص الصريحة الواردة فى الاءسلام .[1]

ويجب علينا الدقّة والانتباه كى لا نخطو فى طريق تقدّمنا وتكاملنا الإسلامىّ خطواتٍ ـ لاسمح الله ـ تعيدنا إلى الوراء وتسوقنا القهقرى إلى الجاهليّة، وبدلاً من أن نقتطف معطيات الحياة الإسلاميّة الجميلة وثمارها

جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . انظر: «المفردات فى غريب القرآن» ص ١١٠، طبعة مطبعة مصطفى البانىّ .

١ـ للتوسّع فى هذا المطلب يُراجع كتاب «رسالة بديعة فى تفسير آية : «الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض» الذى كتبه المؤلّف بالعربيّة وتُرجم كذلك إلى الفارسيّة.

الحلوة اليانعة ، ونستريح فى ظلّ شجرتها الغزيرة الثمر، بدلاً من ذلك تظهر فينا ـ لاقدّر الله ـ أعمال وأساليب الكفر والآداب الجاهليّة والبربريّة والغربيّة تلك باسم الإسلام وباسم القائدة الرشيدة الشجاعة ، والمرأة المتفرّدة فى عالم البشريّة ، واللبوة الشجاعة فى ساحات الجهاد مع الكفر والإلحاد، أى زينب الكبرى سلام الله عليها ، وندفع نساءنا فى الظروف العاديّة للمشاركة فى مجالس الرجال للتربية والتعليم ، أو للتفسير والتأريخ ، أو للموعظة والخطابة ثمّ نقول : أىّ مانع فى هذا ؟ لقد ذهبت فاطمة الزهراء عليها السلام إلى المسجد وألقت خطبتها أمام الرجال ، وخطبت أيضاً ابنتها زينب فى شوارع الكوفة أمام جمع من الرجال المحتشدين ، ثمّ خطبت فى الشام فى مجلس يزيد أمام الرجال وتكلّمت وحاورت، وكذا الأمر فى حفيدتها المكرّمة فاطمة بنت الحسين التى خطبت فى الكوفة . [1]

---

١ ـ اعلم أنّ أصحاب المقاتل نقلوا لموكب سبايا سيّد الشهداء عليه السلام ثلاث خطب ، واحدة لزينب سلام الله عليها ، وأخرى لفاطمة الصغرى ، وثالثة لأُمّ كلثوم بنت أميرالمؤمنين عليه السلام ، ويُعلم من هذا القول وجود ابنتين لسيّد الشهداء عليه السلام فى القافلة باسم فاطمة ، الأُولى فاطمة الملقّبة بالكبرى وقد زوّجها الإمام الحسين عليه السلام للحسن المثنىّ ابن الإمام الحسن عليه السلام ، والأُخرى فاطمة الملقّبة بالصغرى التى زوّجها الإمام عليه السلام للقاسم بن الحسن .

وما ورد من أحد العلماء من قوله (إنّ الإمام الحسين عليه السلام كان لديه ابنة واحدة باسم فاطمة زوّجها للحسن المثنّى ، ولم يكن له فاطمة أُخرى ليزوّجها للقاسم) فإنّه لم يكن كاملاً ، إذ إنّ لقب الصغرى لفاطمة دليل وقرينة على تعدّد اسم فاطمة فى ولد الحسين ، إلاّ إذا قيل إنّ لقب الصغرى يمكن أن يكون مقابل فاطمة الكبرى إحدى بنات أميرالمؤمنين عليه السلام والتى كانت أكبر عمراً وكانت موجودةً فى القافلة ، فلقّبت هاتان الاسيرتان بالكبرى والصغرى تمييزاً بينهما .

وهو خطأٌ فادح وخبطٌ لا يُعذر يرد على أذهاننا ، ونوع من المغالطة

وهذا الاحتمال مع كونه ممكناً لكنّ الاحتمال الاوّل أقوى منه ، لانّ المتعارف أنّ الكبرى والصغرى كان أوّلاً من الالقاب ، وثانياً لهما حكم الاسم والعَلَم فى أهل بيت واحد ودار واحدة، ولانّ سيّد الشهداء عليه السلام كان يحبّ أُمّه حبّاً جمّاً فقد أطلق اسمها مكرّراً على بناته، كما كان يحبّ والده عليّاً عليه السلام فسمّى أولاده مكرّراً باسمه، فدعى الابن الاكبر علىّ الاكبر ودعى السجّاد عليه السلام الذى كان أصغر منه بعلىّ الاصغر (روى فى «نفس المهموم» ص ٢٨٠ ، عن «المناقب» عن يحيى بن حسن أنّ يزيد قال لعلىّ بن الحسين عليه السلام : واعجباً لابيك ؟ سَمّى عليّاً وعليّاً.

فقال «إنّ أبى أحبّ أباه فسمّى باسمه مراراً» ، ولذا فقد كانت ابنتان من بناته عليه السلام تُسمّيان بفاطمة : الكبرى والصغرى ، وفاطمة الصغرى هذه لاتُقابل فاطمة الكبرى بنت أميرالمؤمنين ، إذ يؤتى بلقب الكبرى والصغرى للتمييز وعدم الخلط فى دار واحدة ، أمّا إذا كان الامر فى دارين فلا خلط ، والتسمية هكذا ليست متداولة .

وأمّا علىّ الاكبر وعلىّ الاصغر ، فما يستخلص من التواريخ أنّ سنّ علىّ الاكبر قد تجاوز الخامسة والعشرين ، فقد ولد فى خلافة عثمان ، وكان له زوجة وولَد ، والقرائن على كونه أكبر من الإمام السجّاد عليه السلام كثيرة ، فقد ذكر الشيخ المحقّق ابن إدريس فى كتاب «السرائر» فى باب الزيارات ، فى آخر كتاب الحجّ ، ونقل المرحوم المحدّث القمّى كلامه فى «نفس المهموم» ص ١٩٢ و ١٩٣ ، وأيّده فى ردّه بجملات قارعة شديدة على قول الشيخ المفيد إنّ أوّل قتيل يوم عاشوراء كان علىّ الاصغر ، وقد نقل ترجمتها المرحوم آيةالله الشيخ أبوالحسن الشعرانى رضوان الله عليه فى كتاب «دمع السجوم» ص ١٦٣ إلى ١٦٥ مع إضافات عليها .

أمّا سنّ الإمام زين العابدين عليه السلام فى يوم عاشوراء فكان ثلاثاً وعشرين سنة، وأمّا الطفل الرضيع للحسين عليه السلام والذى استشهد بالسهم ، فإنّ الحقير لم ير ذكره باسم « علىّ » * فى كتب المقاتل ، بل ورد ذُكره فقط بعنوان طفل رضيع . نعم ، كان لسيّد الشهداء عليه السلام طفل له أربع سنوات واسمه عبد الله و أُمّة أُمّ إسحاق بنت طلحة ، و قد استشهد فى كربلاء .

* ـ كان ما ذُكر وفقاً للنظر البدوىّ ، ثمّ اتّضح فيما بعد أنّ بعض المقاتل سمّت ذلك الطفل عليّاً ؛ ومن جملتها : « روضة الشهداء » للملاّ حسين الكاشفىّ ، ص ٣٤٣ ، طبعة

أساسها تسلّط هوى النفس والأفكار الشيطانيّة التى تحتلّ مكان البرهان فى فنّ المخاطبة .

ألا يقول أحد لأصحاب الهراء هؤلاء ، الذين يدّعون فهم الإسلام ودركه إنّ خطابة المرأة وحديثها لو كان جائزاً فى الظروف العاديّة فلِمَ لَمْتتحدّث ابنة رسول‌الله الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء سلام الله عليها فى حياة أبيها رسول‌الله فى المسجد ولو لمرّةً واحدة ؟

لِمَ لَمْ تعقد مجلساً للدرس فى المسجد أو فى غير المسجد ؟

ولماذا لم تبيّن للأصحاب ـ رجالاً ونساءً ـ تفسير القرآن وسيرة أبيها المصطفى صلّى‌الله عليه وآله وسلّم ؟

لِمَ لَمْ يُعهد عنها ،أو عن غيرها من نساء المدينة حديث واحد بين الرجال ؟

ولماذا لم يشاهد عنهنّ أو عن نساء مكّة أو نساء الكوفة والبصرة مجلس درس واحد للموعظة والحديث والتفسير ؟

تبصّر أيّها العزيز ولا تُخدع ، فلقد كان من المطالب التى اتّضحت عند بحثنا وبياننا حول الآية القرآنيّة لاَّ يُحِبُّ اللَهُ الْجَهْرَ بالسُّوء مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ . إنّ خطبة الزهراء سلام الله عليها فى المسجد كانت فقط للدفاع

المكتبة الإسلاميّة ، سنة ١٣٤١ هـ ؛ «كشف الغمّة » تبعاً لنقل « نفس المهموم » ص ٣٣٨ ؛ هامش «مقتل الحسين عليه السلام» للمقرّم ، نقلاً عن «المناقب» لابن شهرآشوب و«الإقبال» للسيّد؛ «المناقب» لابن شهرآشوب ، ج ٤، ص ١٠٩، الطبعة الحروفيّة ، انتشارات علاّمة ، قم ؛«مقتل الحسين» للخوارزمىّ ، ج ٢ ص ٣٢ ، طبعة مطبعة الزهراء ، النجف، سنة ١٣٦٧ هـ ؛ «تاريخ ابن أعثم الكوفىّ» ص ٣٨٤ ، الطبعة الحجريّة ؛ «منتخب التواريخ» ص ٢٧٥ . كما ذكره باسم علىّ أو عبد الله ، السيّد هبّة الله الشهرستانىّ فى «نهضة الحسين» ص ١٠٠ ، طبعة مطبعة مهر، قم .

عن حقّها إثر الظلم الذى لحقها من الجهاز المدّعى لخلافة أبيها رسول‌الله ، ولقد جهرت بصرختها وأثارت الضجّة والجَلَبة فى المسجد على الظالم ، وأدانت أبابكر وعمر وفضحتهما بعد مرور أربعة عشر قرناً ـ حين نقرأ كلمات خطبتها فى كتب المخالفين أيضاً ، نُثنى على قدرها وعظمتها ومتانة منطقها وبرهانها القويم .

ولقد كان عملها عملاً قرآنيّاً ، منبثقاً من أساسٍ قرآنىّ ، هو لَنّ لكلّ أحد الحقّ ـ رجلاً كان أم امرأة ـ حين يلحقه ظلم أن يتصدّى لظالمه ويعدّد جهاراً سيّئات وقبائح ظلمه الذى ألحقه به ، ولقد فعلت هذا ، وخطبت خطبتها جهاراً ، وأثبتت دعواها ثمّ رجعت إلى بيتها ولم يُسمع منها بعد ذلك خطبة أو يُعهد عنها أنّها جهرت بصوتها بين الرجال .

فكيف يمكن لاحد أن يتجرّأ على القول إنّ هذا العمل الاستثنائى لسيّدة نساء العالمين دليل على جواز تحدّث النساء فى محافل الرجال فى الظروف العاديّة غيرالاستثنائيّة ؟

وأمّا بالنسبة إلى ابنتها فخر نساء العالم : زينب التى خطبت وتحدّثت فى الكوفة فى محمل الاسر بلهجة شديدة ، طليقة اللسان ، وعدّدت مظالم حكومة بنى أُميّة وذلّ وحقارة وصَغار أهل الكوفة ، فقد كان من الواجب عليها أن تتكلّم وتخطب وتذيع مساوىء بنى أُميّة على رؤوس الأشهاد وتُثبّت حقّ أخيها الرشيد وإمامها بالحقّ وتوصله إلى أسماع العالم ، و هذا حقّ قد أعطاها إيّاه القرآن، ورسالةً قد كُلِّفت بها من قِبَل أخيها فى هذا السفر الخطير المهول . [1]

---

١ ـ ونجد ـ مع كلّ هذه الأُمور ـ لَنّ زينباً قد وبّخت يزيداً فى خطبتها المعروفة بعبارات : قَدْ هَتَكْتَ سُتُورَهُنَّ وَ أَبْدَيْتَ وُجُوهَهُنَّ وأمثال ذلك .

ثمّ يُراد مقايسة هذا الموقع الخطير العظيم وهذا الدفاع عن الحقّ وفضح العائلة الأمويّة المعادية للدين والإنسانيّة والظلم الذى ارتكبوه بذلك الأُسلوب الفظيع المفجع فى صحراء كربلاء ، يُراد مقارنته يسة مع حديث وكلام الجنس النسوىّ اللطيف فى مجالس الحفلات بصوتهن الرقيق ولحنهنّ المليح الذى يختطف الافئدة !!

أبداً أبداً ! فهذا قياسٌ مع الفارق ، لكنّه ليس بفارقٍ واحد، بل بألف فارق .

لقد كان عمل زينب سلام الله عليها عملاً استثنائيّاً ، عندما تكلّمت فى الكوفة وفى الشام فى مجلس يزيد بسليط القول ، إذ لم يُعهد ولم يُعرف عنها قبل ذلك ولا بعده كلام وحديث بين الرجال ، إذ كيف يكون لها ذلك و هى ربيبة أسد الرجال وابنة معدن العفّة والحياء !

كيف يكون لها ذلك و قد ارتضعت من ثدى الزهرا الطاهر و كبرت فى حجرها ! لقد كان لزينب الكبرى حين حطّت الرحال فى صحراء كربلاء خمساً وخمسين سنة ، كانت تصغر سيّد الشهداء عليه السلام بسنتين ـ وباعتبار وفاتها فى شهر رجب لسنة اثنتين وستّين بعد واقعة عاشوراء بسنة ونصف ، فقد عاشت ما يقارب عمر أخيها الحسين عليه السلام .[1]

وقد عاشت سلام الله عليها هذا العمر المديد فى المدينة لم يرها أحد من الرجال ، ولم يعهد عنها أنّها شاركت فى مجالس الرجال أو تحدّثت بينهم أو تكلّمت فى بيان التفسير والحديث فى مجالس ضمّت الرجال والنساء ، مع كونها عالمة أهل البيت ، فقد قال لها السجّاد عليه السلام :

---

١ ـ فى موسوعة آل النبىّ عليه السلام كتاب «السيّدة زينب» ص ٧٥٦ ، تقول: ماتت السيّدة زينب عشيّة يوم الاحد لأربع عشرة مضين من رجب عام ٦٢ هـ على أرجح الاقوال .

يَا عَمَّتَاهُ! أَنْتِ بِحَمْدِ اللَهِ عَالِمَةٌ غَيْرُمُعَلَّمَةٌ وَفَهِمَةٌ غَيْرُ مُفَهَّمَةٌ . [١]

١ ـ هذا القول للإمام زين العابدين عليه السلام بعد أن أزاحت زينب سلام الله عليها الستار فى خطبتها المفصّلة عن قبائح بنى أُميّة ونقض أهل الكوفة ميثاقهم وعهدهم حتّى وصلت فى خطبتها إلى أن أنشدت هذه الابيات :

ماذا تقولون إذ قال النبىّ لكم ماذا صنعتم و أنتم آخر الأُممِ
بأهل بيتى و أولادى و تكرمتى منهم أسارى ومنهم ضرّجوا بدمِ
ما كان ذاك جزائى إذ نصحتُ لكم أن تُخلِفونى بسوءٍ فى ذوى رحمِ
إنّى لاخش عليكم أن يحلّ بكم مثل العذاب الذى أُودى على إرَمِ

فقال علىّ بن الحسين عليه السلام : يا عمّتاه اسكتى ! ففى الباقى من الماضى اعتبار؛ وأنتِ بحمد الله عالمةٌ غير معلّمة وفهمة غير مفهمّة ، إنّ البكاء والحنين لايردّان من قد أباده الدهر. فسكتت ، ثمّ نزل عليه السلام وضرب فسطاطه وأنزل نساءه ودخل الغسطاط . («نفس المهموم» ص ٢٤٧ و ٢٤٨) .

وروى المرحوم المحدّث القمّىّ هذه الأبيات الأربعة فى «نفس المهموم» عن زينب سلام‌الله عليها فى خطبة الكوفة ، وذكر مصدرها «الاحتجاج» للشيخ أبى منصور الطبرسىّ .

وقد نسب الشيخ المفيد فى «الإرشاد» ص ٢٧٠ ، الطبعة الحجريّة ، الأبيات الثلاثة الأُولى إلى أُمّ لقمان بنت عقيل فى المدينة فقال :

فخرجت أُمّ لقمان بنت عقيل بن أبى طالب رحمة الله عليهم حين سمعت نعى الحسين عليه السلام حاسرةً ومعها أخواتها أُمّ هانى وأسماء ورملة وزينب بنات عقيل‌بن أبى طالب ، تبكى قتلاها بالطفّ وهى تقول : «ماذا تقولون إن قال النبىّ لكم » ـ إلى آخر الأبيات الثلاثة .

وروى المحدّث القمّىّ رواية المفيد هذه فى «منتهى الأمال» ج ١، ص ٣٠٢ . وقال الطبرىّ فى تأريخه ج ٥ ، ص ٤٦٦ و٤٦٧ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف مصر، وكذلك ابن الأثير فى «الكامل» ج ٣ ، ص ٣٠٠ ، الطبعة الأُولى ، وفى الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٣٨٥ هـ ، ج ٤ ، ص ٨٨ و ٨٩ ، قال : حين نعى بشير الإمام الحسين عليه السلام فى المدينة صاحت نساء بنى هاشم ، وخرجت ابنة عقيل بن أبى طالب ومعها نساؤها حاسرةً تلوى ثوبها وهى تقول (الابيات الثلاثة) .

أمّا ابن كثير فى « البداية والنهاية» ج ٨ ، ص ١٩٧و١٩٨ فقد روى عن هشام عن

لقد كان لزينب سلام الله عليها مجالس معروفة لتعليم نساء المدينة القرآن والحديث والتفسير والأخلاق ، فإن كانت خطبتها حال الأسر فى الكوفة والشام دليلاً على جواز مطلق الكلام والموعظة والخطابة ، فلِمَ لَمْ يقع لها نظيرٌ ومثيل واحد فى تلك المدينة الكبيرة التى كانت آنذاك مركز العلم ، ولو لمرّةٍ واحدة ؟ وكذا الأمر بالنسبة لخطبة فاطمة بنت الحسين فى الكوفة أمام الآلاف بعد خطبة عمّتها زينب .

ويبدو أنّ اكتشاف جواز تحدّث النساء فى محافل الرجال من قبل هؤلاء السادة المتخصّصين بعلوم الإسلام قد جاء متأخّراً بعض الشىء ، ولو كان أكثر إسراعاً فى مجيئه لأورد النساء فى محافل الرجال ومجالسهم ولانقذ الرجال من هذه المحروميّة !

قيل إنّ رجلاً ذهب فى سفر ، فلمّا عاد وجد زوجته على فراش المرض ووجد أُمّه قد توفّيت ، ونتيجة المواصلة والمضاجعة تحسّن حال الزوجة ، فكان يتأسّف ويتحسّر قائلاً : وصلتُ متأخّراً وإلاّ لكنتُ شفيتُ والدتى أيضاً .

أبى مخنف : ثمّ حملهم (أسرى أهل البيت) إلى المدينة ، فلمّا دخلوها خرجت امرأة من بنى عبدالمطلب ناشرةً شعرها واضعةً كمّها على رأسها تتلقّاهم وهى تبكى وتقول...الابيات الثلاثة .

وقد روى أبو مخنف عن سليمان بن أبى راشد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبى الكنود أنّ بنت عقيل هى التى قالت هذا الشعر ، وهكذا حكى الزبير بن بكّار أنّ زينب الصغرى بنت عقيل بن أبى طالب هى التى قالت ذلك حين دخل آل الحسين المدينة النبويّة .

وروى أبو بكر الأنبارى بإسناده أنّ زينب بنت علىّ بن أبى طالب من فاطمة ـ وهى زوج عبدالله بن جعفر وأُمّ ابنيه ـ رفعت سجف خبائها يوم كربلا يوم قتل الحسين وقالت هذه الابيات ، فالله أعلم .

ترســـم نـرسـى به كعبـه أى أعـرابى

كين ره كه تو ميروى به تركستان است[١]

وبغضّ النظر عن كلّ هـذا فـإنّ مخاصمـة واحتجـاج وخطبـة سـيّدة نسـاء العـالمين وابنتـها زينـب الكـبرى عليـهما صلـوات اللـه فى مسـجد النـبىّ وفى الكوفة والشام لم‌تكن بسبب تضييـع وإهـدار حقّـهما الشـخصىّ كـى تغضّـا عنـه الطرف وتقدما العفو لسجايا الأخلاق ومحاسن الصفات الإنسانيّة .

كـانت تلكـم الخطـب علـى أسـاس المصلحـة العامّـة وإيقـاظ أذهـان المجتمع وأفكـاره فى ذلـك الجيـل وفى الأجيـال الـتى تليـه ولبيـان أنّ خيانـةً قـد ارتكبت فى حقّ نظام الإسلام بعـد رحيـل رسـول اللـه ، فى المدينـة وفى سـقيفة بنى ساعدة ، محـلّ انتخـاب الخليفـة ، وعـارضت بشـكل صريـح القـرآن وسُـنّة رسول اللـه ونهجه ، وحاربت كلّ جهود ومساعى النبىّ فى حياته .

أمّا فى كربلا ، فإنّ نظام بـنى أُميّـة العـدوانىّ الظـالم قـد مـرّر شـفرة سـيفه على إمام الزمـان وأولاده وأرحامـه وأصحابـه بجـرم المنـاداة بـالحقّ ، ثمّ سـاق أهله سبايا فى الصحارى ، وفـوق ذلـك فقـد دعـوا سـيّد الشـهداء عليـه السـلام بالخـارجىّ المتمـرّد المتطـاول علـى أوامـر الحكومـة المركزيّـة ، وبـاهوا وتفاخروا بإغارتهم عليه وعلى عياله .

لقد افتقد العفو هنا معنـاه ، بـل كـان للسـكوت حكـم الإقـرار والإمضـاء والرضـى بتلـك الجرائـم ، فالسـكوت مقـابل الظلـم والتجـاوزات بمثابـة الحكـم بصحّتها وإعطاء الصورة الحسنة لعملهم القبيح .

كان الواجـب هنـا هـو الصـراخ والاعتـراض وتعـداد الجنايات ، ولقد

١ـ يقـول : «أخشـى أن لا تصـل إلى الكعبـة إيّـها الاعـرابىّ ، فطريقـك الـذى تسـلكه يـؤدّى إلى موطن الاتراك».

تحرّكت العقيلة ، ليس فقط فى الشوارع والازقّة ، وإنّما من كربلاء إلى الكوفة ، ومن الكوفة إلى الشام ، ومن الشام إلى المدينة ، ثمّ لم تهدأ فى المدينة ولم يقرّ لها قرار ، فقد كانت تجمع النساء حولها كلّ يوم وتعدّد الوقائع والاخبار واحدة واحدة بأدقّ تفاصيلها إلى الحدّ الذى لم يكد يمرّ على واقعة كربلاء زمن طويل حتّى أرسل حاكم المدينة أن : يجب أن ترحل زينب عن المدينة وإلاّ هدمنا سقوف بيوت ولد علىّ وعياله على رؤوسهم .[1]

١ـ ذكرت الدكتورة عائشة (بنت الشاطى) فى كتاب «السيّدة زينب بطلة كربلاء» ص ٧٥٣ إلى ٧٥٦ من مجموعة موسوعة آل النبىّ صلّى الله عليه وآله ، أنّه: أرادت السيّدة زينب أن تقضى ما أبقت لها الايّام من عمر فى جوار جدّها الرسول ، لكنّ بنى أُميّة كرهوا ذلك المقام . وكانت تقصّ على نساء المدينة واقعة كربلاء وتصف مجزرة الطفّ الفظيعة ، وكان بيانها مؤثّراً للحدّ الذى كان يُلهب الحزن على الشهداء ويؤلّب الناس على الطغاة حتّى كاد الامر يفسد على بنى أُميّة ، فكتب واليهم بالمدينة عمرو بن سعيد الاشدق إلى يزيد أنّ وجودها بين أهل المدينة مهيّج للخواطر وأ نّها فصيحة عاقلة لبيبة ، وقد عزمت هى ومن معها على القيام للاخذ بثأر الحسين ، فأمره يزيد أن يفرّق البقيّة الباقية من آل البيت فى الاقطار والامصار، وطلب الوالى إلى السيّدة زينب أن تخرج من المدينة فتقيم حيث تشاء ، قالت غاضبة مُستثارة: قد علم الله ما صار إلينا فو الله لنخرج وإنأ ُريقت دماؤنا، لكنّ نساء بنى هاشم خشين عليها من غضب الطاغى يزيد وسطوته فالتففنَ حولها يُرغّبنها بلطيف القول وإظهار المواساة بالخروج .

فعزمت على الرحيل إلى مصر ، ووردت أرض النيل عند طلوع هلال شهر شعبان لسنة ٦١ حتّى نزلت عند قرية قرب بلبيس فاستقبلها هناك مسلمة بن مخلد الانصارى ّ أمير مصر مع جماعة من أعيان مصر وعلمائها ، ومضى بها مسلمة إلى داره فأقامت بها قرابة عام لم تُرَ خلالها إلاّ عابدة مُتبتّلة حتّى رحلت عن الدنيا ليلة الخامس عشر من شهر رجب عام ٦٢ هـ على أرجح الاقوال، ودُفنت فى دار مسلمة ، وبقى قبرها مزاراً مباركاً يفد إليه المسلمون من كلّ فجٍّ عميق .

أجل ، فهذا مصداق للعمل بالقرآن ووسيلة لبيان أصالة وخلود تعاليمه ، فحين تقتضى الأُمور عدمالعفو والمسامحة يتوجّب على الإنسان التصدّى للمعتدى بكلّ ماأُوتى من قوّة ، بقبضته بأسنانه وأظفاره ، وبالصراخ والنواح وإثارة الجَلَبَة ، فعليه أن يفعل ذلك .

أمّا حين يكون الضرر والخسارة شخصيّاً لايتعلّق بمصلحة أو مفسدة عامّة فإنّ السكوت فى هذه الحالة لن يؤثّر فى إقرار الظلم والظالم ، بل إنّ الجهر بالجناية لن يكون له تأثير إلاّ الحطّ من سمعة الإنسان وكرامته ويكون مدعاة لنشوب الخلافات والنزاعات الشخصيّة والعائليّة ، ولذلك فالعفو أولى من جهر الإنسان بالسوء بالقول فى أمثال هذه الأُمور ، عصمةً للسان من التلوّث بالسوء ، وحفظاً لنفسه الشريفة من الاضطراب والجدال والنزاع بلاطائل ، وحينذاك ستستقرّ حلاوة العفو والمسامحة فى أعماق النفس ، ويجد صاحبها ينعها وحلاوتها وطراوتها كما لو كانت تلك الطراوة والحلاوة معه يتلذّذ بها على الدوام .

وقد واجه هذا الحقير موارد كثيرة كانت مصداقاً لهذه الآية المباركة ، كنتُ فى بعضها بصدد الدفاع والجهر بالقول ، وقدّمتُ فى البعض الآخر العفوَ بتوفيق الله ومنّه ، وأعرض لإخوانى الأعزّاء فى ختام هذا البحث موردين من الموارد التى آثرتُ فيها العفو وتذوّقت ثمرته .

المَورد أوّل : كانت علاقة والدى بى حميمة ، وكان يمتدحنى أمام الجميع ، ثمّ جعلنى وصيّه ووهبنى كذلك مكتبته أيّام حياته ، وكنتُ آنذاك فى الخامسة والعشرين من العمر، حيث أنهيت دراستى وإقامتى فى الحوزة العلميّة فى قم وعزمتُ على التشرّف بالذهاب للنجف الأشرف لمواصلة الدرس والتحصيل حين التحق والدى برحمة الحقّ الابديّة ، فأُجبر هذا

الحقير للّبث فى طهران مؤقّتـاً لتصفيـة الأُمـور وتنفيـذ الوصيّـة بنيّـة السـفر بعـد إتمام ذلك.

ولقـد تدخّـل الشـيطان فى هـذه الظـرف وشـتّت الأُمـور المتّسـقة وأهـدر مسـاعى لّمتنفيذ الوصيّـة ، وأوجـد ثغـرات يصعـب سـدّها وعراقيـل يصعـب اجتيازها ، وكـان السـبّاق مـع كـلّ خطـوة تُخطـى للإصـلاح والتوفيـق ، يسـدّ الطريـق ويُحبـط الجـهود ويجعـل حركـاتى وسـكناتى ونوايـاى فى معـرض الاتّهام وسوء الظنّ ، إلى الحـدّ الـذى عجـزتُ بعـد إقامـة سـنة فى طـهران عـن تنظيـم الأُمـور، واضطـررتُ مـن ثَـمَّ لغـضّ النظـر عـن سـهم الإرث فشـددتُ الرحال مع الوالدة المكرّمة إلى النجف الاشرف .

و كـانت المعارضـة والمواجهـة مـع هـذا الحقـير شـديدة عنيفـة إلى الحـدّ الذى جعل مسألة توديعى للمعارضين عنـد عزمـى علـى السـفر أمـراً لم أسـتطع تقبّله وتحمّله .

و بعد أن مرّت سـنتان أو ثـلاث علـى هـذا الأمـر ، سمعـتُ عنـد موسـم الحـجّ أنّ أحـد هـؤلاء المعـارضين ، وكـان رجـلاً مسـنّاً يعـدّ مـن جهـة العمـر بمثابة أبى ، قد جـاء إلى النجـف الاشـرف بنيّـة السـفر بعـد ذلـك إلى بيتاللـه الحـرام . ولم يُطـق وجـدانى أن أمتنـع مـن رؤيـة هـذا الرجـل المحـترم المسـافر إلى اللـه ، مـع أنّ لقـاءه ورؤيتـه كانـا بالنسـبة لى يبعثـان علـى الألم والأذى . لكنّـى ذهبـتُ مـع ذلـك لرؤيتـه ورفقائـه ، وكـانوا قـد حلّـوا فى الفنـادق المحيطـة بـالمرقد المطـهّر قـرب مدرسـة آيـة اللـه العظمـى الـبروجردى ّ، وسـلّمتُ عليـه وعانقتـه ورحّبـتُ بـه ، فقـال إنّـهم جـاءوا لعـدّة أيّـام لزيـارة العتبات المقدّسة على أن يسافروا بعدهـا جـوّاً مـن بغـداد إلى جـدّة ، فأظـهرتُ السرور وهنّأتُه ، ثمّ ودّعته بعد حوالى نصف الساعة وعدتُ إلى المنزل .

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر من اليوم التالى ، حيث تصل حرارة أجواء النجف إلى أوجها ، طُرق باب المنزل ! و كان الطارق هو ذلك الرجل المسنّ المحترم المعارض ، قد جاء بمفرده ليردّ زيارتى له بالأمس ، فسلّمتُ عليه ورحّبتُ به وأدخلته المنزل ، فقال إنّه يريد أن يودّع والدتى أيضاً ، فأخبرته أن لا مانع من ذلك (كانت الوالدة فى هذا النزاع بسبب قربها وعلاقتها بالحقير مورداً للاتّهام وسوء الظنّ) .

جاء ووقف مقابل الوالدة وسلّم وقال : عزمتُ على الذهاب إلى بيت الله ، فسامحينى .

ردّت الوالدة : لن أعفو عنك أبداً .

قال : يجب أن تسامحينى .

فردّت : هذا مُحال .

فقال : أُقسم بالله لئن لم ترضِ عنى فسأعود إلى طهران أترك الحجّ .

فتدخّلتُ قائلاً : أيّها السيّد ! لقد سامحتك والدتى وستسامحك ، فاطمئن فسأرُضيها عنك ، وستوفّق إن شاء الله فى سفرك وتعود مقضىّ المرام . فودّعنا وخرج .

ثمّ ذهبتُ صباح اليوم التالى لرؤيته فى الفندق ، حيث كان من المقرّر أن يسافر مع رفقائه ذلك الصباح بالسيّارة إلى مدينة الكاظميّة ، وكان الجوّ حاراً ، وكان جالساً مع رفقائه فى باحة الفندق على أرائك صُفّت بمحاذاة الجدار وقد حزموا حقائبهم .

قالوا : سنسافر بعد نصف ساعة . وجعلنا نتجاذب أطراف الحديث كأنّنا لم يسبق أن تنازعنا وترافعنا ! وحين وضع رفقاؤه فى السفر جميع أمتعتهم فى السيّارة وتحرّكوا لأخذ أمكنتهم التفتَ هذا السيّد من على

الأريكة إلَى قَّائلاً :

أيها السيّد محمّـد الحسـين ! سُئل المعصـوم عـن تفسـير هـذه الآيـة **خُـذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَـٰهِلِينَ** . [1]

فقال المعصـوم : ثلاثـة أشـياء: **صِـلْ مَـن قَطَعَـكَ !و أَعْـطِ مَـنْ حَرَمَـكَ ! وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ** . [2]

١ـ الآية ١٩٩، من السورة ٧ : الاعراف .

٢ـ أصـل هـذه الروايـة فى «الأمـالى» للشـيخ الطوسـىّ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، طبعـة النجـف ، حيـث روى بسـنده المتّصـل عـن أحمـد بـن عيسـى العلوىّ قـال : قـال لى جعفربـن محمّـد عليـهما السـلام : إنّـه ليعـرض لى صـاحب الحاجـة فأُبـادر إلى قضائـها مخافـة أن يسـتغنى عنـها صاحبـها، ألا وإنّ مكارم الدنيا والآخرة فى ثلاثـة أحـرف مـن كتـاب اللـه عـزّ وجـلّ : **خُـذِ الْعَفْـوَ وَأْمُـرْ بِـالْعُرْفِ وَأَعْـرِضْ عَـنِ الْجَـٰهِلِـينَ** . وتفسـيره : أن تصـل مَـن قطعـك ؛ وتعفـو عمّـن ظلمـك ؛ وتُعطـى مَـن حرمك .

وقـد جـاء فى «مكـارم الأخـلاق» للشـيخ الطبرسـىّ، ص ٢٤١ ، الطبعـة الحجريّـة ، ضمـن وصايا الرسول الأكرم لأميرالمؤمنين عليهما الصلاة والسلام :

يَـا عَلِـىُّ! ثَلاَثَـةٌ مِـنْ مَكَـارِمِ الاَخْـلاَقِ فِـى الدُّنْيَـا وَالاَخِـرَةِ :أَنْ تَعْفُـوَ عَمَّـنْ ظَلَمَـكَ ، وَتَصِـلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتَحْلُمَ عَمَّنْ جَهِلَ عَلَيْكَ .

وروى الكلينـىّ فى «أُصـول الكـافىّ» ج ٢، ص ٢١٤، بإسـناده المتّصـل عـن الدِّلْـهَاثِ مـولى الإمـام الرضـا عليـه السـلام ، قـال : سمعـت الرضـا عليـه السـلام يقـول : **لاَ يَكُـونَ الْمُؤْمِـنُ مُؤْمِنَاً حَتَّـى يَكُـونَ فِيـهِ ثَـلاَثُ خِصَـال : سُـنَّةٌ مِـنْ رَبِّـهِ وَسُـنَّةٌ مِـنْ نَبِيِّـهِ وَسُـنَّةٌ مِـنْ وَلِيِّـهِ . فَأَمَّـا السُـنَّةُ مِـنْ رَبِّـهِ فَكِتْمَـانُ سِـرِّهِ ؛ قَـالَ اللَـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ : «عَـٰلِـمُ الْغَيْـبِ فَـلاَ يُظْـهِرُ عَلَـى غَيْبِـهِ أَحَـدًا إِلاَّ مَـنِ ارْتَضَى مِـن رَسُـول . وَأَمَّـا السُـنَّةُ مِـنْ نَبِيِّـهِ فَمُـدَارَاةُ النَّـاسِ ، فَـإِنَّ اللَـهَ عَـزَّ وَجَـلَّ أَمَـرَ نَبِيَّـهُ بِمُـدَارَاةِ النَّاسِ فَقَالَ : «خُذِ الْعَفْـوَ وَأْمُـرْ بِـالْعُرْفِ وَأَعْـرِضْ عَـنِ الْجَـٰهِلِـينَ . وَأَمَّـا السُـنَّةُ مِـنْ وَلِيِّـهِ فَـالصَّبْرُ فِـى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ.**

وأورد الصـدوق هـذه الروايـة فى «عيـون أخبـار الرضـا» ص ١٦٧ ، الطبعـة الحجريّـة ، وفى ذيلها : **فَإِنَّ اللَهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : «وَالصَّـٰبِرِينَ فِى الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ»** .

و جـاء فى « مجمـع البحـرين » فى مـادّة كَـرَمَ : ومـكـارم الاخـلاق الـتى خُـصَّ النبـىّ

أيهـــا الســـيّد محمّـد الحسـين ! انتظـر منـك أن تعامـلنى طبقاً لتفسير هذه

صلّىاللـــه عليـه وآلـه بهـا عشـرة : اليقـين والقناعـة والصـبر والشـكر والحلـم وحسـن الخلـــق والسخاء والغيرة والشجاعة والمروّة.

وفى الحديـث : **امْتَحِنُـــوا أَنْفُسَـــكُمْ بِمَكَـــارِمِ الاَخْـــلاَقِ ، فَـــإِنْ كَـــانَتْ فِيْكُـــمْ فَـــاحْمِدُوا اللّـــهَ تَعَـالَى؛و إِن لم تَكُـنْ فِيْكُـمْ فَاسْـأَلُوا اللّـهَ وَارْغَبُـوا إِلَيْـهِ فِيـــهَا**، ثمّ إنّـــه عليـــه الســـلام ذكـــر العشـــرة السالفة .

وفيـه ـ وقـد سـئل عـن مكـارم الاخـلاق ـ فقـال : **العَفْـوُ عَمَّـنْ ظَلَمَـكَ ، وَصِلَـةُ مَـنْ قَطَعَـكَ ، وَإِعْطَاءُ مَنْ حَرَمَكَ ، وَقَوْلُ الحَقِّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِكَ** ـ انتهى .

ويقول الزمخشرىّ فى «الكشّاف» ج ١، ص ٣٦٤، فى تفسير آية «خذ العفو»:

العفـو» ضـدّ الجـهد ؛ أى خُـذ مـا عفـا لـك مـن أفعـال النـــاس وأخلاقـــهم ومـــا أتى منـــهم، وتسـهّل مـن غـير كلفـة، ولا تداقّـهم ولا تطلـب منـهم الجـهد ومـــا يشـــقّ عليـــهم حتّـــى لاينفـــروا ؛ كقوله صلّىاللـه عليه [وآله] وسلّم : **يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا**. قال:

خُـذِى العَفْـوَ مِنِّـــى تَسْـــتَدِيمِى مَوَدَّتِى وَلاَ تَنْطِـقِى فِـى سَـوْرَتِى حِـينَ أَغْضَـبُ

وقيل : خُذ الفضل وما تسـهل مـن صدقـاتهم . وذلـك قبـل نـزول آيـة الزكـاة ، فلمّـا نزلـت أمـر أن يأخذهم بها طوعاً أو كرهاً .

و **العرف** : المعروف والجميل من الافعال .

«**وأعـرض عـــن الجـــاهلـين**» : ولا تكـــافى الســـفهاء بمثـــل ســـفههم ، ولاتمـــارهم ، واحلـــم عنهم ، وأغض على ما يسوؤك منهم .

وقيـل : لمّـا نزلـت الا َيـة سـأل جـــبرئيل فقـــال : لا أدرى حتّـــى أســـأل ، ثمّ رجـــع فقـــال : **يَامُحَمَّدُ ! إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُعْطِى مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ** .

وعـن جعفـر الصـادق : أمـر اللـــه نبيّـه عليـه الصـلاة والسـلام بمكـارم الاخـــلاق ، وليـــس فى القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق منها ـ انتهى .

وقد نقل هذاالمطلب أيضاً عن « الكشّاف» المقدّس الأردبيلىّ فى آيات الأحكام ».

وقـد نقـل ابـن أبى الحديـد فى آخـر «شـرح نهـج البلاغـة» ألـف كلمـة مـن المواعـظ والحكـــم من كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام القصار ؛ وجاء فى الكلمة ١٢٢ :

إِنَّ اللّهَ سُـبْحَانَهُ أَدَّبَ نَبِيَّـهُ صَلَّـى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَ آلِـهِ بِقَوْلِـهِ: «خُـذِ الْعَفْـوَ وَأْمُـرْ بِـالْعُرْفِ وَأَعْـرِضْ عَـنِ الْجَـاهِلِـينَ » (الآيـة ١٩٩، مـن السـورة ٧ : الاعـراف) **فَلَمَّـا عَلِـمَ أَنَّـهُ قَـدْ تَأَدَّبَ ، قَـالَ : « وَإِنَّكَ**

الآية .

انقلب حالى ، ولم أستطع مغالبة دموعى فانهمرت ، وقلتُ : لم يكن ما حصل بالمهمّ ، فكن مطمئنّاً أن لا شىء بيننا يحتاج لمثل هذا الاعتذار، فأنا ابنك وخادمك .ثمّ تعانقنا هناك ، وركبوا سيّارتهم ورحلوا .

ذهبتُ على الفور للتشرّف بالحرم المطهّر، وأدّيت مراسم الزيارة نيابةً عنه وصليّتُ ركعتَى الزيارة ، ثمّ دعوتُ : أيّها الإله الرحيم الذى يؤلّف بين القلوب ، عبدُك هذا لايجد فى قلبه ضغناً على هذا الرجل ، ولقد عفوتُ عن كلّ ما مضى ، ولقد أتاك قاصداً إليك وزائراً حرمك ، فاعفُ عنه واقرن سفره بالخير والرحمة .

ولقد كانت حلاوة تلك الصلاة والدعاء والعفو عند حرم أمير المؤمنين عليه السلام ذكرى لاتُنسى .

أمّا المورد الثانى : فقد كان الحقير بعد العودة من النجف الاشرف وعملاً بالتكليف الإلهى يقيم صلاة الجماعة مع بيان الاحكام والمعارف الإلهيّة وتفسير القرآن الكريم والموعظة والدروس العلميّة فى أحد مساجد طهران ، وقد سعيت ما أمكننى لتربية الناس بشكل قويم لاأمَتَ فيه ولاعوج ولاتزوير، بلاتفكير فى مصلحة أو مراعاة لأحد ، وقد جهدت فى بيان ما أراه فى الأصول الدينيّه بما كان وصل إليه الفكر ضمن حدود دائرة عملى، واعتبرتُ التعامل مع الناس له حكم السفارة الإلهيّة أو كالنبوّة فى نطاق حدودى ، إذ ينبغى أن تُلتزم بدقّة حدود الشرع والدين

لَعَلَى' خُلُق عَظِيم» (الآية ٤، من السورة ٦٨ : القلم) فَلَمَّا اسْتَحْكَمَ لَهُ مِنْ رَسُولِهِ مَا أَحَبَّ، قَالَ : «وَمَآ ءاتَب'كُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَب'كُمْ عَنْهُ فَانتَهُو» (مقطع من الا َية ٧ ، من السورة ٥٩ : الحشر)

والحقّ والحقيقة والواقعيّة ولايمكن التعدّى عليها ولو قيد شعرة .

وكنتُ أتدخّل فى جميع أُمور المسجد بشكل مباشر وأستشير المصلّين وأهل المحلّة فى مسألة إدارة أُمور المسجد وأستأنس بوجهات نظرهم ، لكنّ القرار النهائى ّبيدى ، إذ مع التبصّر والتفقّه بأمر الدين والتخصّص فى هذا الفنّ ، فلم أكن لاقدرَ أن أُبعد عن نظرى المستقلّ مسألة زمام أمر المسجد فى مسألة دعوة الوعّاظ والمدّاحين الذين كان ينبغى أن يكونوا معروفين عندى وأن تتمّ دعوتهم بعد موافقتى، وكذا مسألة نصب مكبّرات الصوت بأصواتها المرتفعة فى الشوارع وتسبيب الاذى للناس، وإذاعة صوت الاذان من جهاز التسجيل أو من المذياع ، وتشكيل المجالس المتعدّدة لقراءة الفاتحة وأخذ وجوه المال من الناس عن هذا الطريق ، وكذا فسح المجال واسعاً لمن يستخدم العمامة للاستجداء وإهدار الكرامة والسمعة ، ومسألة الفوضى فى المسجد وتحويله إلى مركز للتجمّع أو محلّ لتردّد الناس اللاّ أُباليّين ، ثمّ إقامة مجالس العزاء المتعلّقة برجال المملكة والبلاط، وأخيراً عشرات ، بل مئات من أمثال هذه المسائل التى كنّا نواجهها كلّ يوم .

ولم أكن لاُوافق على أن أترك هذه المسائل بأيدى أفراد غير جديرين لكونهم أقوياء المحلّة ووجهاؤها الاثرياء المتنفّذين لتسيير أُمور المسجد وتوجيهها حسب وجهة نظرهم، وأن يحوّلوا إمام الجماعة مع امتلاكه المقام العلمىّ إلى تابعٍ ومُطيع لهم ، ويسعون بالسلام والصلوات واحتلال واجهة المجالس ، وبالدّعوة إلى حفلات الضيافة ، وقراءة خطب العقد فى حفلات الزواج والتردّد على مجالس الفاتحة ، وتشييع واتّباع الجنائز بما لايُرضى الله ، بهذا وغيره يسعون إلى جعل إمام الجماعة مورد هزئهم

وسخريتهم وإلى إصابته بمرض تقليد العوامّ وانسياق لهم .

ونُقل عن أحد أئمّة الجماعة فى محلّتنا قوله : إنّ أصحاب السوق يريدون أن يمسكوا بشعيرات لحية إمام جماعتهم ، كلٌّ يمسك بشعرةٍ منها ويجرّ باتّجاه غايته وهدفه .

فجهدتُ خلال مدّة طويلة ـ دامت أربعاً وعشرين سنة من بعد عودتى من النجف الأشرف إلى زمان الهجرة لأرض القدس الرضوى عليه السلام ـ ما أمكننى لجعل هذا المسجد بوضع يُرضى الله سبحانه ، هادئاً بعيداً عن الرياء ، وإلى تحويله إلى محلّ للتفسير والموعظة والأخلاق والمعارف الإلهيّة .

وللّه الحمد فقد تحقّق ما كنت أتطلّع إليه ، فقد طُبّقت تعاليم الدين وبرامجه فى هذا المسجد أفضل بكثير من مساجد أُخرى يُشار إليها بالبَنان .

ولم يكن مستبعداً أنّ سلوكاً ومنهجاً كهذا سيكون له مخالفون يسعون إلى المعاكسة ، وبالطبع فإنّ نظام الحكم الجائر لم يكن ليسيغ هذا النهج ، بل كان العكس هو المتوقّع منه . ولم يكن بالسهل لهم أن يتدخّلوا بصورة مباشرة فى أُمور المسجد ، فسعوا إلى تحقيق أهدافهم عن طريق هؤلاء المعارضين الموجودين فى هيئة إدارة المسجد باعتبارهم من أهل المحلّة ، لذا فقد كنّا دوماً فى محنة ونزاع معهم ، محنة وصراع ساحق ومُرهق ، يُنهك ويُتعب ويهدّ ، وكان أمامى فى تلك المرحلة ثلاثة خيارات :

الاوّل : ترك الحقّ والصدق ومسايرة الوضع ومماشاة رغبات أُولئك المعارضين ممّا يستلزم بيع الدين بالدنيا واستبدال الواقعيّة بالأُمور

الاعتباريّة الموهومة .

الثانى : ترك العمل والتنحّى جانباً ، وهذا يستتبع إيداع المسجد بِيَدِ أفراد يريدون إدارة أُمور الدين طبق رضا الشيطان وهواه .

الثالث : العضّ على الجراح والصبر على المشكلات وتحمّل المشاقّ ، بل ما لايُطاق .

ولقد اختار الله لنا الأمر الثالث ، ولله الحمد وله الشكر فما خسرنا كان من دنيانا ، حيث ضاعت سلامة المزاج ، وسُلِبَ الهدوء وراحة البال ، لكنّ القلب كان عامراً بالإيمان والقناعة بصواب طريق الثبات وعدم الاستسلام لرغباتأُولئك ، وكان البارى هو المُعين ، و المرشد والدليل ، وهو واهب القوّة ومانح الشجاعة والجرأة .

وحصل فى أحد مراحل المنازعات والمناوشات النفسيّة بين هذا الحقير وأحد أهل المحلّة أن حدثت مواجهة بيننا فى أمر كان لايُرضى الله عزّ وجلّ ، ولم‌تكن مواجهة علنيّة ونزاعاً ظاهراً ، بل بقيت فى إطار المواجهة الباطنيّة والنفسيّة .

وقد عمد ذلك الشخص إلى طباعة صفحة كبيرة يخاطبنى فيها بجملات يكرّر فيها حضرة آية الله ، حضرة آية الله ، ويعدّد سيّئاتى حسب نظره ، ويذكرنى وأبى بالسوء ، ولم يتورّع عن نسبة كلّ قبيح وسيّىء إلَىَّ ، وخلاصة الأمر أنّ رسالته قد حوت ـ عدا شتم الأُمّ والأُخت ـ كلّ ما يمكن تصوّره ، حتّى أنّه كتب يقول :

إنّكم تريدون بهذه الاعمال منعى من التدخّل فى أُمور المسجد وهذا محال ، وسأبقى لأحملك شأن أبيك إلى مقرّك الاخير ذاك وأدفنك فيه ، ثمّ أعود لاقف مكانى وأستمرّفى أعمالى ، ثمّ وقّع بيده أسفل الرسالة

ووضعها فى مظروف وأرسلها إلَىَّ .

كانت ليلةً شتائيّة ، وكنتُ فى غرفة الاستقبال وقد اتّخذت كرسيّاً، [1] ففتحتُ الرسالة وقرأتها فلم أصدّق عينى لاوّل وهلة ، فما الذى تعنيه هذه الكلمات ؟! هذا الرجل الذى كان ينحنى دوماً ليقبّل يدى . ولمأكن بالطبع لأدعه ولاغيره ليفعل ذلك ، لماذا إذَن أصبح هكذا ؟ أكان هذا نفاقاً ؟ أوَهل يمكن للنفاق أن يصل بحيث يعدّدوا محاسن ومحامد كذائيّة كاذبة للشخص فى الظاهر، ثمّ يكشفون فى الباطن عن السيّئات والسرائر هكذا ؟

لقد قرأتُ الرسالة على كلّ حال مرّات ومرّات ورأيتُ فى طيّاتها **أَحْقَاداً بَدْرِيَّةً وخَيْبَرِيَّةً** ، ثمّ عزمتُ أن أُصوّر منها نسخاً فأُرسل بعضها للأصدقاء من أهلَ المحلّة والمعارف الذين كانوا يصرّون على ذهابى إلى المسجد وأن أضع الرسالة نفسها جنب الباب الداخلى ّللمسجد عند باحته ، ثمّ أعمد يوم الجمعة لذلك الأُسبوع حيث تقام مجالس الموعظة قبل الظهر فى المسجد وتنتهى عند صلاة الظهر، إلى إلقاء خطبة فى الجمع الحاضر، أذكر فيها شيئاً من الاتعاب والمعاناة التى تحمّلتها خلال هذه الفترة الطويلة لإعمار المسجد معنويّاً ، والتى يعلم بها الجميع ، ثمّ أشرح مفاد الرسالة وليحصل ما حصل ، سواء أجبره عملى على التنحّى أم على الخروج من طهران أم أى ّاحتمالٍ آخر ، إذ إنّ الشبّان الغيارى والذين تربّوا بالتربية الإسلاميّة وجميع المحبّين لن يتحمّلوا مثل هذه الاعمال .

لقد كان هؤلاء البسطاء المساكين حسنى الطويّة إلى درجة خُيِّلَ إليهم

١ـ تُطلق هذه التسمية على تخت أو مقعد يُتّخذ فى الشتاء فيوضع أسفله موقد للفحم أو وسيلة تدفئة أُخرى ، ثمّ يُلقى فوقه لحاف أو غطاء سميك و يُجلس إلى جانبه للتدفئة . (م)

معها أنّ هذه الاحترامات والتجليلات والتكريمات والاستفسارات والوقوف على أُهبة الاستعداد ، وإبداء الموافقات كانت تنبع من الصدق والصفاء ، غافلين عن أنّها كانت دكّاناً للارتزاق مقابل الدكاكين الاُخرى ، وفخّاً لصيد الدين والعقل ومكارم الاخلاق وشرف الإنسانيّة .

وبقيتُ تلك الليلة فى السُّهاد ، لم تذق عينى نّمن النوم إلاّ قليلاً، وفتحت القرآن مرّة أو مرّتين فكانت آيات تتحدّث عن موسى عليه السلام وأذى فرعون وأتباعه ، والدعوة للصبر والاستقامة والثبات .

ما إن بزغت الشمس وانتشر الضياء حتّى برق خاطرٌ فى قلبى جعلنى أتنحّى عمّا عزمت عليه فى كشف محتويات الرسالة أمام الناس ؛ وحاكيت نفسى :

أنّ ما سأنفّذه سيحطّم الطرف الآخر ويستأصله بلاشكّ ، ولكن اللهِ فيه رضا ؟ وهل سيعقب كمالى المعنوى نّأم أنّ عاقبته السقوط والانحطاط ؟

استخرت الله وفتحت القرآن ، وإذا بى أمام آية ؛ ويا لها من آية ! حيث كانت :

وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَهِ إِنَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . [١]

قلت : **سُبحان الله**، هذا هو إعجاز القرآن ، وهذا هو القرآن الخالد والأقوم، إنّ الله سبحانه يقول : لا تفكّر بالانتقام ، لا تجزى السيّئة بالسيّئة، فإنّ طريق تعليم النفوس وتربيتها هو الصبر والتحمّل أمام الصعاب

١ـ الآيات ٣٤ إلى ٣٦، من السورة ٤١: فصّلت .

والمشاقّ واستماع الكلام الفارغ وغير المستساغ . إنّ واجبك ليس الانتقام بل الصّبر، ثمّ المقابلة بحسن الخلق ، وغلبة الطرف الآخر وقهره بالأخلاق وبتناسى قبائحه والإغضاء عن إساءاته ، وكأنّ هذه الآية العجيبة كانت توحى معنىً جديداً وتستبطن مفهوماً بديعاً بكراً ، وكأنّنى لم أقرأ هذه الآية قبل اليوم ولم استوعب معناها .

هذا من جهة ، ومن جهة أُخرى فقد كنت أنظر إلى الناس جميعاً على حدٍّ سواء بعين التربية والهداية ، وأعتبر واجبى تكليفاً إلهيّاً وفرعاً شبيهاً بالنبوّة فى مجالى المحدود ومحلّ دائرة إرشادى وتبليغى، وكنتُ أعتبر نفسى لحدّ الآن مسؤولاً ملتزماً لأمر الله بأنّ الجميع يجب أن يُربّوا ويُنذروا ، وأن يعتبر الجميع كلماتى ونصائحى ومواعظى نابعة من قول الله ، عليهم أن يعملوا لتطبيقها . فما الذى حدث كى يخرج هذا الرجل الآن ويتخلّى عن تلك المسؤوليّة والالتزام ؟

ألم يكن من الأفضل أن يبقى هذا الرجل منضوياً فى هذا الصفّ وأن يبقى الجميع ـ حسنهم وسيّئهم ـ يؤدّون أعمالهم ووظائفهم، عسى أن تشملنا رحمة الله جميعاً ؟

عجباً ! فهذا هو الأُسلوب الأفضل والطريقة المثلى والقانون الأعلى والحكم الإنسانىّ الارفع والاسمى .

كانت هذه الآية كالماء اللذيذ القراح المنهمر ، فأخمد النار الملتهبة فى الأعماق، وبدّد مشاعر الحقد والطمع والعُجب واستحسان الرأى الشخصىّ وطلب الجاه والمقام التى تتجلّى بغطاء مزيّف من أحاسيس حبّ الاستقلال وعزّة النفس . وكانت هذه الآية أشبه بمشرط جرّاحٍ حاذق يضعه فوق الدُّمّل فيخرج القيح والأقذار ويستأصلها .

أمسكتُ بالهاتف فى تلك اللحظة واتّصلت به ، وسلّمتُ عليه وسألتهُ إن كان باقياً فى المنزل فأنا راغب أن أذهب إليه وأكون فى خدمته .

قال : كلاّ كلاّ أيّها السيّد ! سأحضر فى خدمتك على الفور.

فقلتُ : سآتى أنا ، فأنا جاهز للخروج .

فأجاب : وأنا الآخر جاهز بملابس الخروج قرب الباب ، فقد أردتُ المجىء لأكون فى خدمتكم .

وخلاصة الأمر ، لم تمرّسوى دقائق معدودة حتّى جاء ، ففتحتُ الباب وتعانقنا وبكينا ، ثمّ دخلنا الغرفة فجلس تحت الكرسى ّولم نتحدّث بشأن ما كان بيننا ولو جملة واحدة ، كلّ ما حصل أ ّنى ناولتُه رسالته وقلت: خُذ هذه ، فكأنّك لم تكتب وكأنّى لم أقرأ ، فأخذ الرسالة ووضعها بجانبه وذرف الدموع لبعض الوقت ، ثمّ ودّعنى وذهب .

لقد أردتُ من ذكر هذه القضيّة والتى سبقها الاستشهاد بأنّ تعاليم القرآن خالدة أبديّة ، لها حكم الدواء الذى يشفى فوراً ويُنجى المريض من عناء الألم والوجع ، لا يرتوى الإنسان من شرابه الشافى مهما عبّ منه، بل يزداد إليه لهفة ورغبة ، وستحصل نفسه على سكينتها وتجد روحه حلاوتها ، ولأنّ هاتين القضيّتين قد وقعتا فعلاً لهذا الحقير، وتذوّقتُ حلاوتها وتحسَّستُ شفاءها العاجل ، فقد أحببت ذكرها للقرّاء المحترمين ليروا كيف أنّ هذه التعليمات والقوانين تمثّل الأُسلوب الامثل والنهج الافضل :

الاوّل : **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَـٰهِلِينَ.**

الثانى : **لاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ و عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ و وَلِىٌّ حَمِيمٌ.**

كما أنّ جميع آيات القرآن الكريم على هذا النحو ، فلانحصار لهذه الصفة والمزيّة فى آية أو آيتين ، فإذا ما طبّقنا القرآن ونَهجْنا نهجه فى ممارساتنا اليوميّة وفى برنامجنا العملىّ فسنرى ـ كما شاهدنا فى النهج الذى ذكرناه ـ كيف أنّ كلّ آيةٍ منه هواءٌ لعلّة ومسكّن لألم ومحنة ، ومهدِّى لاضطراب قلب، تسكن القلوب وتشفى الأرواح والنفوس فى ضوء تعاليمها وشعاع هَدْيها .

وعرفنا هنا معنى شفاعة القرآن حين يُقال للقرآن شافع وشفيع، فالشفع بمعنى الزوج مقابل الوتر بمعنى الواحد والفرد ، فحين يعجز المرء عن أداء عمل ما بمفرده فإنّه يلجأ عادةً لطلب مساعدٍ ومُعين ، ويدعى هذا المعين والمساعد بالشافع والشفيع ، أى أنّه عند اقترانه بذلك الامر فإنّ الإنسان يأخذ منه القوّة ويمكّنه بفضل معونته وانضمامه أن يُنجز ذلك العمل .

إنّ الإنسان بعقله وطبيعته وإرادته وحسّه واختياره قاصر بمفرده عن طىّ طريقه إلى الله ، وسيَضِلُّ ويتيه فلا يهتدى ، وسيُنهكه التعب والنصب، وستذلّه وتقهره المشاكل المادّيّة والمعنويّة . القرآن هو الذى يأتى فيضاعف قدرة الإنسان وقوّته ، ويمدّه بالعون فى سيره ليطوى طريقه ؛ تماماً كما تعجز القاطرة عن سحب القطار فيُستعان بقاطرة أُخرى تُقرن بها ، فهذه القاطرة الثانية تُدعى شفيعاً ، أى أنّها القرين والمساعد فى سحب القطار، وكالعجلة التى يعجز الفَرَس عن سحبها فيُقرن به آخر يُشفع به فيسحبانها سويّاً، وكالعامل الذى ينوء بحمل عمود حديدىّ ثقيل فيستعين بشفيع وشافع يُعينه على حمله .

إنّ آيات القرآن التى تمتلك جميعاً خاصيّة الدلالة والهداية والدواء

والنور والشفاء والغذاء المعنوىّ ، تدخل فى كلّ مرحلة من مراحل الحياة فتأخذ بيَدِ الإنسان العاجز المتهالك وتُعينه على إنجاز عمله والوصول به إلى مقصده وغايته .

وهذه الشفاعة فى الدنيا تظهر نفسها فى اليوم الآخرة، وفى ذلك الموقف فإنّ القرآن يشفع بعنوان الشفيع ويُعين هناك مَن اعتاد الاستعانة به فى الدنيا فيعبر به مراحل الظلمات وجهنّم .

روى الكلينىّ فى « الكافى » ؛ ومحمّد بن مسعود العيّاشىّ فى تفسيره، كلاّ بسنده عن الصادق عليه السلام عن أبيه ، عن آبائه عليهم السلام قال :

قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ و آلِهِ : أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّكُمْ فِى دَارِ هُدْنَةٍ ؛ [1] وَأَنْتُم عَلَى ظَهْرِ سَفَر ؛ وَالسَّيْرُ بِكُمْ سَرِيعٌ ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يُبْلِيانِ كُلَّ جَدِيدٍ وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ وَيَأْتِيانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ ، فَأَعِدُّوا الجِهازَ لِبُعْدِ المَجَازِ!

قَالَ : فَقَامَ المِقْدَادُ بْنُ الاَسْوَدِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَه! وَمَا دَارُ الهُدْنَةِ؟ فَقَالَ : دَارُ بَلاَغٍ وَانْقِطَاعٍ . فَإِذَا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالقُرْآنِ فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ . وَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الجَنَّةِ ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ. وَهُوَ الدَّلِيلُ يَدُلُّ عَلَى خَيْرِ سَبِيلٍ ، وَهُوَ كِتَابٌ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَبَيَانٌ وَتَحْصِيلٌ ، وَهُوَ الفَصْلُ وَلَيْسَ بِالهَزْلِ . لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ . فَظَاهِرُهُ حُكْمٌ وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ . ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ . لَهُ تَخُومٌ وَعَلَى تَخُومِهِ تُخُومٌ . لاَ تُحْصَى عَجَائِبُهُ وَلاَتُبْلَى غَرَائِبُهُ . فِيهِ مَصَابِيحُ الهُدَى وَمَنَارُ الحِكْمَةِ وَدَلِيلٌ عَلَى المَعْرِفَةِ لِمَنْ عَرَفَ الصِّفَةَ .

١ـ الهدنة المصالحة والمعاهدة على ترك القتال بين المسلمين والكفّار أو بين جيشين متحاربين .

إلى هنا نهاية رواية العيّاشيّ فى تفسيره، وأضاف لها فى « الكافى » هذه التتمّة :

فَلْيَجْلُ جَالَ بَصَرَهُ ، وَلْيُبْلِغ الصِّفَةَ نَظَرَهُ ، يَنْجُ مِنْ عَطَب، وَيَخْلُصُ مِنْ نَشَب ، فَإنَّ الفِكَّرَ حَيَاةُ قَلْبِ البَصِيرِ كَمَا يَمْشِى المُسْتَنِيرُ فِىَ الظُّلُمَاتِ بالنُّورِ.

فَعَلَيْكُمْ بحُسْنِ التَّخَلُّص وَقِلَّةِ التَّرَبُّص . [1]

إنّ الولايَة هىَ أعلى مقَام ، والإمامَ هو الذى : عُجنَ القرآن وامتزج بتمامه مع نفسه الشريفة ، وانطبقت عليه كلّ الآيَات بتمام معانيها ومفاهيمها ولَمَسها ومَسَّها من باءِ «**بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**» إلى سين **مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ** ، الإمام فى حقيقةِ وجوده هو القرآن الخارجىّ ، وواقعيّته تكبيرٌ وتسبيح وتحميد وتهليل وتمجيد للحقّ تعالى .

يقول أبو الفداء ابن كثير الدمشقىّ فى تأريخه : وممّا قرأه **الحاكم أبو عبدالله النيسابورىّ** عن مقتل الحسين عليه السلام عن بعض المتقدّمين هذه الابيات :

١ـ مقدّمة «تفسير الصافى» ص ٤، المقدّمة الأُولى ، الطبعة القديمة (الرحلىّ) ، وص ٩ من طبعة الأُوفسيت الحديثة (الوزيرىّ) ؛ وكذا فى «الكافى» ج ٢، ص ٥٩٨ و ٥٩٩ ؛ وكذا فى كتاب الروضة من «بحار الانوار» عن «نوادر الراوندىّ» عن الإمام موسىبن جعفر عليه السلام ، راجع «بحار الأنوار» ج ١٧، ص ٤٠ الطبعة القديمة (الكمبانىّ) ، وج ٧٧ ، ص ١٣٤ و ١٣٥ من الطبعة الحديثة ؛ وفى «نوادر الراوندىّ» ص ٢١ و ٢٢ .

وأورد فى نسخة الراوندىّ و «بحار الانوار» الذى نقل عنه : ويأتيان بكلّ وعدٍ ووعيد؛ وكذلك أورد : فقام المقداد بن الأسود فقال : يا رسول الله ! فما تأمرنا بالعمل؟ فقال: إنّها دار بلاء وابتلاء وانقطاع وفناء . وأورد أيضاً : له نجومٌ وعلى نجومه نجوم ، وأورد أيضاً: لمن عرف التَّصِفَة فليرع رجل بصره ، وليبلغ التَّصفة نظره . وأورد كذلك: والنور يُحسن التخلّص ويقلّ التربّص .

جَاؤُوا برَأسِكَ يَا بْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ مُتَـزَمِّـلاً بدِمَـائِـهِ تَزْمِيـلاَ
وَكَأَنَّمَـا بِـكَ يَا بْـنَ بَنْتِ مُحَمَّدٍ قَتَـلُوا جهَاراً عَامِدِينَ رَسُولاَ
قَتَلُـوكَ عَطْشَـانَاً وَلَـمْ يَتَدَبَّـرُوا فِـى قَتْلِـكَ القُـرْآنَ وَالتَّنْزيلاَ
وَيُكَبِّـرُونَ بـأَنْ قُتِـلْتَ وَإِنَّمَـا قَتَـلُوا بكَ التَّكْبِـيرَ وَالتَّهْلِيلاَ[1]

فقتلُ الإمامَ يُمثّل قتلاً لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وقتلاً للقرآن ، إذ إنّ الإمام هو القرآن الحىّ الناطق .

لقد كان الإمام السجّاد عليه السلام تجسيماً وتمثيلاً حيّاً للقرآن ، لكنّهم أسروه وجلسوا يتلون أمامه القرآن !

يقول السيّد بن طاووس : وسار القوم برأس الحسين ونسائه والأسرى من رجاله ، فلمّا قربوا من دمشق دنت أُمّ كلثوم من شمر ـ وكان من جملتهم ـ فقالت له : لى إليك حاجة . فقال: ما حاجتك ؟

قالت : إذا دخلتَ بنا البلد فاحملنا فى درب قليل النظارة وتقدّم إليهم أن يُخرجوا هذه الرؤوس من بين المحامل وينحّونا عنها فقد خزينا من كثرة النظر إلينا . فأمر فى جواب سؤالها أن يجعل الرؤوس على الرماح فى أوساط المحامل بغياً منه وكفراً ، وسَلَكَ بهم بين النظارة على تلك الصفة حتّى أتى بهم باب دمشق فوقفوا على درج باب المسجد الجامع حيث يُقام السبى .[2]

ويروى الشيخ الصدوق فى « الامالى » عن حاجب ابن زياد فى حديث

١ـ «البداية والنهاية» ج ٨، ص ١٩٨. وقال المرحوم المحدّث القمّىّ فى «نفس المهموم» ص ٢٧١ : روى أنّ بعض فضلاء التابعين لمّا شاهد رأس الحسين عليه السلام بالشام أخفى نفسه شهراً من جميع أصحابه ، فلمّا وجدوه بعد إذ فقدوه سألوه عن سبب ذلك فقال : ألا ترون ما نزل بنا؟ وأنشأ يقول هذه الابيات .

٢ـ «نفس المهموم» ص ٢٧١.

مفصّل إلى أن يقول : فأقيموا (الاسرى) على درج المسجد حيث يُقام السبايا وفيهم **عَلِىُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلام** وهو يومئذٍ فتىً شابٌّ، فأتاهم شيخٌ من أشياخ الشام فقال لهم : **الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى قَتَلَكُمْ وَأَهْلَكَكُمْ وَقَطَعَ قُرُونَ الفِتْنَةِ!** فلم يألوا عن شتمهم .

فلمّا انقضى كلامه قال له **عَلِىُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلام** : **أَمَا قَرَأْتَ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟**قال : نعم .

قال : أما قرأتَ هذه الآية : **قُل لاَ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى'؟** [1]

قال : بلى .

قال : **فَنَحْنُ أُولَئِكَ** ، ثمّ قال : أما قرأتَ : **وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى'حَقَّهُ ؟** [2]

قال : بلى .

قال : **فَنَحْنُ هُمْ** ، قال : فهل قرأت هذه الآية : **إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** . [3]

قال : بلى .

قال : **فَنَحْنُ هُمْ**؛ فرفع الشامىّ يده إلى السماء ثمّ قال : **اللَّهُمَّ إِنِّى أَتُوبُ إِلَيْكَ** ـ ثلاث مرّات، **اللَّهُمَّ إِنِّى أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ عَدُوِّ آلِ مُحَمَّدٍ وَمِنْ قَتَلَةِ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، لَقَدْ قَرَأْتُ القُرْآنَ فَمَا شَعَرْتُ بِهَذَا قَبْلَ اليَوْمِ** . [4]

١ـ الآية ٢٣، من السورة ٤٢ : الشورى .

٢ـ الآية ٢٦، من السورة ١٧ : الاءسراء .

٣ـ الآية ٣٣، من السورة ٣٣ : الاحزاب .

٤ـ روى فى «نفس المهموم» ص ٢٧٣ و ٢٧٤، وفى «منتهى الآمال» ج ١ ، ص ٣٠٧ و ٣٠٨ هذه القصّة عن القطب الراوندىّ عن المنهال بن عمرو ؛ وفى نهايتها أنّ الرجل

قال السيّد ابن طاووس : ثمّ وضع (يزيد) رأسَ الحسين عليه السلام بين يديه وأجلس النساء خلفه لئلاّ ينظرن إليه ، فرآه علىّ بن الحسين عليه السلام فلم يأكل بعد ذلك أبداً من رأس غنم أو غير ذلك ، وأمّا زينب فإنّها لمّا رأته أهوت إلى جيبها فشقّته ، ثمّ نادت بصوتٍ حزين يفزع القلوب :

يَاحُسَيْنَاه! يَاحَبيبَ رَسُولِ اللَهِ ! يَا بْنَ مَكَّةَ وَمِنَى! يَابْنَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ سَيِّدَةِ النِّسَاءِ ! يَابنَ بنْتِ الْمُصْطَفَى !

قال الراوى : فأبكت واللّه كلّ من كان فى المجلس ويزيد عليه لعائناللّه ساكت . ثمّ جعلت امرأة من بنى هاشم كانت فى دار يزيد لعنهاللّه تندب على الحسين عليه السلام وتنادى :

يَا حُسَيْنَاهُ ! يَا سَيِّدَ أَهْلِ بَيْتَاهُ ! يَا بْنَ مُحَمَّدَاه ! يَارَبِيعَ الاَرَامِلِ وَالْيَتَامَى ! يَا قَتِيلَ أَوْلاَدِ الاَدْعِيَاءِ !

قال الراوى : فأبكت كلَّ مَن سمعها .

وَمِمَّا يُزِيلُ القَلْبَ عَنْ مُسْتَقَرِّهَا

وَيَتْرُكُ زَنْدَ الغَيْظِ فِى الصَّدْرِ وَارِيَا

وُقُوفُ بَنَاتِ الوَحْىِ عِنْدَ طَلِيقِهَا

بحَالٍ بهَا يُشْجِينَ حَتَّى الاَعَادِيَا

ثمّ دعا يزيد عليه اللعنة بقضيب خيزران فجعل ينكت به ثنايا الحسين عليه السلام ، وكان عنده أبو برزة الاسلمىّ فقال له :

يا يزيد ! ارفع قضيبك فو اللّه لطال ما رأيتُ رسولاللّه يقبّل ثناياه .[1]

الشامىّ قال للسجّاد عليه السلام: هل لى توبة ؟ فقال له : نعم ؛ فقال: أنا تائب . فبلغ يزيدبن معاوية حديث الشيخ فأمر به فَقُتِلَ .

١ـ «نفس المهموم» ص ٢٨٠ .

وقال ابن الجوزىّ فى كتابه «**الرَّدُّ عَلَى المُتَعَصَّب العَنيد**» :

ليس العجب من فعل عمر بن سعد وعبيد الله بن زياد، وإنّما العجب من خذلان يزيد وضربه بالقضيب على ثنية الحسين عليه السلام وإغارته على المدينة ، أفيجوز أن يفعل هذا بالخوارج ؟ أَوَ ليس فى الشرع أ نّهم يُدفنون ؟ أمّا قوله أن أسبيهم فأمرٌ لايقنع لفاعله ومعتقده باللعنة ، ولو أنّه احترم الرأس حين وصوله وصلّى عليه ولم يتركه فى الطست ولم يضربه بقضيب ما الذى كان يضرّه وقد حصل مقصوده من القتل ؟ ولكن أحقاد جاهليّة ، ودليلها ما تقدّم مِن إنشاده :

لَيْتَ أَشْيَاخِى بِبَدْر شَهِدُوا جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الاَسَل[1]

قال سبط ابن الجوزىّ : قال جدّى : ليس العجب من قتال ابن زياد الحسين عليه السلام وتسليطه عمر بن سعد على قتله والشمر، وحمل الرؤوس إليه ، وإنّما العجب من خذلان يزيد وضربه بالقضيب ثناياه ، وحمل آل رسول الله سبايا على أقتاب الجمال ، وعزمه على أن يدفع فاطمة بنت الحسين إلى الرجل الذى طلبها كأَمَةٍ، وإنشاده أبيات ابن الزبعرى : * **ليث أشياخى ببدرٍ شهِدوا** * .

١ـ «نفس المهموم» ، ص ٢٧٥ .

البَحْثُ الثَّانِي

اَلْقُرْآنُ هُوَ الهَادِي إِلَى سُبُلَ السَّلَامِ وَالمُخْرِجُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالْمُؤَدِي إِلَى صِرَاطٍ المُسْتَقِيمِ

وتفسير آية

قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ

أعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

ولَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أعْدَائِهِمْ أجْمَعِينَ مِنَ الانَ إلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

ولاَ حَولَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قال اللـه الحكيم فى كتابه الكريم :

قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ اللَهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللَهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُ سُبُلَ السَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلَىٰ صِرَٰطٍ مُسْتَقِيم .[1]

وقد كان مطلع الآية الاُولى : يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنَ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ .

قال آية اللـه العلاّمة الطباطبائى مدّ ظلّه العالى فى تفسير هاتين الآيتين : قوله تعالى : قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ . ظاهر قوله : قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَهِ كون هذا الجائى قائماً به تعالى نحو قيام كقيام البيان أو الكلام بالمبيِّن والمتكلّم ، وهذا يؤيّد كون المراد بالنور هو القرآن ؛ وعلى هذا فيكون قوله وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ معطوفاً عليه عطف تفسير ، والمراد بالنور والكتاب المبين جميعاً القرآن .

١ـ الآيتان ١٥ و ١٦، من السورة ٥ : المائدة .

وقد سمّى اللَه تعالى القرآن نوراً فى موارد من كلامه ، كقوله تعإلى : وَاتَّبعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزلَ مَعَهُ ، [١] وقوله : فَـَامِنُوا بِاللَهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا ،[٢] وقوله : وَأَنزَلْنَآ إلَيكُمْ نُوراً مُّبِينًا . [٣]

ومن المحتمل أن يكون المراد بـالنور النبى ّصلّى الله عليه وآله وسلّم على ما أفاده صدر الكلام فى الآية قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا ؛ وقد عدّه الله تعالى نوراً فى قوله : يَـأَيُّهَا النَّبىُّ إِنَّـآ أَرْسَلْنَـاكَ شَـاهِدًا وَمُبَشِّـرًا وَنَذِيـرًا * وَدَاعِيًا إلَى اللَهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا . [٤]

قوله تعإلى : يَهْدِى بِهِ اللَهُ، أى أن الله يهدى بسببه ، ومعلوم أنّ هذا السبب من الأسباب الظاهريّة ، فحقيقة الهداية قائمة به تعإلى ، وهو الذى يسخّر إمّا رسوله أو قرآنه لامر الهداية .

ومعنى السلام ، والسلامة هو التخلّص من كلّ شقاء يختلّ به أمر سعادة الحياة فى دنيا أو آخرة ، فأمر الهداية الإلهيّة يدور مدار اتّباع رضوان الله ، وقد قال تعإلى : لاَ يَرْضَى' لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ،[٥] وقال :إِنَّ اللَهَ لاَ يَرْضَى' عَنِ الْقَوْمِ الْفَـاسِقِينَ .[٦] ويتوقّف بالآخرة على اجتناب سبيل الظلم والانخراط فى سلك الظالمين ، وقد نفى الله سبحانه عنهم هدايته وآيسهم من نيل هذه الكرامة الإلهيّة بقوله : وَاللَهُ لاَيَهْدِى الْقَوْمَ الظَّـالِمِينَ . [٧]

١ـ الآية ١٥٧، من السورة ٧: الاعراف .
٢ـ الآية ٨، من السورة ٦٤: التغابن .
٣ ـ الآية ١٧٤، من السورة ٤ : النساء .
٤ ـ الآيتان ٤٥ و٤٦، من السورة ٣٣: الاحزاب .
٥ ـ الآية ٧، من السورة ٣٩: الزمر .
٦ـ الآية ٩٦، من السورة ٩: التوبة .
٧ ـ الآية ٥ ، من السورة ٦٢ : الجمعة .

فالآية ؛ أعنى قوله : يَهْدِى بِهِ اللَـهُ مَـنِ اتَّبَـعَ رِضْـوَٰنَـهُۥ سُـبُلَ السَّلَـٰمِ ؛ تجرى مجرى قولـه : الَّذِيـنَ ءَامَنُـوا وَلَـمْ يَلْبِسُـوٓا إِيمَـٰنَـهُمْ بِظُلْـمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَـهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ . [1]

قوله تعالى : وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِـهِ، فى جميـع الظلمـات وإفـراد النـــور إشـــارة إلى أنّ طريـــق الحـــقّ لا اختَـــلاف فيـــه ولا تفـــرّق وإن تعـــدّدت بحســـب المقامـــات والمواقـــف ، بخـــلاف طريـــــق البـــــاطل ؛ والإخراج من الظلمـــات إلى النـور إذا نُسب إلى غـيره تعـالى كنـبىٍّ أو كتـابٍ فمعنى إذنه تعالى فيه إجازته ورضاه ، كمـا قـال تعـالى : كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْـكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّـهِمْ ، [2] فقيّـد إخراجـه إيّـاهم مـن الظلمات إلى النور بإذن ربّـهم ليخـرج بذلـك عـن الاسـتقلال فى السـببيّة ، فـإنّ السبب الحقيقى لذلك هو اللـه سبحانه ؛ وقال : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَـآ أَنْ أَخْـرِجْ قَوْمَـكَ مِـنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَـى النُّـورِ [3] فلـم يقيّـده بـالإذن لاشـتمال أمـر «أخرج» على معنى الإذن ، وإذا نُسب الإذن إلى اللـــه تعـالى فمعـنى إخراجـهم بإذن إخراجهم بعلمه كما فى الآيـة الـتى نبحثـها وَيُخْرِجُـهُم مِّـنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَـى النُّورِ بِإِذْنِهِ، أى بعلمه يخرج اللـه سبحانه تعـالى النـاس ، وقـد جـاء الإذن بمعـنى العلم فى كثير من الآيات القرآنيّة ، يُقال أذن به أى عَلِـمَ بـه ، ومـن هـذا البـاب قوله تعالى : وَأَذَنٌ مِّنَ اللَهِ وَرَسُولِهِ ،[4] أى إعـلام مـن اللـــه ورسـوله ، والآيـة : فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ، [5] .

---

١ ـ الآية ٨٢، من السورة ٦ : الانعام .

٢ ـ الآية ١، من السورة ١٤: إبراهيم .

٣ ـ الآية ٥، من السورة ١٤: إبراهيم .

٤ ـ الآية ٣، من السورة ٩: التوبة .

٥ ـ الآية ١٠٩، من السورة ٢١: الانبياء .

وقوله : وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ ، [١] إلى غيرها من الآيات .

وقد جيء بالسُّبُل بصيغة الجمع كما جيء بالصراط بصيغة المفرد ، لانّ سُبُل السلام إلى الله مختلفة وكثيرة ، أمّا الصراط المستقيم الذى يُنسب إليه تعالى فهو طريقٌ له الهيمنة على جميع تلك السبل ، فكلُّ سبيلٍ إلى الله يتّحد مع الصراط المستقيم بمقدار خلوصه . [٢]

لقد وصف الله تعالى القرآن فى الآية التى أوردناها مطلع الكلام بصفتين ، الاُولى أنّه نور، والثانية أنّه كتابٌ مبين، وبيّن له آثاراً ثلاثة :

الاوّل : الهداية إلى سُبل السلام .

الثانى : الإخراج من عالم الظلمات إلى النور بإذن الله .

والثالث : الإرشاد إلى الصراط المستقيم والطريق الحقّ .

وسنتحدّث بحول الله وقوّته بما يسعه فكرنا فى هاتين الصفتين وهذه الآثار الثلاثة :

أمّا أنّ القرآن نور ، فلانّ آياته جاءت من عالم النور ، ولم تقصر أو تعجز أبداً عن تشخيص أمراض البشر وطريقة علاجها الناجع ، فكلّ ما يقوله يُبيّنه لتكامل أفراد البشر إنّما هو محض العلم والبصيرة والوصول إلى النتيجة والهدف ، لا الجهل والشقاء والوصول الاحتمالىّ .

النور فى اللغة هو الظَّاهِرُ فِى نَفْسِهِ وَالْمُظْهِرُ لِغَيْرِهِ ، فالشمس مثلاً نور ، لأنّها ظاهرة بنفسها ومظهرة للأشياء بإشراقها وضيائها ، وهى لا تحتاج إلى مُظهر تكتسب من خلال إنارته قابليّة الظهور والتجلّى ، فهى مضيئة مشرقة بنفسها ، ولها نور وإشراق لا ينفك عنها تُضيء به

١ـ الآية ٢٧، من السورة ٢٢: الحجّ .

٢ـ خلاصة كلام العلاّمة المفصّل فى تفسير «الميزان» ج ٥ ، ص٢٦٣ إلى٢٦٥ .

الموجودات الواقعة فى معرض إشعاعه .

بَيدَ أنّ غير الشمس ، كالقمر والنجوم ، والارض وماأقلّت ، من صحارى وجبال ومحيطات بمحتوياتها ، مظلمٌ داكن ، ولو مضى عليها ملايين السنين ولم يصلها نور الشمس فستبقى غارقةً فى الظلام الدامس المحض بلا ظهور ولا تجلّ .

وبإشعاع النور يرى الإنسان الأشياء ، لا يخفى عليه منها شىء ، لكنّه يرى النور نفسه بلا حاجة إلى مُظهر له أو دليل عليه ، إذ النور نفسه مُظهر لنفسه دليل عليها ، على العكس من الظُّلمة التى ذاتها عبارة عن الإبهام والجهل ذاتيّاً ، مضافاً إلى منعها رؤية الموجودات الماثلة فيها القابعة تحت أُفقها .

القُرْآن نُورٌ، لأنّه دليل على نفسه و معرّف لها ، فلا يمكن لأىّ كتاب أو قائل غير القرآن أنّ يُعرّف القرآن كما يليق به أو يُبيّن واقعه وحقيقته ، لانّ جميع الكتب والقائلين إنّما يعرّفونه وفق أُفق فكرهم ومستوى إدراكهم الذى يتضاءل ويقصرحين يُقاس بعلوم القرآن وفكره ، اللهمّ إذا وصلوا إلى مقام الطهارة المطلقة ونظروا إليه من نافذة القرآن ومن منبع نزوله ، إذ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ،[1] وهو مقام يختصّ بأولياء الله المقرّبين ، أمّا غيرهم من العالم أجمع فإنّ علومهم تعدّ مقابل القرآن محدودة قاصرة مقرونة بالإبهام والجهل .

وعلى هذا ، فإنّ أىّ إبهام يرد بخصوصه ينبغى اللجوء فى رفعه إلى القرآن نفسه والاستنارة بنوره وضيائه ، فهو كتاب واضح وموضّح ، وكتاب نور وإشعاع ، وكتاب ظهور وإظهار ، كما أنّ لدينا الكثير من الاخبار التى

١ـ الآية ٧٩، من السورة ٥٦ : الواقعة .

تشير إلى أنه إذا عُرض عليكم حديث منّا فلم تتبيّنوا صحّته من سقمه فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه .

والآن وبعد أن تبيّن معنى ومفهوم النور ، وحقيقة أنّ القرآن نور ، فنذكر الآيات التى وردت فى القرآن وعبّرت عنه بالنور ، كآية : فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُۥ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . [١]

وهذه الفقرة تتمّة آية مطلعُها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ الَّذِى يَجدُونَهُ و مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَٰلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ .

فإنّ المراد من النُّورالَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ ؛ أى مع رسول الله ؛ هو القرآن الكريم .

وكالآية المباركة : فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . [٢]

والآية المباركة : قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مِن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيكُمْ نُورًا مُّبِينًا . [٣]

وبالطبع فإنّ النور الذى هو حقيقة القرآن مطلق عامّ وشامل ينطوى على كلّ نور ، لذا فقد جاء بألف ولام الجنس فى بعض الآيات : وَالنُّورِ الَّذِى

١ـ الآية ١٥٧، من السورة ٧: الاعراف .

٢ ـ الآية ١، من السورة ٦٤: التغابن .

٣ ـ الآية ١٧٤، من السورة ٤: النساء .

أنزَلْنَا ؛ وَاتَّبعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ ، أمّا فى التوراة والإنجيل ، فرغم كونها من الكَتب السماويّة أيضاً ؛ فقد عبّر عن نورها بلفظ النكرة ، فقد قال فى الآية ٤٤ ، من السورة ٥ : المائدة : إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَاٰةَ فِيهَا هُدَىً وَنُورٌ ، وقال فى الآية ٤٦ من نفس السورة : وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓءَاثَٰرِهِمْ بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ الإنْجيلَ فِيهِ هُدَىً وَنُورٌ .

ويُلاحظ فى هاتين الآيتين ورود فِيهِ هُدَىً وَنُورٌ وهو تعبير يُغاير تعبير فيه الهدى والنور الذى يفيد الاستغراق والعموميّة .

إنّ فضل النور وميزته على الظلمة ، أى العلم على الجهل ، يعدّ من الاوّليّات والمسلّمات لوضوحه ، لذا عدّ القرآن تساويهما من الأُمور بديهيّة البُطلان ، وبيّن على نحو الاستفهام الاستنكارىّ :

قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَٰتُ وَالنُّورُ . [1]

وَمَا يَسْتَوِى الأعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَٰتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى الأحْيَآءُ وَلاَ الأمْوَٰتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِى الْقُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ . [2]

فيكون الفارق ـ وفق هذا المقياس ـ بين المؤمنين المعتقدين بالقرآن ، المقتدين فى أُمورهم بنهجه ، المقتفين خطاه فى معاملاتهم ، وبين المعرضين عنه والمخالفين لنهجه ، كالفرق بين البصير والاعمى ، والعالم والجاهل ، والحىّ والميّت ، والسميع والمدرك ومَن هو راقد فى القبور .

١ـ الآية ١٦، من السورة ١٣: الرعد : قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالأرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لاَيَمْلِكُونَ لاِنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَٰتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَٰبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ الْوَٰحِدُ الْقَهَّٰرُ .

٢ـ الآيات ١٩ إلى ٢٣، من السورة ٣٥: فاطر .

فالمجموعة الأُولى تتمتّع بجميع مظاهر الحياة ، والثانية فى حكم الاموات ، حيث لا روح لهم ولا بصر ولا سمع ولا علم ولا إدراك .

هذا هو البيان والمنطق القرآنى فى التعريف بهذا الكتاب السماوى ، وهذه المائدة الإلهيّة المعنويّة والروحيّة التى تمنح عالم البشرية الإشراق والنور ، وتخرجه من الجهل والظلمة المطبقة المطلقة إلى العلم والنور المطلق .

وقد عبّر مولانا أميرالمؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه أفضل صلوات المصلّين فى عدّة موارد عن القرآن الكريم بلفظ النور ، فمرّةً يقول : وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ المَشْهُورِ ، وَالعِلْمِ المَأْثُورِ ، وَالكِتَابِ المَسْطُورِ ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالضِّيَاءِ اللاَّمِعِ ، وَالاَمْرِ الصَّادِعِ .[1]

وأُخرى يقول : أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ ؛ وَارْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ المُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الوَعْدِ ، وَاقْتَدُوا بِهَدْى نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الهَدْى ، وَاسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ !

وَتَعَلَّمُوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الحَدِيثِ وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ القُلُوبِ ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ ، وَأَحْسِنُوا تِلاَوَتَهُ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ القَصَصِ !

فَإِنَّ العَالِمَ العَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالجَاهِلِ الحَائِرِ الَّذِى لاَ يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ ، بَلِ الحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ ، وَالحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ ، وَهُوَ عِنْدَ اللَهِ أَلْوَمُ .[2]

---

١ ـ «نهج البلاغة» الخطبة ٢، طبعة مصر بتعليق الشيخ محمّد عبده ، ج ١، ص ٢٨.

٢ ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٠٨، طبعة مصر ، بتعليق الشيخ محمّد عبده ، ج ١، ص ٢١٦.

حيث يصرّح الإمام فى هذه الخطبة أنْ : وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ .

ومرّةً يقول :

وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَهِ فَإِنَّهُ الحَبْلُ المَتِينُ ؛ وَالنُّورُ المُبِينُ ؛ وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ وَالرَّى ُّ النَّاقِعُ ، وَالعِصْمَةُ لَلْمُتَمَسِّكِ ؛ وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّق .

لاَ يَعْوَجُّ فَيُقَامُ ؛ وَلاَ يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ ، وَلاَ تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ وَوُلُوجُ السَّمْعِ . مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ؛ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ .[1]

وفى موضع يقول : أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ؛ وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الأُمَمِ ؛ وَانْتِقَاضٍ مِنَ المُبْرَمِ . فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ وَالنُّورِ المُقْتَدَى بِهِ . ذَلِكَ القُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ وَلَنْ يَنْطِقَ . وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ . أَلاَ إنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِى ؛ وَالحَدِيثَ عَنِ المَاضِى ، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ ؛ وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ .[2]

كان ما تقدّم بحثاً عن النور ومعناه ونورانيّة القرآن الكريم طبقاً لما ورد فى الآيات القرآنية و« نهج البلاغة » .

أمّا الصفة الثانية التى نعتَ القرآن الكريم نفسه بها فى الآية التى تقدّم بحثها فكانت صفة كتاب مُبين، أى كتاب واضح جلىّ، باعتبار أنّ مادّة أَبَانَ يَبِينُ إبَانَةً تُستعمل متعدّيةً ، نحو أَبَانَ الشَّىْءَ إذا أظهره وأوضحه ، أو لازمةً نحو أَبَانَ الشَّىْءُ إذا ظهر واتّضح ، لذا فإنّ اسم الفاعل مُبِينٌ باعتبار مجيئه صفةً للكتاب وعدم أخذه مفعولاً فإنّه يعطى معنى اللازم ، فكِتَابٌ مُبِينٌ ، أى كتاب ظاهر بيّن جلىّ .

وقد وردت لفظة الكتاب المبين كثيراً فى القرآن الكريم ، مثل :

---

١ ـ «نهج البلاغة» ج ١، ص ٢٨٤، الخطبة ١٥٤.

٢ ـ «نهج البلاغة» ج ١، ص ٢٨٨ و٢٨٩، الخطبة ١٥٦.

الر تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْمُبِين . [١] و تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ ، [٢] كما ورد القسم به ، مثل : حم * وَالْكِتَـٰبِ الْمُبِين . [٣]

وكان المقصود بالكتاب المبين هو هَذَا القرآن اللفظىّ ، أو القرآن المكتوب المتلو ، أو حقيقته التى كانت فى عالم أعلى وأسمى يحكى عنها هذا القرآن اللفظىّ فى مقام النزول ، كما قَال : وَعِنْدَهُ ومَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِين . [٤]

ومعلوم أنّ حقيقة الموجودات ليست بوجودها العينىّ فى القرآن اللفظىّ ، بل فى عالم واسع ومحيط يعبّر عنه بعالم اللَّوْحِ المَحْفُوظِ أوأُمِّ الكتاب ، فأصل الكتاب المبين هو ذلك العالم ، وآياته هى القرآن الحاكى بآياته عن ذلك العالم ، وهكذا فقد عبّر عنه بإمامٍ مُبين باعتبار تحقّق وجوده النفسىّ :إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَـٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِى إِمَامٍ مُّبِين ، [٥] والمراد من إِمَامٍ مُّبِينٍ حقيقة النفس الملكوتيّة لمقام الولاية التى أُحصى فيها كلّ شىء .

وعلى هذا فإنّ القرآن الكريم سيكون وجودَه اللفظىّ والكتبىّ ، والكتاب المبين وجودَه العينىّ والخارجىّ ، والإمام المبين وجودَه النفسىّ الذى له العلم والإحاطة بكلّ الموجودات والهيمنة على وجودها وحياتها .

روى عن الشيخ الطوسىّ فى كتاب « مصابيح الانوار » عن أبى ذرّ

---

١ ـ الآية ١، من السورة ١٢ : يوسف .

٢ ـ الآية ٢، من السورة ٢٦ : الشعراء ، والآية ٢، من السورة ٢٨: القصص .

٣ ـ الآيتان١ و ٢، من السورة ٤٣ : الزخرف ، والآية٢، من السورة ٤٤ : الدخان .

٤ ـ الآية ٥٩ ، من السورة ٦ : الانعام .

٥ ـ الآية ١٢، من السورة ٣٦ : يس .

الغفارى ّقال : كُنْتُ سَائِراً فِى أَعْرَاضِ أَمِيرالمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِذْ مَرَرْنَا بِوَادٍ وَنَمْلُهُ كَالسَّيْلِ سَارٍ. فَذَهَلْتُ مِمَّا رَأَيْتُ ، فَقُلْتُ : اللَهُ أَكْبَرُ جَلَّ مُحصِيهِ !

فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : لاَ تَقُلْ ذَلِكَ يَا أَبَاذَرٍّ ! وَلَكِنْ قُلْ : جَلَّ بَارِيهِ ! فَوَ الَّذِى صَوَّرَكَ إِنِّى أُحْصِى عَدَدَهُمْ وَأَعْلَمُ الذَّكَرَ مِنْهُمْ وَالأُنْثَى بِإِذْنِ اللَهِ عَزَّ وَجَلَّ .[1]

وروى عن عمّار بن ياسر أنّه قال : كُنْتُ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِى بَعْضِ غَزَوَاتِهِ ؛ فَمَرَرْنَا بِوَادٍ مَمْلُوٍّ نَمْلاً . فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! تَرَى يَكُونُ أَحَداً مِنْ خَلْقِ اللَهِ يَعْلَمُ كَمْ عَدَدَ هَذَا النَّمْلِ ؟!

قَالَ :نَعَمْ يَا عَمَّارُ! أَنَا أَعْرِفُ رَجُلاً يَعْلَمُ كَمْ عَدَدَهُ ؟ وَكَمْ فِيهِ ذَكَرٌ ؟ وَكَمْ فِيهِ مِنْ أُنْثَى ؟!

فَقُلْتُ : مَنْ ذَلِكَ يَا مَوْلاَىَ الرَّجُلُ ؟!

فَقَالَ : يَا عَمَّارُ ! مَا قَرَأْتَ سُورَةَ يَس : «وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ» ؟!

فَقُلْتُ : بَلَى يَا مَوْلاَىَ !

قَالَ : أَنَا ذَلِكَ الإِمَامُ الْمُبِينُ ![2]

وروى عن الشيخ الصدوق ابن بابويه القمّى ّ، بسنده المتّصل ، عن أبى الجارود ، عن أبى جعفر محمّد بن علىّ الباقر ، عن أبيه ، عن جدّه عليهم السلام ، قال : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ» قَامَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْ مَجْلِسَيْهِمَا فَقَالاَ : يَا رَسُولَ اللَهِ ! هُوَ التَّوراَةُ ؟

١و٢ـ «تفسير البرهان» سورة يس ، ج ٢، ص ٨٨٦ ، الطبعة الحجريّة .

قَالَ : لاَ .

قَالاَ : هُوَ الإنْجيلُ ؟ قَالَ : لاَ .

قَالاَ : فَهُوَ القُرْآنُ ؟ قَالَ : لاَ .

قَالَ : فَأَقْبَلَ علىٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : هُوَ هَذَا ! إنَّهُ الإمَامُ الَّذِى أَحْصَى اللَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ عِلْمَ كُلِّ شَىءٍ .[1]

وقد ورد فى « تفسير علىّ بن إبراهيم » فى تفسير هذه الآية أنّ الإمام المبين هو الكتاب المبين ، وهو محكم . وروى عن ابن عبّاس ، عن أميرالمؤمنين صلوات الله عليه أنّه قال :

أنَا وَاللَهِ الإمَامُ الْمُبِينُ ؛ أُبَيِّنُ الحَقَّ مِنَ البَاطِلِ ؛ وَرِثْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .[2]

أمّا جهة تسمية القرآن بالكتاب المبين والواضح ، فلخلوّه من الالتواء والاعوجاج فى الفهم ، والإبهام فى المعنى ، وتعقيد المطالب وتعسّر تحصيلها ودركها ؛ فهو كتاب بيّن واضح سهل المؤنة خالٍ من الالغاز فى التعبير، والعىّ والالتواء فى البيان ، وهو أُسلوب فى الكلام بديع لا يُتعب القارى ولا تزيده القراءة إلاّ نشاطاً ، ولا تزيده كثرة الأخذ من ماء معينه ونبع حياته الزلال إلاّ ارتواءً .

وذكّرت بهذه الحقيقة العديد من آيات القرآن الكريم ، منها :

---

١ ـ «تفسير البرهان» سورة يس ، ج ٢، ص ٨٨٦ ، الطبعة الحجريّة ؛ و «تفسير الصافى» ج ٢، ص ٤٠٥ ؛ و «تفسير نور الثقلين» ج ٤ ، ص ٣٧٩ ، وقد روى التفسيران الاخيران عن كتاب «معانى الاخبار» للشيخ الصدوق .

٢ـ «تفسير الصافى» ج ٢، ص ٤٠٥ ؛ و «تفسير نور الثقلين» ج ٤، ص ٣٧٩ .

أفغَيْرَ اللَهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيكُمُ الْكِتَـٰبَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .[1]

وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُمْ بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .[2]

كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .[3]

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا .[4]

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ .[5]

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيكَ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلاَّ الْفَـٰسِقُونَ .[6]

وقد عبّر فى « نهج البلاغة » عن كتاب اللـه بالكتـاب النـاطق ، أى المبـين المستبين ، البيان والتبيان ، لا يحتاج فى إحكامه وإتقانه إلى مفسِّر ومبيِّن .

إنَّ اللَـهَ بَعَـثَ رَسُـولاَهَادِيَاً بِكِتَابٍنَـاطِقٍ وَأَمْرٍقَـائِمٍ،لاَ يَـهْلِكُ عَنْـهُ إلاَّ هَالِكٌ .[7]

وقـال عليـه السـلام بشـأن تحكيـم الحكمين فى وقعة صفّين:إنَّا لَمْ نُحَكِّمِ

---

١ ـ الآية ١١٤، من السورة ٦: الأنعام .

٢ ـ الآية ٥٢، من السورة ٧: الأعراف .

٣ ـ الآية ٣، من السورة ٤١: فصّلت .

٤ ـ الآية ١، من السورة ١٨: الكهف .

٥ ـ الآية ١٠٣، من السورة ١٦: النحل .

٦ ـ الآية ٩٩، من السورة ٢: البقرة .

٧ ـ «نهـج البلاغـة» ج ١، ص ٣١٦، الخطبـة ١٦٧، طبعـة مصـر بتعليـق الشـيخ محمّـد عبده .

الرِّجَالَ ؛ وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا القُرْآنَ . وَهَذَا القُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ . لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ ؛ وَلاَبُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ . وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ . [١]

والمراد بقوله(لا ينطق بلسان) ، كما أوضح عليه السلام ، هو هذه الخطوط المستورة المحفوظة بين الدفّتين التى ينبغى أن يكون هناك مَن يعرفها ويُبيّنها ؛ كما قال عليه‌السلام : ذَلِكَ القُرْآنُ فَاسْتَنطِقُوهُ وَلَنْ يَنْطِقَ وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ . [٢]

وخلاصة ما ذُكر أنّ القرآن المقروء والمكتوب إنّما هو الصوت الخارج من الحنجرة ، والمداد المنشور على صفحات الورق ، بَيدَ أنّ حقيقة القرآن تتمثّل فى ذلك الإنسان المرتقى فى مدارج سلوك الطريق الإلهىّ ، الواصل حيث ينهل من منبع نزول القرآن ، والواقف والمهيمن على حقائقه وأسراره ومعارفه وأحكامه وقصصه . وهو مقام رفيع ومرتبة سامية لا تنال ذروتها الشامخة يدُ نائل ، إلاّ أصحاب مقام الولاية الكلّيّة الإلهيّة ، جعلنا الله فداهم ورزقنا من بحور علومهم ، آمين ، بمحمّدٍ وآله الطاهرين ؛ وهو الإمام المبين ، والكتاب المبين ، الحاوى لكتاب التكوين فى اللوح المحفوظ ؛ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ . [٣]

وقد شرح الشيخ محمود الشبسترىّ ؛ فى أبياته ؛ كتاب التكوين هذا ، المخطوط بيد الحقّ تعالى ، فقال :

به نزد آنكه جانش در تجلّى است

همه عالم كتاب حقّ تعالى است

١ـ «نهج البلاغة» ج ١، ص ٢٤٠، طبعة مصر .

٢ ـ «نهج البلاغة» ج ١، ص ٢٨٨، الخطبة ١٥٦، طبعة مصر .

٣ ـ الآيتان ٢١ و ٢٢، من السورة ٨٥ : البروج .

عَرَض إعراب وجوهر چون حروف است
مراتب همچو آيات وقوف است
ازو هر عالمى چون سوره‌اى خاصّ
يكى زان فاتحه ، ديگر چو إخلاص
نخستين آيتش ، عقلِ كُل آمد
كه در وى همچو بآء بِسْمِل آمد
دوم نفس كل ، آمد آيت نور
كه چون مصباح شد در غايت نور
سيم آيت درو شد عرش رحمن
چهارم آية الكرسى همى خوان
پس از وى جِرْم‌هاى آسمانى است
كه در وى سورة سَبْعُ الْمَثَانِى است[1]

---

١ ـ «گلشن راز» ص ١٩و٢٠ الطبعة الحجريّة .

يقول : «أنّ العالم كلّه عند العارف الذى صار مجلى للصفات والاسماء الإلهيّة إنّما هو كتاب للحقّ تعالى .

مَثّلَ جوهر العالم حروف الكتاب ، التكوينىّ ، وعَرَضُه إعرابها ، ومراتبه علائم الوقف فيه .

وكان كلّ عالَم فيه يشبه سورة خاصّة ، فواحد منها شاكل الفاتحة وماثل الآخر سورة الإخلاص .

وقد كانت آية الكتاب الأُولى العقل الكلّىّ الذى حلّ فيه كباء بسم الله .

والآية الثانية النفس الكلّيّة التى صارت آيةً من النور متألّقة كالمصباح .

وكانت الثالثة عرش الرحمن ، أمّا الرابعة فاعلم أنّها آية الكرسى.

ومن بعده الاجرام السماوية التى كانت فيه كسورة السبع المثانى .

نظـــر كـن بـــاز در جـــرم عناصِـــر
كه هـــر يك آيـتى هســـتند باهـــر
پس از عنصـــر بود جرم ســـه مولود
كه نتـوان كـــردن ايـن آيات معدود
به آخـــر گشـــت نـازل نفس إنسان
كه بر ناس آمـد آخـر ختـم قـرآن[1]

وقـال مـولى المـوالى الإمـام أمـير المؤمنـين عليـــه الســـلام فى الاشـــعار المنسوبة له :

دَوَاؤُكَ فِيـــكَ وَ مَـــا تَشْـــعُرُ وَدَاءُكَ مِنْـــكَ وَمَـــا تُبْصِـــرُ
وَتَحْسَـبُ أَنَّـكَ جِـرْمٌ صَـغِيرٌ وَفِيـكَ انْطَـوَى العَـالَمُ الاَكْبَرُ
وَأَنْـتَ الكِتَـابُ المُبِـينُ الَّـذِى بِـأَحْـرُفِـهِ يَظْهَـرُ المُضْمَـرُ
فَـلاَ حَـاجَـةَ لَكَ فِـى خَـارِجٍ يُخَبِّـرُ عَنْـكَ بِمَـا سُـــطِّرُ[2]

وقـد كشـف أمـيرالمؤمنين عليـه السـلام عـن هـذه الحقيقـة فى مواضـع عديدة من « نهج البلاغة » ؛ فمرّة يقول :

إنَّ أَوْلِياءَ اللهِ هُمُ الَّذِيـــنَ نَظَـرُوا إلَـى بَـاطِنِ الدُّنْيَـا إذا نَظَـرَ النَّـاسُ إلَـى ظَاهِـرِهَـا ؛ وَاشْـتَغَلُوا بِآجِـلِهَا إذَا اشْـتَغَلَ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا . فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشُوا

١- يقـول : ثمّ انظـر إلى أجـرام العنـاصر ـ وهـى المـاء والنـــار والهـــواء والـــتراب إن لحظتـــها كان كلٌّ منها دليلاً ظاهراً باهراً .

ثمّ يـأتى بعـد العنـاصر جـــرم المواليـــد الثلاثـــة ـ وهـــى النبـــات والجمـــاد والحيـــوان وهـــذه الآيات لا يمكن لاحد عدّها وحصرها .

ثمّ نزلـت أخـيراً النفـس الإنسـانيّة فكـان ختـــم القـــرآن بالنـــاس . (بســـورة النـــاس وبلفـــظ الناس) » .

٢ـ « الديوان المنسوب لامير المؤمنين عليه السلام » قافية الراء ، صفحاته غير مرقّمة .

أنْ يُمِيتُهُمْ ؛ وتَرَكُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنَّهُ سَيَتْرُكُهُمْ ؛ وَرَأَوْا اسْتِكْثَارَ غَيْرِهِمْ مِنْهَا اسْتِقْلاَلاَ ؛و دَرَكَهُمْ لَهَا فَوْتاً . أَعَداءُ مَا سَالَمَ النَّاسُ ؛ وَسِلْمُ مَا عَادَى النَّاسُ ! بهمْ عُلِمَ الكِتَابُ ؛ وَبِهِ عُلِمُوا ؛ وَبِهِمْ قَامَ الكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا . لاَ يَرَوْنَ مَرْجُوّاً فَوْقَ مَا يَرْجُونَ ؛ وَلاَ مَخُوفاً فَوقَ مَا يَخَافُونَ .[1]

وفى مسألة تحكيم الحكمين فى صفّين يقول :

وَإنَّ الكِتَابَ لَمَعِى . مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ . وذلك فى خطبة طويلة خطبها على جيش الخوارج حين أصرّوا على إنكارتحكيم الحكمين ،يصل فيها إلى القول :

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمْ المَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً ، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً : إخْوانُنَاو أَهْلُ دَعْوَتِنَا اسْتَقَالُوا وَاسْتَرَاحُوا إلَى كِتَابِ اللَهِ سُبْحَانَهُ ، فَالرَّأْىُ القَبُولُ مِنْهُمْ ، وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ ؟

فَقُلْتُ لَكُمْ : هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إيمَانٌ ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ .و أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ . فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ وَالْزِمُوا طَرِيقَتَكُمْ ، وَعَضُّوا عَلَى الجِهَادِ بنَوَاجِذِكُمْ . وَلاَ تَلْتَفِتُوا إلَى نَاعِقٍ نَعَقَ ! إنْ أُجِيبَ أَضَلَّ ، وَإنْ تُرِكَ ذَلَّ .

وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الفِعْلَةُ ، وَقَدْ أَيْتُكُمْ أُعْطَيْتُمُوهَا . وَاللَهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَىَّ فَرِيضَتُهَا ؛ وَلاَ حَمَّلَنى اللَهُ ذَنْبَهَا .

و وَاللَهِ إنْ جِئْتُهَا إنِّى لَلْمُحِقُّ الَّذِى يُتَّبَعُ . وَإنَّ الكِتَابَ لَمَعِى ، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ الخطبة .[2]

إلى هنا ، نرى أنّ الإمام يعتبر نفسه مع كتاب الله لا ينفكّ عنه لا يفارقه

١ـ «نهج البلاغة» ج ٢، ص ٢٣٧، الحكمة ٤٣٢ ، طبعة مصر .

٢ـ «نهج البلاغة» ج ١، ص ٢٣٦، الخطبة ١٢٠، طبعة مصر . بتعليق محمّد عبده .

فى أىّ مرحلة من مراحله النفسيّة ، وأنّ حقيقة هـذه المقالـة ولبّـها هـى إحاطتـه النفسيّة للكتاب الإلهىّ .

وفى الآية المبحوثة : قَدْ جَآءَكُمْ مِنَ اللَّـهِ نُـورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِـينٌ يَـهْدِى بـهِ اللَّهُ مَـن اتَّبَـعَ رِضْوَنَـهُ ؛ إذا مـا اعتبرنـا المـراد بـالنور هـو القـرآن ، واعتبرنـا الكتاب المَبين عطفـاً تفسـيريّاً لـه ، أو إذا أخذنـا بالاحتمـال الآخـر الـذى ذُكـر بقرينة الآية السابقة عليها ، فإنّ المراد بالنور هو رسـول اللـه ، والكتـاب المبـين هو أيضـاً عطـف تفسـيرى ّعليه ؛ ففـى كـلا الحـالتين لا يمكـن إرجـاع الضمـير المفرد فى بهِ فى التعبير يَهْدِى بهِ إلى النور أو الكتـاب ، إذ لابـدّ مـن إرجاعـه إلى جامع ذلكَ ، أى المفهوم الجائىّ المستخرج مـن كلمـة قَدْجَـآءَكُمْ ، كـأن نقـول : أَعْطَيْـتُ زَيْـدَاً القَلَـمَ وَالقِرْطَـاسَ لِيَكْتُـبَ بـهِ ، أى ليكتـب بمـا أعطيتـه ، أى الجامع بين القلم والقرطاس .

وفى الاحتمال الثانى ، حيث المـراد مـن النـور رسـول اللـه ، فينبغـى أن يكون المراد مـن كِتَـابٍ مُبِـين عطفـاً تفسـيرياً أيضـاً ، أى لَنّ رسـول اللـه هـو الكتـاب المبـين الإلهـىّ ، وَيكـون البـارى المتعـال قـد عـبّر هنـا عـن شـخص رسول اللـه بعنوان كِتَاب مُبين .

أمّا إذا كان المـراد مـَن النـور رسـول اللـه والمـراد مـن الكتـاب القـرآن الكريم فهذا خلاف الظاهر ، مع أنّنا لن نواجه عندئـذٍ مشـكلةً مـن جهـة إرجـاع ضمير بهِ إلى الجامع .

أَجل ، كان هذا بحثاً عـن الصفـة الثانيـة الـتى ذُكـرت للقـرآن الكـريم فى الآية الشريفة السالفة .

أمّـا الآثـار الثلاثـة الـتى ذُكـرت لـه فـهى أوّلاً : الهدايـة الإلهيّـة للنـاس بواسطة القرآن إلى سبل السـلام والنجـاة : يَـهْدِى بـهِ اللَّـهُ مَـن اتَّبَـعَ رِضوَنَـهُ و سُـبُلَ السَّـلاَمِ . فاللـه سـبحانه وتعـالى يهدى الناسَ بوسـيلة القرآن وسـببه إلى

سبل النجاة ، وكانت الباء فى يَهْدِى بِهِ للآلة ؛ أى أنّه يهدى بسببٍ وآلةٍ هى القرآن ، كما فى كَتَبْتُ بالقَلَم .

ومعلوم أنّ جميع الاَسباب تحت إرادة ومشيئة الحقّ تعالى مسبّب الاسباب ، فالقرآن إنّما هو وسيلة للهداية الإلهيّة ، وسيلة لا استقلال لها فى العمل ، بل هى محكومة تابعة لامر الحقّ تعالى . وهذه الهداية الإلهيّة إلى سُبل السلام ـ كما فى هذه الفقرة من الآية ـ تنحصر فى الأفراد الفائزين برضا الله التابعين سبل نيل رضوانه وقبوله ، لا أن تعمّ هدايته الناس بلا قيد أو شرط .

أى أنّ القرآن ليس كتاب هداية لمن لا يسعى فى تحصيل رضا الله ويسلك طريق القربة إليه ، وهى نكتة فى غاية الاهمّيّة ، وحاصلها أنّ القرآن لا يسوق الناس قهراً واضطراراً إلى سبيل الهداية ، بل إنّه يهدى ويرشد ويوصل إلى الغاية من كان بصدد تهذيب نفسه وتزكيتها .

إنّ جميع الأنبياء والمرسلين وكلّ الكتب السماوية المنزلة لم يكونوا ليسعوا إلى تغيير ماهيّات الناس وسوقهم للانقياد بالإكراه والإجبار ، ولو حصل ذلك لفقد التكليف معناه ، ولما كان للجنّة والنار ، والملك والشيطان ، والنفس المطمئنّة الملهمة والنفس الامّارة ، والسعادة والشقاء أى معنىً ومفهوم .

فالإنسان ـ إذاً ـ يمتلك إختياراً فطريّاً متأصّلاً فى سجيّته ، معجوناً فى جبلّته ، ينشأ منه طريق السعادة والشقاء ، فيصبح به شكوراً أو كفوراً :

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا .[1]

وأعجب من ذلك ! أنّ القرآن الكريم لا تنعدم فيه خاصيّة الشفاء

١ـ الآية ٣، من السورة ٧٦: الإنسان .

والرحمة فحسب ـ حين يتعلّق الأمر بالظالمين بل إنّه يتحوّل إلى كتاب خسران وضرر ، وسيزيد فى تمرّدهم وجرأتهم على العصيان ، وسيسوقهم سريعاً ـ لهذا إلى جهنّم زمراً :

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّـٰلِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا . [١]

الم * ذَ لِكَ الْكِتَـٰبُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . [٢]

تتمثّل أهمّيّة هذا المطلب فى كيفية كون القرآن كتاب ـ الذىأُرسل إلى جميع أفراد البشريّة إلى قيام الساعة ـ سبباً للرحمة لقومٍ وللنقمة لآخرين ؟!

و يتّضح هذا المعنى بالإمعان فى الآيات القرآنيّة التى وصفت القرآن وعرّفته ، ذلك لأنّه ليس كتاباً مجازيّاً أو كتاب ترف وطقوس ومراسم يسعى على أساس الخيال ليقبل الناس من شتّى الاصناف والطبقات بأىّ شكل وعنوان ، وأن يُمضى أعمالهم ويقرّها ، بل هو الفرقان الذى يفصل بين الحقّ والباطل : شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ . [٣]

وهو الفاصل والمفرّق بين سبيل السعادة وطريق الشقاء ، وبين النور والظلمة ، وهو الحادّ بين الحقيقة والمجاز ، والواقع والاعتبار : إِنَّهُ و لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ . [٤]

---

١ ـ الآية ٨٢، من السورة ١٧: الإسراء .

٢ ـ الآيتان ١ و ٢، من السورة ٢: البقرة .

٣ ـ الآية ١٨٥، من السورة ٢: البقرة .

٤ ـ الآيتان ١٣ و ١٤، من السورة ٨٦: الطارق .

وغليه ، فهو المبيّن الصريح للصراط المستقيم ، ولسبيل الإنسانيّة الحقّة ، ولانتهاج طريق التوحيد ، وللخروج من تسلّط هوى النفس ، وهو الغذاء الروحى للذين يتلقّون تلك المطالب بانشراح صدر ويَقْفُون سبيلها ، يمنحهم القوّة والقدرة على الدوام ليبلغوا غايتهم فى السعادة المطلقة .

أمّا المعرضون عن قبول أحكام القرآن ومعارفه وتعاليمه ، الخاضعون لهوى أنفسهم والمعرضون عنه ، فإنّ شقاءهم وتعاستهم نتيجة هذا الإعراض ستتّضح وتظهر ، ومكنونات أنفسهم ستبدو للعيان أوضح وأجلى ، وإصرارهم على الظلم والاستكبار والتجرّى سيزداد ، ممّا يعقبهم زيادة فى الخسران . لقد شاءوا بمحض إرادتهم عدم متابعة النبى صلّى الله عليه وآله وسلّم والإيمان به ، وأبوا أن يهاجروا من أنفسهم إلى دار الإسلام والتوحيد ، وأن يردوا فضاء المعرفة الواسع الفسيح :

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالاْخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى' قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ و وَلَّوْا عَلَى أَدبَـ'رِهِمْ نُفُورًا .[1]

فمن أين يتأتّى لأُولئك الذين ظلّوا حبيسى أسوار المال والجاه والهوى والشهوة والغرور والأُمور التافهة الأُخرى منكبّين لا يُقلعون ، لكى ينساقوا لمتابعة رسول الله حين كان يتلو القرآن مشيراً إلى فضاء فسيح ولطيف من حدود الإنسانيّة والارتباط بالله والفناء فى ذاته و هو مستغرق فى ذلك العالم ؟!

لذا ، يقبعون المادّة و تقبعون فى سجنها الضيِّق المُظْلِم .

لقد كان النبىّ الأكرم يحلّق فى الفضاء الأقدس ، تعرج به آيات القرآن

---

١ ـ الآيتان ٤٥ و ٤٦، من السورة ١٧ : الإسراء .

إلى عالم الاسماء والصفات الإلهيّة اللامتناهى ، وتحلّق به همّته المتعالية بعيداً فى أعلى أجواء المعرفة والصفاء والنور ؛ فكيف سيمكن لهذا المسكين الحبيس فى بئر الهوى والهوس ، المتخبّط فى شراك الأباطيل والشيطنة ، أو لتلك الذبابة قصيرة النظر ، قصيرة الطيران ، سريعة الأذى والتعب ، أن تحلّق إلى ذلك المكان الفسيح أو ترقى لتلك الذروة المنيعة ، أو تنال تلك القمّة الرفيعة ؟!

وهذا هوالحجاب الصلد ، والسدّ الحديدى بين العامل بالقرآن وتاركه ، الذى سيوجد فيحجب شاء المرء أم أبى .

فالمؤمن دوماً فى عروج ارتقاء ، ومَن لا يؤمن بالآخرة ، ممّن لايتجاوز ظاهر الحياة الدنيا ، ويفهم العيش واللذة فى الإطار الضيّق لأسوار الهوى والمادّة وسراديبها المظلمة ، فهو فى حال سقوط وتردٍّ أبدى :

يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْاٰخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ .[1]

إنّ هؤلاء يخسرون دوماً صفاتهم الإيجابيّة ، ويغيّرون الثروات والنِّعَم الإلهيّة من العمر والحياة والعقل والقدرة ، ويستبدلونها بلذّات متغيّرة فانية ، فهم فى حال هبوط دائمىّ فى درك النفس ونار جهنّم وعذاب الجحيم .

فأىّ حجابٍ أشدّ من هذا ؟ وأىّ سدّ وحاجز أقوى وأكثر إحكاماً ؟

إنّهم يخافون كلمة اللهُ أَكْبَرُ وعبارة لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللَهُ فيهربون منها ، لأنّهم يكرهون أن يصف النبىّ ربّه بالوحدانيّة ، وكلّما ورد فى القرآن التوحيد فوصف الخالق به ، وبالتفرّد فى الذات والصفة والفعل ، وقيل إنّ كلّ الأمر والنهى ، والحكم والطاعة كلّها للّه وحده ، ولّوا علىأدبارهم نفوراً من كلمات الحقّ الصادعة هذه.وذلك لانّهمقد اتّخذوا أرباباً من دون اللهمن أب وأُمّ وشريك

١ ـ الآية ٧، من السورة ٣٠: الروم .

ورفيق ، وزوجة وابن ، وحاكم ومحكوم ، وراعٍ ورعيّة ، وثروة وتجارة وزراعة ، وحرفة وصنعة ، و ... كلّ هذه آلهتهم وأربابهم ، فكيف سيتأتّى لهم أن يعرضوا صفحاً عن آلهتهم هؤلاء ، وأن يسدلوا عليهم ستار النسيان ، ليؤمنوا بكلّ وجودهم باللـه الواحد القهّار؟!

كيف يمكنهم تجاهل نوازعهم النفسيّة ، وطموحاتهم اللا مشروعة ، وآمالهم المتعارضة مع الإنسانيّة ، الهادمة صرحها والمستأصلة جذورها ، لكى يصبحوا تابعين طيّعين يعملون طبقاً لتعإليم القرآن الكريم بالعدل والقسط فى المجالات الفرديّة والاجتماعيّة ؟

لكلّ هذا ، لم يكن هؤلاء ليقبلوا تعإليم الإسلام القائمة على أساس الوحدة التى لا تتساوق مع الحياة الشيطانيّة ، ولا تنسجم والقصور القائمة فى دنيا الخيال والوهم وعشق المجاز .

فالقرآن كتاب حقّ ، يدعوهم إلى الحقّ ، وهم يصرّون على الباطل ، بل يقولون جهاراً : بدّل قرآنك هذا ، أيّها النبىّ ، أوِ ائتنا بغيره ينسجم وهوى أنفسنا ، ويقرّنا على تجاوزاتنا ، ويتركنا أحراراً مطلقى العنان فى تحقيق رغباتنا .

ائتِ بقرآنٍ يقيم وزناً لوجهائنا وكبرائنا ويميّزهم ، ولا يجعل الغنىّ والفقير فى المعاملة على حدٍّ سواء .

ائت بقرآن يجعل الناس يهوون سجّداً على أعتاب قصورنا ، يديم هيمنتنا وتسلّطنا على رقاب الضعفاء .

ائت بقرآن لا يدعونا إلى الصلاة والتضرّع ، ولا يأمرنا بالصوم والحجّ والجهاد ، ولا يسألنا الإنفاق والإيثار وبذل الاموال ، بل يرخى لنا العنان فى ركوب الشهوات ، والاعتداء على أعراض الناس ونواميسهم ، واغتصاب حقّ ذوى الحقوق ، وسلب أتعاب الضعفاء والمساكين ، وفى معاقرة الخمرة

والكذب والقمار والرشوة .

وباختصار ، فإنّنا نريد أن تأتينا بقرآن يكفل رغباتنا النفسيّة ، ويُشبع نوازعنا فى الإسراف والتبذير ، لا أن يحدّ ويقيّد تبعيّتنا لاهوائنا النفسيّة ، أو يضع الحواجز الرادعة أمام ما ينتابنا من نوازع وهواجس .

وَإِذَا تُتْلَى' عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَيَرْجُونَ لِقَآئَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ [١] قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُ ومِن تِلْقَآىءِ نَفْسِىٓ إِن أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى' إِلَى إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم * قُل لَّوْ شَآءَ اللَهُ مَا تَلَوْتُهُ وعَلَيْكُمْ وَلاَأَدْرَبكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . [٢]

١ـ نورد هنا مطلباً نقله عن الشيخ محمّد عبده المرحوم الشيخ محمود أبو ريّة العالم المصرىّ المنصف المتبصّر فى كتابه النفيس : «أضواء على السنّة المحمّديّة» ص ٤٠٥ و ٤٠٦، الطبعة الثالثة ، حيث يقول :

وقال الأُستاذ محمّد عبده رضى الله عنه : إنّ المسلمين ليس لهم إمام فى هذا العصر غير القرآن ، وإنّ الإسلام الصحيح هو ما كان عليه الصدر الاوّل قبل ظهور الفتن .

وقال رحمه الله : لا يمكن لهذه الأُمّة أن تقوم ما دامت هذه الكتب فيها (يعنى الكتب التى تدرّس فى الازهر وأمثالها) ولن تقوم إلاّ بالروح التى كانت فى القرن الاوّل وهو «القرآن» وكلّ ما عداه فهو حجاب قائم بينه وبين العمل والعلم .

وقال رحمه الله فى تفسير سورة الفاتحة : إذا وزنّا ما فى أذهاننا من الاعتقاد بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها أوّلاً فيه ، يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالّين ، وأمّا إذا أدخلنا ما فى أذهاننا فى القرآن وحشرناها فيه أوّلاً ، فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال ، لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدرى ما هو الموزون من الموزون به أريد أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء فى الدين ، لا أن تكون المذاهب أصلاً والقرآن هو الذى يحمل عليها، ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها ، كما جرى عليه المخذلون ، وتاه فيه الضالّون ـ انتهى .

١ـ الآيتان ١٥ و ١٦ : من السورة ١٠ : يونس .

قُل لهم أيّها النبىّ : إن القرآن كتاب التوحيد الذى جاء ليجتاز بكم مرحلة البهيميّة إلى أُفق الإنسانيّة المشرق الوضّاء ، وهو كتابٌ أرسله الله ، لم يكن من صنع يدى أو من بنات أفكارى ، لم أئت به من عند نفسى أو أنشأه وفق رغبتى كى أُغيّر فيه برأيى وذوقى ، بل إنّ قلبى كالمرآة مقابل أنوار الحقّ تعالى ، يوحى إليه ما يشاء ، ولو عنّ لى مخالفة ، مهما صغرت ، لمسّنى فى ذلك العذاب الإليم . ودليلى الواضح على صدق دعواى هذه عيشى فيكم أربعين سنة أُعاشركم وتعاشرونى ، لم تعهدوا عنّى طيلتها جملةً من كلامٍ كهذا . فاعلموا ، إذَن ، أنّ القرآن ليس من كلامى ، بل هو وحى الله الذى نزل وأُمرت بتلاوته عليكم وتبليغه لكم .

فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ و لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَـٰلَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الاْقَاوِيلِ * لاَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ * وَإِنَّهُ و لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ .[1]

والخلاصة فقد ظلّ عدّة لا يُقلعون عن متابعة هوى النفس الامّارة ، ولا ينقادون للآيات القرآنيّة الكريمة ، لتسلّط الغرائز الشيطانيّة والملكات ، الموروث منها والمكتسب بالتربية ، وهولاء وأمثالهم لا يزيدهم عرض القرآن عليهم إلاّ إصراراً على الجحود والإنكار ممّايتمّ الحجّة عليهم ويعقبهم شقاءً وخسراناً ، وهو معنى زيادة الخسران وَلاَ يَزِيدُ الظَّـٰلِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً.

بَيدَ أنّ عدّة أُخرى امتلكت الروح الطاهرة النزيهة ، والغرائز الرحمانيّة ، والملكات الحسنة الموروثة ، والتربية الصالحة ، فسمت فوق

١ ـ الآيات ٣٨ إلى ٤٨، من السورة ٦٩ : الحاقّة .

كلّ إنّيّاتها وشخصيّاتها فقادتها فى طريق الحقّ ، مسلمة منقادة لاوامر الله فى قرآنه الكريم ،أُولئك الذين تترك الآيات الإلهيّة فى أنفسهم وأرواحهم دوماً بصماتها الإيجابيّة ، فيقوى بها الإيمان وتسعد بها الارواح ؛ وهذا هو معنى الشفاء والرحمة الخاصّة بالمعتقدين بالقرآن : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُ و زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .[١]

ولهذا فقد كان المؤمنون يتساءلون بينهم فى حياة رسول الله حين تنزل عليهم آية : ما مدى تأثيرها عليكم ؟ وكم زادت من إيمانكم ؟

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَـٰفِرُونَ .[٢]

إنّ مثل القرآن كالشمس الساطعة المتألّقة ، تشرق فتملا الفضاء نوراً وحرارة ، ويصل نورها وحرارتها الارض فيغترف منهما كلّ موجود ما يقوّى به ذاته وطينته .

وحين تحزم الشمس أمتعتها وترحل عن نصف الكرة الارضيّة ، مختفيةً وراء الأُفق ، فلن يتضوّع عندئذٍ عبير الأزهار ، كما لن تفوح الروائح الكريهة الخبيثة للنجاسات والاقذار المتعفّنة . أمّا حين تعود الشمس فتطلع ، وتلامس بنورها ودفئها الزهور الغافية ، فستتفتّح البراعم فى حدائق الورد وتعطّر الهواء بعبقها ، وسيمرّالنسيم اللطيف لحدائق الورد تلك على مشام الارواح فيمنحها حياةً جديدة .

---

١ ـ الآية ٢، من السورة ٨ : الانفال .

٢ ـ الآيتان ١٢٤ و ١٢٥، من السورة ٩: التوبة .

وستصل أشعة الشمس ـ من جانب آخر إلى المزبلة فتفوح النجاسات بروائحها هى الأُخرى ، وتملا فضاء المزابل ومستنقعات المياه القذرة بالرائحة الحادّة العفنة .

إذاً ، لم يكن الذنب ذنب الشمس ، إذ الإشعاع والتوهّج من لوازمها ، والإشراق ومنح الدفء والحرارة من آثارها وصفاتها ، بل يكمن الذنب فى الذات الخبيثة لهذه الموجودات التى انطوت على الموادّ المتعفّنة .

فلو لم تشرق الشمس ، ولم تصل الحرارة والدفء ، لما كان هناك أثر لاىّ موجود ، وسيكون الكلّ عندئذٍ بمنزلةٍ سواء ، فلا امتيار للورد على الاقذار ، ولا اختلاف بين روضة الازهار وأتُّون الحمّام !

إنّ المطر الربيعىّ الملىء بالخصب والبركة ينهمر من السماء فتخضرّ له كلّ البذور فى الارض ، بذور الثمار الحلوة اللذيذة وبذور الحنظل المرّ ؛ وليس فى طبع المطر انتخاب القبح والرداءة ، والمرارة والرائحة السيّئة للنباتات والاوراد والثمار والبذور ، فهو يصبّ رحمته سواءً دفعة واحدة على أرض الله الواسعة ، فتنمو هنا وردة ويطلع هناك علف وحشائش ، وتكبر فى جهةٍ شجرة خضراء يانعة وتشتدّ فى أُخرى أشواك المغيلان المؤذية ؛ وتستفيد من لطافته البلابل وطيور الكنارى فى ناحية ، وتستفيد منه الافاعى والعقارب والزنابير اللاسعة فى ناحية أُخرى .

باران كه‌درلطافت طبعش خلاف نيست

درباغ لاله رويد و درشوره‌زارخس [1]

---

١ ـ «گلستان سعدى» ، وترجمة الشعر هى : «أنّ المطر الذى يتّفق الكلّ فى لطافة طبعه قد أنبت فى الحدائق أزهار الزنبق ، وأخرج فى الارض السبخة الحشائش والاشواك» .

وقد ورد البيت فى مجموعة « كليّات سعدى » الطبعة الحجريّة ، ذات الصفحات

إنّ الاوراد العطرة والثمار الحلوة تتبدّل فى فم النحلة إلى العسل ، فى حين تتحوّل فى فم الافعى إلى سمّ زعاف قاتل ؛ والغذاء الصحيح يُهضم فى معدة إنسانٍ معافى فيصير سكّراً فى الدم يمثّل مادّة حيويّة ، لكنّه يستحيل نفسه فى بدن مريض بالحصبة إلى مادّة سامّة قاتلة .

وعلى هذا القياس فإنّ ما يصل من القرآن هو محض الرحمة ؛ فتتبدّل بركته وعافيته ونور هدايته فى نفس المؤمن إلى انشراح وسعة وتجرّد ونور ، وتستحيل فى نفس الكافر المعاند إلى أهواء ضالّة وأفهام وآراء زائغة .

لقد قسّم القرآن حين نزوله البشر إلى صنفين : أصحاب إليمين (السعداء)، وأصحاب الشمال (الاشقياء التعساء)، مؤمن وكافر ، من أصحاب الجنّة ومن أتباع الجحيم ، موحّد ومشرك ، عادل وفاسق ، مُتّق ومنحرف ؛ تشخّص هؤلاء وتميّزوا على إثر إبلاغ القرآن ، وهذا هو معنىً فصل القرآن وفرقانه الذى لا يبقى مجالاً لاحد ليدّعى ادّعاءً فارغاً ، أو أن يضع المنحرفون والمتجاسرون أنفسهم فى مصاف أولياء الله ويعتبرون أنفسهم على أنّهم النخبة والصفوة فى العالم .

نقرأ فى مطلع سورة البقرة :

الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ

غير المرقّمة بخطّ على أكبر التفرشىّ ،شعبان المعظّم ، سنة ١٢٦٠ هـ ؛ وفى «گلستان سعدى» ضمن مجموعة «كليّات سعدى» ص٢٠، طبعة فروغى ، والبيت الذى يسبقه هو :

شمشير نيك از آهن بد چون كند كسى ناكس به تربيت نشود اى حكيم كس

يقول : «أيمكن لاحد أن يصوغ من الحديد الردىء سيفاً ممتازاً ؟ فالامر كذلك ـ أيّها الحكيم بالنسبة إلى الشخص الوضيع ، إذ لا يُصبح بالتربية فاضلاً» .

أُنزلَ إلَيكَ وَمَآ أُنزلَ مِن قَبْلِكَ وَبـالاْخِرَةِ هُـمْ يُوقِنُـونَ *أُولَـ'ءِكَ عَلَـى' هُـدًى مِن رَّبِّهِمْ وَأُولَـ'ءِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . [١]

ومن هنا نرى أنّه قـد دعـى القـرآن بكتـاب هدايـة المتقـين ودلالتـهم إلى الغاية :

طَه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى' * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى' . [٢]

فَذَكِّرْإِنَّمَآ أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ . [٣]

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى' تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ . [٤]

فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ . [٥]

فَاصْبِرْإِنَّ وَعْدَ اللَهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ . [٦]

كان هذا بحثاً عن تفسير عبارة يَـهْدِى بـهِ اللَـهُ مَـن اتَّبَـعَ رِضْوَانَـهُ، وقـد أصبح واضحـاً أنّ الهدايـة القرآنيّـة تختـصّ بأَصحـاب هـذا المعـنى ، أىأُولئـك الذين هم فى صدد كسب رضا الخالق الحقّ جلّ وعزّ .

واعلـم ! أنّ هدايـة القـرآن لهـذه المجموعـة إنّمـا هـى إلى سُـبل السـلام والنجاة : يَهْدِى بِهِ اللَهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ و سُـبُلَ السَّلَـ'مِ . وعلينـا أن نعـرف مـا معنى السلام ؟ وسبل السلام ؟ وكيف يهدينا القرآن لتلك السبل ؟

من الواضح أنّ السبل التى تربـط أفـراد البشـر باللـه تعـإلى ليسـت مـن جنس الطـرق والسـبل الطبعيّـة والطبيعيّـة الموجـودة فى الخـارج ، بـل هى سُبل

١ ـ الآيات ١ إلى ٥ ، من السورة ٢: البقرة .
٢ـ الآيات ١ إلى ٣، من السورة ٢٠: طه .
٣ـ الآيتان ٢١ و ٢٢، من السورة ٨٨ : الغاشية .
٤ ـ الآية ٥٥ ، من السورة ٥١ : الذاريات .
٥ ـ الآية ٤٥ ، من السورة ٥٠ : ق .
٦ ـ الآية ٦٠ ، من السورة ٣٠ : الروم .

نفسيّة وروحيّة ؛ فكلّ شخص له فى أعماقه ونفسه سبيل إلى الله ، وهذه السبل كثيرة تتعيّن وتتشخّص تبعاً لفطرة الإنسان وجبلّته وخلقه وإرادته واختياره التى يمارس بها أعماله ، فكما تختلف الابدان والاجسام الطبيعيّة للناس بعضها عن البعض الآخر ، فإنّ نفوسهم هى الأُخرى مختلفة متباينة ، وكما نعجز أن نجد فى العالم كلّه من عصر آدم إل؟ يوم القيامة فردين متماثلين متطابقين فى البناء الجسمىّ ، من شكل وشمائل ووجه ووزن ومقاييس وسائر الجَهات الطبيعيّة ، فسنعجز أيضاً أن نجد فردين يتماثلان ويتطابقان فى جوانب الاخلاق والصفات والغرائز والملكات من جميع جوانبها .

لذا فإنّ النفوس تختلف بعضها عن البعض الآخر ، لانّ اختلاف الاخلاق والصفات ، بل وتباين الاجساد والابدان ، إنّما ينشأ من اختلاف النفوس ، وبعبارةٍ أُخرى فإنّ لكلّ شخص شاكلةً وخصوصيّات صِيغت تبعاً لها نفسُه ومثاله وذهنه وبدنه ، وأوجب هذا الامر ـ من ثمّ اختلاف النفوس فيما بينها .

وقد علمنا أنّ السبيل إلى الله ينبغى طيّه من قبل النفس ، فتوجّب أن تكون الطرق والسبل إلى الله بعدد نفوس الخلائق أى أنّ كلّ فرد من أفراد البشريّة مِنْ آدَم إلى الخاتم ، من الخاتم إلى يوم القيامة له إلى الله سبيل يختصّ به ، لايشركه فيه غيره .

وإلى هذا أشارت الرواية التى وردت عن النبىّ الاكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم : الطُّرُقُ إلَى اللَهِ بعَدَدِ أنْفَاسِ الخَلاَئِق . [١]

لكنّ هذه الطرق تكَوينيّة ، أى أنّها طَرق وضعت وأقرّت على أساس

١ ـ «جامع الاسرار» للسيّد حيدر الآملىّ ، ص ٨ و ٩٥ و ١٢١.

الفطرة والخلقة ؛ ولانّ النفوس كانت فى حالة من الإبهام والبساطة ، وعليها أن تطوى طريق الله بالتربية والتزكية ، أى أنّ عليها من الناحية التشريعيّة أن تهذّب هذه الطرق النفسيّة وتصقلها بالمجاهدة والرياضة ، وأن تخطو خطوات فى طريق تكاملها الفعلىّ ، وتصل من مرحلة القابليّة والاستعداد إلى مرحلة ومقام الفعليّة ، لذا فإنّ ما يؤثّر على مسيرة تربيتها وتكاملها له عنوان السلام .

وقد كان عليهم أن يتحاشوا الصفات التى تضرّهم فى الدنيا والآخرة وتحشرهم فى دائرة الاضطراب والقلق النفسىّ ، ليدخلوا فى السلام والسلامة ، ويستفيدوا من نفوسهم على النحو الاحسن ، ويبقوا مصونين من أذى وسوسة شياطين الجنّ والإنس ،ويصلوا إلى حيث منزل الامن والأمان والراحةوالاستقرار .

سبيل السلام هو طريق تقويم الغرائز والصفات الإنسانيّة وتصحيحها وهو الطريق الوسط بين طريقى الإفراط والتفريط .

سبيل السلام : تحكيم القوى الفطريّة والعقليّة وتغليبهما على القوى الواهمة والقوّة الشهويّة والقوّة الغضبيّة .

سبيل السلام : السيطرة على النفس الامّارة وتطويعها وكبح جماحها ، ثمّ استخدامها فى متابعة الاوامر الحقّة الصحيحة النابعة من التدبّر والتفكير وسيطرة العقل والإدراك .

سبيل السلام : طريق الوحدة والورود فى عالم الانوار ، والخروج من الكثرة والاعتبار والاوهام .

سبيل السلام : هو الخروج من النفس وآثارها ، والورود فى حرم العزّ الكبريائىّ ، وحريم الامن والامان الإلهىّ .

سبيل السلام : طريق العبور من النزاعات والمحن والضربات القارعة

المدمّرة التى تواجه كلّ فرد ، والدخول فى عالم السلام الذى هو اسم من الاسماء الكلّيّة الإلهيّة .

سبيل السلام : طريق الدخول والفناء فى صفة واسم السلام الذى هو من الاسماء الجمالية للحضرة الاحديّة .

هُوَ اللَهُ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَهُ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ وَمَا فِى السَّمَاوَتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . [١]

وقد ذُكر اللَه تعالى فى هذه الآيات باسم السلام ، وعدّ هذا الاسم من الاسماء الحسنى .

وورد فى الدعاء : اللَهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ ، وَمِنْكَ السَّلاَمُ ، وَإِلَيكَ يَعُودُ السَّلاَمُ ، حَيِّنَا رَبَّنَا مِنْكَ بِالسَّلاَمِ الدعاء . [٢]

نعم ، إن السلام اسم من أسماء اللَه تعالى ، والدعاء بالسلام إنّما هو طلب ورجاء منه أن : يا إلهى ّ أدخلنى ـ أو مخاطَبى بالسلام فى عالم السلام الذى هو اسمك .

وكما أنّ لكلٍّ من الاسماء الإلهيّة عالم خاصّ وآثار وعلائم وميزات خاصّة به ، فإنّ اسم السلام له أيضاً أثره وخاصيّته ، وهى السلامة من جميع

١ ـ الآيات ٢٢ إلى ٢٤، من السورة ٥٩ : الحشر .

٢ ـ فقرة من دعاء ورد بعد زيارة الإمام صاحب الزمان أرواحناه فداه فى السرداب المطهّر ، رواه المجلسى ّ رضوان اللَه عليه فى كتاب «مزار البحار» ج ٢٢، ص ٢٥٧، طبعة الكمبانى ّعن السيّد بن طاووس أعلى اللَه مقامه .

الجهات والنجاة من وساوس شياطين الجنّ والإنس والابالسة المغوين المضلّين الذين يثيرون القلق والاضطراب ويجعلون الأُفق يبدو مكفهرّاً مظلماً ؛ والدخول فى السلامة والنجاة المحضة ، ونيل راحة البال وهدوء الخاطر ونيل مقام الاطمئنان والوصول إلى السكينة الإلهيّة التى هى لازمة التوحيد ومعرفة الله ولا تنفكّ عنه .

ولا نّنا بحثنا هذه المسألة فى موضوع معرفة المعاد ، [1] فلا نطيل ، ونعرض هنا لنماذج من آيات القرآن التى يقود العمل بها إلى السلام والسلامة ويستتبع ورود عالم السلام ، أو فى الحقيقة دخول سبيل السلام ، كمثالٍ لتعريف سبل السلام :

لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدَهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا * رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلأَوَّبِينَ غَفُورًا . [2]

فهو يشير فى هذه الآيات إلى سبيل من سبل السلام ، وهو احترام الابوين وإكرامهما فى سنّ الكهولة ، وفوق ذلك فى سنّ الهرم حين يبدأ التهالك والضعف بالهجوم على بدنيهما إثر الشيخوخة والهيمنة التدريجيّة لجيوش الموت وعساكره ، وربّما سيبدر منهما فى تلك السنّ ـ بلا قصد الكلام

---

١ ـ «معاد شناسى» (= معرفة المعاد) من سلسلة علوم ومعارف الإسلام ، ج١٠، المجلس ٦٩ .

٢ ـ الآيات ٢٢ إلى ٢٥، من السورة ١٧ : الإسراء .

الخشن والعبارات غير الجميلة المسبّبة عن الإرهاق وعدم تحمّل المشاكل والمزعجات من الأُمور .

ويصدر القرآن هنا تعاليمه فيأمر الولد أن يبّر والديه ويعاملهما بغاية الاحترام والادب ، وببذل المساعى الجميلة فى تأمين حوائجهما ، وبخفض جناح الذلّ والخضوع ، بلا إكراه إو إجبار ، ولا لحسابات مصلحيّة أو من باب الاحتياط ، بل لمحض الصدق والإخلاص ، وعين الرحمة والرأفة ، بل إنّ عليه ـ مضافاً إلى تحمّل المشاق من أجلهما ـ أن يدعو لهما بطلب الرحمة والمغفرة من الله تعالى .

ونلاحظ أنّ الإسلام قد اعتبر برّهما الذى يقترن بمجاهدة النفس ورياضتها ، من أهمّ تعاليمه التى جعلها جزءاً من الوظائف العلميّة للإنسان .

إنّ الإنسان يتحمّل المشاق منهما فيظهر من هوى النفس ، ويصبر على ما يكره منهما فيجُزى الأجر الجزيل ، ويكتسب سعه الروح والصدر ، ويرضى والديه فيدعوان له بالخير؛ وسيصبح هذا المجتمع العائلىّ الصغير من الأبوين والأولاد مركزاً للمحبّة والإخلاص ، فالابن يبرّ والديه ويسعى فى خدمتهما ، وهما المحبّان اللذان يلهجان له بالدعاء ، حتّى تذوى حياتهما وتنطوى شيئاً فشيئاً فيُودعان الثرى باعزاز واحترام ودعاء لهما بالغفران ، ثمّ تمضى الحياة فيصبح الأبناء أنفسهم آباءً وأُمّهات ، ثمّ يضعفون ويهرمون فيعاملهم أبناؤهم بما عاملوا به والديهم .

بكاشتند و بخوردیم و کاریم وخورند

چونیك بنگری همه برزیگران یکدگریم [1]

لكنّ الثقافة الضالة والحضارة الغربيّة والشرقيّة لا تقيم و زناً للإنسان

١ ـ يقول : « زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون ، فلو أمعنت النظر منّا لبعضنه مزارع » .

ولا تعترف له بشخصيّة ولا أصالة ، بل هو فى نظرها ليس إلاّ وسيلةً من وسائل العمل ، وأداةً للحصول على المقاصد الماديّة والموارد الاقتصاديّة . [1]

١ـ يقول أحمد أمين المصرىّ فى كتابه «يوم الإسلام» ص ١٧٠ إلى ١٧٣ :

نعم إنّ هناك فروقاً اجتماعيّة كبيرة بين العالم الأُوروبّىّ والعالم الإسلامىّ ، فالعالم الأُوروبّىّ يبنى حياته على العلم والنتائج العلميّة والاستقلال والحرّيّة والابتكار ونحو ذلك ، والعالم الإسلامىّ ينظّم حياته على أساس الاتّكال والخمول والاعتقاد الذى ساء فى القضاء والقدر ويطربه جداً سماع قصص تروى عن غنىّ افتقر أو فقير اغتنى . وشيخ استولى ونحو ذلك . ونحن لا نريد أن يحذو المسلمون حذو الأُوروبّيّين فى كلّ شىء بل نريد أن يحذو حذو الأُوروبّيّين فى العلوم والصناعات بحذافيرها من غير قيد ولا شرط ولكن يحتفظون بروحانيّتهم ونظرتهم إلى العالم نظرة غير النظرة الأُوروبّيّة . فالأُوروبّىّ ينظر إلى الطبيعة كأنّها عدوّ يكافحه ليفشى سرّه ، ولكنّ النظرة الإسلاميّة تنظر للطبيعة على أنّها صديق وأنّها من نتاج الربّ الذى أنتجه .

والأُوروبّيّون يضعون الله كما توضع الصورة الجميلة على الرفّ لا دخل لها فيما يحدث حولها ، والمسلمون يرون الله فى كلّ شىء ، فى الأُمور الدينيّة والدنيويّة معاً ، فإذا باعوا أو اشتروا أو أجّروا أو رهنوا راقبوا الله ، حتّى فى أصغر الاعمال كالاستياك والاغتسال ، وعندهم أنّ النيّة الصادقة أقوم من العمل نفسه وفى حديث رسولهم صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : إنّما الاعمال بالنيّات وإنّما لكلّ امرىءٍ ما نوى. وفرق بين رجلين يعملان عملاً واحداً أحدهما نوى الخير فيما يعمل والآخر لم ينو شيئاً أو نوى الشرّ . فهم يسيرون فى حياتهم الدنيويّة متأثّرين بالدين وليس الدين مقصوراً على العبادات . وهذا ما ينقص الغرب ، فإن وجب على المسلمين أن يقلّدوا الغربيّين فى العلم والصناعات تقليداً تامّاً ويسايروهم ويجروا معهم وجب أن يحفظوا بنظرتهم الدينيّة إل؟ الحياة وهى النظرة التى يتميّزون بها عن الغربيّين ، ولكنّ موضع السوء أنّ كثيراً من المسلمين وخاصّة المتنوّرين منهم يريدون أن يقلّدوهم تقليداً تامّاً فى كلّ شىء حتّى فى نظرتهم إلى الطبيعة ونظرتهم إلى الحياة . ويدعوهم إلى ذلك خطأ كبير وقعوا فيه وهو ما عندهم من مركب النقص إذ ظنّوا أنّ الغربيّين متى فاقوهم فى العلم وجب أن يقلّدوهم فى كلّ شىء ، وفاتهم أنّ المهارة فى ناحية لا تقتضى المهارة فى النواحى الأُخرى وأنّ روحانيّتهم ونظرتهم إلى العالم خير من نظرة الأُوروبّيّين ، ولا يمكن أن يفيقوا من غفلتهم إلاّ إذا اعتقدوا أنّ روحانيّتهم خير للعالم كلّه

فالأبوان يمتلكان المقام والمنزلة فى المجتمع مادام فى إمكانهما العمل ودرّ المنافع الماديّة ، لكنهما حين يعجزان عن العمل أو قضاء أعمالهما الخاصّة بنفسيهما للمرض أو لضعف الشيخوخة وفتورها ، يصبحان فى نظر المجتمع والقانون ، وحتّى فى عرف الناس ، عالتين لا قيمة لهما ولا أهمّيّة ولا اعتبار ، فيعمد أولادهما إلى التعاقد مع

وأنّهم إذا كانوا انحطّوا فى العلم والصناعة فقد سموا بالفطرة الروحانيّة ، وأنّهم إذا وجب أن يقلّدوا فى العلم وجب أن يقلّدهم الأُوروبّيّون فى النظرة الروحانيّة وليس الأُوروبّيّون متسامين فى كلّ شيء . ومن المؤسف أنّهم حذوا حذو الأُوروبّيّين فى تعليمهم وغلط تربيّتهم ، فأسّسوا المدارس المدنيّة على النمط الأُوروبّىّ ولم يشذّ عن ذلك إلاّ الازهر ، وقد قال أبو العلاء المعرّىّ :

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا　　دين و آخر دين لا عقل له

فالمدارس المدنيّة محرومة من التربية الدينيّة والادبيّة . نعم يسوغ لنا أن نقلّدهم تمام التقليد فى العلوم ومعامل التجارب ونحو ذلك فقط ولكن لا نقلّدهم فى الناحية الادبيّة ، فهم يدرسون التأريخ على أنّأُوروبّا سَيِّدَةُ العالم ، وعلى أنّ رَجُلَها الابيض هو المسؤول عن الاسود والاصفر ، وأنّ الله خلق العالم قسمين : قسماًأُوروبّياً سامياً وقسماً غيراًُوروبّىّ منحطّاً ، ومن أجل ذلك يؤرِّخونأُوروبّا كأنّها المركز وما حولها نقط على المحيط ، وإذا جاءوا للتأريخ الإسلامىّ اقتضبوه أو حرّفوه ، فوجب على المسلمين أن يفرّقوا بين ما هو علمىّ يُقَلَّد وما هو أدبىّ لا يُقَلَّد . وهذه المدارس لا تأبه بالدين إلاّ شكليّاً ولذلك يجهلون أُصول الدين كلّ الجهل ويتبعون الأُوروبّىّ فى منهجهم كلّ الاتّباع ، ورأس هذه الحركة الجامعة المصريّة التى تقود المدارس الثانويّة والابتدائيّة ، وليسوا يسألون فى كلّ أمر عرض ماذا رأى الإسلام ؟ ولكن يسألون ماذا يرى الأُوروبّيّون ؟ كأنّ الله اصطفى الأُوروبّيّين وحدهم وجعل غيرهم ذيلاً لهم .

وإن كان فى كلٍّ من الشرق والغرب عيوب ففيه أيضاً محامد ؛ فالغرب أصحّ رأساً وأعظم علماً وأصبر على الشدائد وعلى البحث العلمىّ ، وله مهارته فى الذكاء وله اليد المفكّرة ، والشرق له سماحة صدر وله روحانيّة يعترف بها حتّى الاقدمون ؛ فقد قال فندلبند عند كلامه على الإسكندريّة إنّه قد التقت فيها ماديّة الغرب بروحانيّة الشرق .

المستشفيات الخاصّة فيبيعون ـ مقدّماً أعينهما وكليتيهما ، فيعمد إليها عند نزعهما واحتضارهما فتنتزع العيون من أحداقها بالسكّين ، وتُبقر البطون فيستأصل القلب والكلى ، ويمثّل بالبدن ويمزّق تمزيقاً ، ثمّ يتركانهما للدولة لتتولّى مسألة دفنهما .

لقد مثّل الآباء والأُمّهات دور الابقار الحلوب ، تُحلب ما درّت ضروعها ، حتّى إذا ما كبرت وهرمت وانعدمت عوائدها عدّت عضواً زائداً شاذّاً فى المجتمع ، فُينقل الآباء والأُمّهات ـ طوعاً أو كرهاً بعيداً عن المجتمع إلى محلّ خاصّ بين المدينة والمقابر أشبه ما يكون بالسجن الواسع أو المستشفى الابدىّ أشبه ، يدعونه فندق الكبار أو دار استراحة العجزة والمسنّين .

لا أُنس لهم هناك ولا أنيس ، ولا صديق ولا دار ولا ديار ، بل هى الوحدة والوحدة المرّة القاتلة ، والفراغ المميت والوحشة الرهيبة حتّى الموت .

إنّهما الابوان اللذان قضيا عمرهما وضيّعاه من أجل هذا الولد ، وأنفقا من أجله وجودهما ومالهما وحياتهما ؛ لكنّهما حين تخطّاهما الزمن فكبرا وعجزا عن تأمين متطلّباتهما الخاصّة أصبحا عبئاً متعباً ثقيلاً للابن!

والاسوأ من ذلك أنّ عروس ابنهما لم تعد لتسمح ببقائهما فى المنزل ، بل تعتبرهما جراثيماً ضارّة ، لربّما أمرت فخُصّص لهما غرفة الخدم ، أو أشارت فأُلقى بهما إلى الخارج ، فينقلان إلى دار العجزة والمسنّين .

لقد صار الابن عبداً لزوجته طيّعاً ، انغمر فى الشهوات ، وذاب فى عشق الجمال الظاهرىّ فقدّم إرادتها فى أُمور الحياة ، حتّى صار بإشارة بسيطة منها ليسعى بمنتهى الجدّ لتنفيذها مهما كلّف الثمن أو كانت التضحيات .

عشـق هائى كز پى رنگى بود عشق نبود عاقبت ننگى بود [١]

لقـد تخلّـى الابـن لزوجتـه عـن مسـؤوليّة إدارة أُمـور المـنزل ، بـل ومسـؤوليّة تسـيير أُمـوره الشـخصيّة ، وكـذا مـا يتعلّـق منـها بخـارج المـنزل ، فصارت فعّالة لما تشاء حاكمة بما تريد .

إنّ الزعامة فى الأُمور ، والتفويـض وحرّيّـة الاختيـار حـين تصبـح فى يـد النساء ، فمن الواضح أين سيسـقن الرجـال وفى أىّ طريـق سـيوردونهم ، ومِـن أين سترد الضربة القاصمة للمجتمع السـليم وللسـلام . وهنـاً تشـرق هـذه الآيـة المباركة مـن أُفـق الغيـب فتـهتك السـتر الخفـىّ هاتفـةً :الرِّجَـالُ قَوَّمُـونَ عَلَـى النِّسَـآءِ بِمَـا فَضَّـلَ اللَـهُ بَعْضَـهُمْ عَلَـى بَعْـض وَبِمَـآ أَنفَقُـوا مِـنْ أَمْوَلِـهِمْ فَالصَّـلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَهُ . [٢]

ولا ينقضى العجب من أنّ الكلام كثيراً ما يـدور هـذه الايـام حـول آيـة : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَهِ أَتْقَـٰكُمْ، فيعتبرها مدّعو معرفة الإسلام قانوناً أصيلاً يعـدّ مـن مفـاخر القـرآن ، بَيـدَ أنّـهم لا يـأتون بذكـر لآيـة الرِّجَـالُ قَوَّمُـونَ عَلَـى النِّسَآءِ ، أو لجملـة فَالصَّـلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ، أى لمسـألة لـزوم طاعـة النسـاء للازواج ، كأنّهم جزّأوا الإسلام فقبلوا منه بعضـاً ورفضـوا بعضـاً ، مـع اعترافـهم اللفظىّ الشكلىّ بجميع القرآن وإقرارهم الكلّىّ بجميع أحكامه .

إنّ الفتاة الـتى لا تقبـل قيمومـة الرجـل علـى المـرأة ، ووجـوب طاعتـه والتسـليم له ، وكان فى نيّتـها أن تُخضـع الزواج لسـيطرتها بعـد الـزواج ، فتأمره

١ـ مثنوى للملاالرومىّ ، ج١ ، ص٦ ، س ٢٠ ، طبعة علاء الدولة .

يقـول : «إنّ الحـبّ القـائم علـى الشـغف بـالمنظر ، لـن يكـون فى عاقبتـه حبـاً ، بـل عاراً » .

٢ـ النصف الاوّل من الآية ٣٤ ، من السورة ٤ : النساء .

وتنهاه ، وأن تتسلّط على الأُمور بالحيلة والمكر بمختلف الوسائل ؛ وبشكل عامّ فلو كانت تعتقد أنّ المرأة ينبغى أن تتسلّط على الرجل أو تتدخّل فى أُموره ، فهى فى الحقيقة ترفض هذه الآية ولا تقبلها ، ولو احترمت القرآن وبجّلته والتزمت بفتحه أمام أعينها فى مجلس العقد ، وسيكون عقد زواجها فى هذه الحالة باطلاً ، لا نّه لم يجرِ وفق شريعة رسول الله ووفق كتاب الله .

وللّه الحمد وله الشكر فقد كَتبنا« رسالة بديعة : الرّجَالُ قَوَّمُونَ »[1] وطُبعت ترجمتها أيضاً ، وانتشرت ، وحرىّ بالجميع ـ رجالاً ونساء ـ أن يقرأوا هذه الرسالة ليتعرّفوا على روح الإسلام وسمو نظرته بشأن حكمة المجتمع ، والواجبات المهمّة للرجال والنساء ، من أجل تشكيل مجتمع صالح يقوم على أساس التعاليم القرآنيّة لا الأوهام الشخصيّة أو الأفكار الجاهليّة .

لقد رفع الإسلام مسألة وجوب احترام الوالدين وتجليهما للحدّ الذى عدّ القرآن الكريم احترامهما ومصاحبتهما بالمعروف فى الأُمور الدنيويّة أمراً واجباً ولوكان الابوان مشركين ، مع أ نّه حرّم متابعتهما فى الشرك أو إطاعتهما فى المسائل المخالفة للدين ، وفى تحليل الحرام أو تحريم الحلال ، وأغلق طريق متابعتهما بشكل كامل فى هذا المجال .

و وَصَّيْنَا الإنْسَانَ بوَلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ و وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ و فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَلِدَيْكَ إلى الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ .[2]

١- كتاب رسالة بديعة ـ الرجال قوّامون على النساء كتب باللغة العربية و ترجم الى اللغة الفارسية .

٢ ـ لآيتان ١٤ و ١٥، من السورة ٣١ : لقمان .

وَوَصَّيْنَا الإنسَـٰنَ بوَلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَـٰهَـدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَى مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .[١]

لقد كان الفتيان إليهود والنصارى يقدمون إلى المدينة فيُسلمون ثمّ يعودون إلى ديارهم فيصبح سلوكهم ومعاملتهم مع آبائهم وأُمّهاتهم الخارجين عن دينهم أفضل وأجمل ، ممّا كان يثيرعجب آبائهم و أُمّهاتهم ودهشتهم ، فيتساءلون : كنّا نظنّكم ـ وقد تبعتم دين محمّد ـ تتركوننا وشأننا ، لكنّنا نرى محبّتكم وعطفكم قد زادا ، وسعيكم فى حوائجنا وبرّكم لنا ووقفكم أنفسكم على خدمتنا صار أكثر!!

فيجيبونهم : لأنّ هذه المعاملة من أوامر و تعاليم الدين الإسلامى ؛ فكان الابوان يأتيان المدينة فيُسلمان ، وتسلم معهم قبائلهم وطوائفهم .[٢]

روى فى « أُصول الكافى » بسنده المتّصل عن أبى ولاّد الحنّاط ، قال : سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَهِ عَلَيهِ السَّلاَمُ عَنْ قَوْلِ اللَهِ عَزَّ وَجَلَّ : «وَبِالْوَلِدَيْنِ إحْسَـٰنًا» ، مَا هَذَا الإحْسَانُ ؟

فَقَالَ : الإحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ صُحْبَتَهُمَا ، وَأَنْ لاَ تُكَلِّفْهُمَا أَنْ يَسْأَلاَكَ

---

١ ـ الآية ٨، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

٢ ـ روى الغزّالىّ فى «إحياء العلوم» ج ٢، ص ١٩٥ ، عن أبى سعيد الخدرىّ :

هاجر رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم من اليمن وأراد الجهاد ، فقال عليه السلام : هل باليمن أبواك ؟ قال : نعم . قال : هل أذنا لك ؟ قال : لا . فقال عليه السلام : فارجع إلى أبويك فاستأذنهما ، فإن فعلا فجاهد وإلاّ فبرّهما ما استطعت فإنّ ذلك خير ما تلقى الله به بعد التوحيد .

وجاء آخر إليه صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ليستشيره فى الغزو ، فقال : ألَكَ والدة ؟ قال : نعم . قال : فالزمها ، فإنّ الجنّة عند رجليها .

وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة ، وقال : ما جئتك حتّى أبكيت والدىَّ . فقال : ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما .

شَيْئَاً مِمَّا يَحْتَاجَانِ إلَيهِ وَإنْ كَانَا مُسْتَغْنَيَيْنِ ، إلَيسَ يَقُولُ اللَهُ عَزَّ وَجَلَّ : «لَن تَنَالُوا الْبرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» ؟

ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : وَأَمَّا قَوْلُ اللَهِ عَزَّ وَجَلَّ : «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا» ، قَالَ : إنْ أَضْجَرَاكَ فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ، وَلاَ تَنْهَرْهُمَا إنْ ضَرَبَاكَ وَتَدْفَعُهُمَا عَنْكَ .

قَالَ : «وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا» قَالَ : إنْ ضَرَبَاكَ فَقُلْ لَهُمَا : غَفَرَ اللَهُ لَكُمَا . فَذَلِكَ مِنْكَ قَوْلٌ كَرِيمٌ ، قَالَ : «وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ» قَالَ : لاَ تَمْلاَ عَيْنَيْكَ مِنَ النَّظَرِ إلَيهِمَا إلاَّ برَحْمَةٍ وَرِقَّةٍ ، وَلاَ تَرْفَعُ صَوْتَكَ فَوقَ أَصْوَاتِهِمَا ، وَلاَ يَدَكَ فَوْقَ أَيْدِيهِمَا ، وَلاَ تَقَدَّمْ قُدَّامَهُمَا . [1]

وكذلك فقد أورد فى « أُصول الكافى » بسنده المتّصل عن الصادق عليه السلام أنّه قال : لَوْ عَلِمَ اللَهُ شَيْئَاً أَدْنَى مِنْ أُفٍّ لَنَهَى عَنْهُ ، وَهُوَ مِنْ أَدْنَى العُقُوقِ ، وَمِنَ العُقُوقِ أَنْ يَنْظُرَ الرَّجُلُ إلَى وَالِدَيْهِ فَيُحِدَّ النَّظَرَ إلَيهِمَا . [2]

انظر إلى هذا التعليم والتربية العاليين ، وإلى هذا الأُسلوب والمنهج الملكوتىّ الذى أشار القرآن بتعليمهما إلى سُبل السلام ، وقارنهما بتعاليم الأُمم الكافرة وأُسلوب معاملة بعض الشباب المغرور الذى سافر إلىأُوروبّا وأمريكا فأضلّه بريق المدنيّة الزائف ، فصعّر خدّه ، وتقدّم على أبيه فى المجالس والمحافل ، لا يبالى ؛ وقد شاهدت بنفسى دكتوراً أخصّائيّاً سبق أباه فى الدخول لاحد المجالس ووالده يتبعه ويسير خلفه ، ونُقل أعجب من هذا عن دكتورٍ شابّ عاد من بلاد الكفر فجاءه رفقاؤه وأصحابه القدامى لزيارته ، وكان أبوه العجوز واقفاً يستقبل القادمين ويقوم بخدمتهم ، فالتفت

١و٢ ـ «تفسير البرهان» ج ١، ص ٦٠١ ، تفسير سورة الإسراء ، الطبعة الحجريّة ، و «تفسير نور الثقلين» ج ٣، ص ١٤٨ و١٤٩.

هذا الدكتور لشدّة غروره وعجرفته قائلاً لضيوفه : هذا الرجل مستخدم جئنا به للخدمة فى البيت .

أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَهِ . [١]

حقّاً ! إنّ الإنسان إذا قال أُفٍّ لاهواء وأفكار هؤلإ المستكبرين الذين حازوا على مقام ومركز حديثاً ، ولو قال أُفٍّ ثمّ بصق عليهم وعلى فكرهم وأُسلوبهم ونهجهم لما تجانف عن الحقّ ولكان فى ذاك محقّاً مصيباً . أفهذه الاعمال تصدر من أُمّةٍ قال نبيّها : الجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الأُمَّهَاتِ ؟! [٢]

كان ما سبق بحثاً علميّاً وتفسيريّاً للآية المبحوثة ، ومن جانب آخر فإنّ البحث الوجدانىّ والشهودىّ عن تأثير دعاء الوالدين فى حقّ ولدهما ، وما له من القدرة على رفعه فى معارج الكمال ومدارجه ، والشواهد والتجارب المشهودة فى ذلك هى من الكثرة بحيث لا يسعها هذا الكتاب .

وأنقل هنا فقط ملاقاةً لى مع شخصٍ ارتقى إلى مقامٍ عالٍ إثر خدمته لأُمّه ، وحدث له كشف الحُجب الملكوتيّة :

حدث أن ذهبت فى طهران يوماً إلى المكتبة الإسلاميّة الواقعة فى

---

١ ـ الآية ٦٧ ، من السورة ٢١ : الانبياء : أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ .

٢ ـ «الجامع الصغير» للسيوطىّ ص ١٤٥، عن القضاعىّ . ورواه الخطيب البغدادىّ فى جامعه بطريق حَسَن عن أنس .

وأورد القاضى القضاعىّ فى «شرح فارسى شهاب الأخبار» (= الشرح الفارسى ك شهاب الأخبار») « ص ٤١ و٤٢ ، رقم ١٠٤ : الجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الأُمَّهَاتِ .

مادران راست خلد زير قدم ايـن چنين گفت خواجه عالم

(يقول : « الجنّة تحت أقدام الأُمّهات ؛ هكذا قال سيّد العالم » .

انتهى كلام القاضى القضاعىّ .

جنّت كه بهشت ما در آن است در زير قدوم مادران است

(يقول : لَنّ الجنّة التى تمثّل نعيمنا وفردوسنا ، هى تحت أقدام الأُمّهات) .

شارع (بوذر جمهرى)، وكان الحاجّ السيّد محمّد الكتابجىّ، وهو أحد المشاركين فى هذه المؤسّسة ، مشغولاً فى مخزن الشركة الواقع فى انتهاء شارع (بامنار) قرب شارع (بوذر جمهرى) الذى تقع فيه المكتبة ، وكان هذا السيّد المذكور من بين الإخوة المتصدّين لمسؤوليّة إدارة مخزن الكتب وإرسال طلبات الكتب إلى المدن الأُخرى ، وبيع الكتب بالجملة . وقد زرته لرؤيته فى ذلك المخزن لصداقتنا ومعرفتنا المديدة ببعضنا ، وكنت أذهب إليه غالباً ولشراء ما أحتاج من كتب .

كان الوقت صباحاً ، ولم يكن لاذان الظهر بعد سوى أربع ساعات ، وكان هناك رجل جاء لشراء بعض الكتب ، وقد بسط حزامه الجلدىّ على الارض وصفّ عليه بعض الكتب التى ابتاعها كالقرآن و« مفاتيح الجنان » و « كليلة ودمنة »وبعض القصص والرسائل العلميّة ، منتظراً ليجمع باقى الكتب التى تلزمه . وأخيراً وبعد إتمام هذا العمل حزم كتبه ـ وكانت بحدود الخمسين كتاباً فى حزامه الجلدىّ وتهيّأ للخروج ، ثمّ قال فجأة : الله حبيبى ، الله طبيبى ، مُعينى معينى ، روحى روحى .

نظرتُ إليه فكان وجهه قانياً جدّاً وقد لمعت حبّات من العرق على جبهته ، وكان غارقاً فى الوجد والسرور بلا حدّ .

قلتُ : أيّها العزيز! أيّها الدرويش العزيز! ليس من طبائع الأدب أن تنفرد بالمائدة فلا تشارك أحداً !

فبدأ بالدوران حول نفسه ، ودار دورة واحدةً ، ثمّ ترنّم بصوت عالٍ فيه حرقة بهذه الابيات للشاعر بابا طاهر العريان ، وكان صوته فصيحاً حزيناً :

اگر دِل دلبر دلبرْ كدام است وگر دلبر دلِ دل را چه نام است؟
دل و دلبر بهم آميته وينُم نذونُم دل كه و دلبر كدام است ؟

* * *

دلی دیـرُمْ خریـــدار محبّـــت کـــز او گرم اســـت بـازار محبّت
لباسـی بافتـم بـر قـامـتِ دل ز پـــود محـــنت و تـــار محـــبّت

* * *

غم عشقت بیابون پرورم کرد هـــوای بخت بی‌بال و پـــرم کرد
بمو گفتی صبوری کن صبوری صـبوری طُرفه خاکی بر سرم‌کرد

* * *

به صحـرا بنگرُم صحراتَه وینُم به دریـا بنـگرُم دریـا تَـــه بینـم
بهـرجا بنگرم کوه و در دشت نشـان از قامـت رعنـاتـه وینم [1]

* * *

ثمّ سـكت فی هـذه الحـال ، وبكـی بشـدّة ـ ثمّ أشـرق وجهـه بالسـرور والبهجة فضحك .

١ـ يقـول : «إذا صـار القلـب هـو الحبيـب فمـن سـيكون الحبيـب ؟ وإن صـار الحبيـب هـو القلب فماذا سنسمّى القلب ؟

لقد اتّحد القلب والحبيب كلاهما ، فأصبحتُ لا أدرى مَن القلب ومَن الحبيب .

* * *

إنّ قلبى لشغوف بشراء المحبّة والعشق ، دار سوقُ العشق به على قدمٍ وساق .

ولقد حِكْتُ لقامة الحبيب ثوباً ، فكان لِحْمته المحنة وسداه المحبّة .

* * *

أدّى غـمَّ عشـقك إن سـكنت الصحـراء فصـرت حليفـها ، ورمـانى هـــوى الحـــظّ بـــلا ريـــشٍ ولا جناح .

قلتَ لى : كن صبوراً صبوراً ، فصبّ الصبر قبضةَ ترابٍ على رأسى .

* * *

انظر الصحراء فأراك الصحراء ، وأتطلّع إلى البحر فأرى بحرك .

حيثما نظرتُ إلى جبلٍ أو صحراء ، رأيتُ آيةً من قامتك الرشيدة» .

قلتُ : أحسنت أحسنت ، أنا حقير فقير عاجز ، أنتظر دعاءك لى ، فبدأ يقرأ هذه الابيات :

مـو از قالوا بلى تشويش ديرُم گنـه از برگ و بارُون بيش ديرُم
اگر لا تَقْنَطُـوا دسـتم نگيره مـو از يَا وَيْلَتَـا أنـديش ديـرم

* * *

بـورَه سـوتَه دلان تا ما بنإليم ز دسـت يـار بى پـروا بنـاليـم
بشـيم با بلبل شـيدا به گلشن اگر بلبـل ننـاله مـا بنـإليـم

* * *

بـورَه سـوتَه دلان گردِ هـم آئيـم
سـخن واهـم كـريم غـم وانمـائيم
تـرازو آوريم غمـهـا بسـنجيـم
هـر آن غمگين‌تريم است سنگين‌تر آئيم [1]

قال : طريقك سليم والحمد للّه ، دعـنى وشـأنى أيّـها السـيّد ، فأنـا فقـير عاجز ، ولا تضع حملاً آخر على كاهلى .

١ـ يقـول : «أشـعر بـالقلق والاضطـراب مـن «قـالوا بلـى» إشـارة إل؟ آيـة الـذر : قـالوا بلـى شهدنا ؛ فقد فاقت ذنوبى نقط المطر وورق الشجر .
وإن لم تنل يدى «لا تقنطوا» وتمسكها ، فسيبقى قول : «يا ويلتا» يشغل فكرى .

* * *

تعالَوا ذوى القلوب المحترقة الوهى نتأوّه ، من معشوقةٍ لا يضيرها الصدّ والإعراض .
ولنصحـب البلبـل العاشـق إلى الـروض ، فـإن تصـبّر علـى عشـق الـورد فلـم يَبُـحْ بآهاتـه ، فسنئنّ ونتأوّه من عشق معبودنا .

* * *

تعالَوا ذوى القلوب الحرّى المحترقة نجتمع معاً فنفضى إلى بعض همومنا .
فَلْنَزِنْ غمومنا فنقارنها مع بعضها ، من كان أكثر غمّاً كان أثقلنًا فى الميزان» .

ثمّ قال : جئتُ يوماً لابتاع كتباً ، وكان العلاّمة (دهخدا) [١] قد جاء أيضاً ، فتحدّثنا لبعض الوقت ثمّ قلتُ له : من الإنصاف القول بأ نّك بذلت جهداً ضخماً وتحمّلت معاناةً كبيرة ، ولكن لا تظنّ أنّ الامر قد انتهى بذلك ، فأىّ شيءٍ كان العُمر سيُثمر لو صُرف فى طرقٍ أُخرى ؛ يا للاسى ؟ وأىّ شيءٍ كان سُينتج ؟

هاتِ ما عندك الآن لنرى ، تعالَ لنَر ما فى يدك الآن !

تـه كه ناخـوانـده‌اى علـم سمـاوات

تَـه كه نـابـرده‌اى ره در خـرابـات

ته كه سود و زيان خود نزونى

به يـارون كى رسـى هيهات هيهات [٢]

فاهتز العلاّمة ، ثمّ غرق فى التفكير لبعض الوقت ، وامتقع وجهه قليلاً ، ولم ينبس ببنت شفة .

أمّا أنت فأنا أعرفك ، فأنت تصلّى فى مسجد القائم ، وقد جئت إلى ذلك المسجد وسآتى فيما بعد فلا مكان معيّن لى ، فى الليل لا يغمض لى جفن ، أطوف مناطق (طهران بارس) و (طهران الجديدة) و (طرشت) ، أذهب هنا وهناك وأدور على المقاهى ، وقد كان منزلى السابق فى بوّابة (شميران) ، لكنى منذ وفاة والدتى لا أذهب هناك إلاّ نادراً .

١ـ العلاّمة القزوينى عـلى أكبر دَخُوْ ، مؤلّف المعجم اللغوى المعروف بـ «لغت نامة دهخدا» ، ولانّ أهالى قزوين يدعون رئيس القرية وكبيرها «دَخُوه» ، فقد كان يوقّع باسم دخو ، لكنّ اسمه فى معجمه اللغوى شُهر بـ «دهخدا» .

٢ ـ يقول : «يا مَنْ جهلتَ علم السماوات ، ولم تنل مقام العرفاء وتهتدى طريقهم .

أنت الذى لا تفرّق بين ما يضرّك وينفعك ، هيهات أن تلحق بعشّاق هذا الطريق ، السالكين فيه» .

قلتُ : لقد نلتَ عناياتٍ من الله تعإلى ، أفكان هناك حسب الظاهر سبب خاصّ ـ حسب اعتقادك لهذه العنايات التى وُهبتَها ؟

قال : نعم ، كان لى والدة عجوز مريضة وعاجزة ، ثمّ أصبحتْ مُقعدةً منذ سنوات ، وكنت إلى خدمتها بنفسى وأؤمّن احتياجاتها وأعدّ غذائها وأُحضر عندها ماءَ وضوئها ، وخلاصة الامر فقد كنتُ حاضراً عندها أُنفّذ رغباتها بصبرٍ وتحمّل ؛ وكانت حادّة المزاج وسيّئة الخلق ، تشتمنى أحياناً فأتحمّل وأبتسم فى وجهها بحنوّ .

وآثرتُ من أجلها العزوف عن الزواج مع أنّى قد جاوزت الاربعين ، إذ كنتُ سأعجز عن إبقاء زوجتى مع أخلاق والدتى تلك ، و حسب علمى أنّ اختيارى الزواج يعنى لَنّ حياتى ستستحيل جحيماً لا يُطاق ، وأنّنى سأُجبر على ترك والدتى وكان هذا الامر بالنسبة لعاطفتى وضميرى أمراً غير ممكن ، لذا تحمّلت مسألة عدم زواجى ولقّنتُ نفسى الإقتناع بها .

وكان يومض فى قلبى فجأة ؛ إثر تحمّل المصاعب والمشاكل التى تواجهنى معها ؛ اشعاع ونور كالبرق يضىء للحظة فيملا القلب بهجة ، لكنّه كان سريعاً ما يخبو ويخمد .

حتّى جاء أحد أيّام الشتاء ، وكان الجو بارداً ، وقد بسطتُ فراشى قريباً من والدتى فى غرفتها كى لا تبقى وحدها ولا تحتاج لندائى بصوتٍ عالٍ إن أرادت شيئاً ، وكنتُ فى تلك الليلة قد أعددتُ إناء الماء بجانبى كى أناولها الماء حالما تطلبه منّى .

وقد نادتنى فى الليل فطلبت ماءً ، فنهضتُ من فورى وسكبتُ الماء فى إناء وقدّمته لها وقلتُ : خذى يا أُمّاه فدتك روحى . لكنّها كانت مثقلةً بالنعاس فلم تفطن إلى سرعة عملى وظنّت أ نّى تأخّرت فى إحضار الماء ، فشتمتنى شتماً غريباً وضربت بالإناء على رأسى ، فأعدتُ ملا الإناء وقلتُ :

خُذى يا أُمّاه العزيزة واعفى عنّى فأنا أرجو غفرانك .

ثمّ لم أفهم ما حدث فجأة ، وباختصار : لقد تحقّق ما كنتُ أصبو إليه ، وتبدّلت تلك الومضات إل؟ عالم نورانىّ يضىء كالشمس ، لقد كلّمنى حبيبى ومعينى وإلهى وحبيبى ، ولم يقطع نجواه عنّى ، وقد دامت هذه الحال ولم تنقطع بعد مرور سنوات عليها .

ثمّ سحب حذاءه بسرعة وحمل كتبه على عاتقه وودّع قائلاً : سأجىء عندكم إن شاء الله ؛ وتحرّك للخروج من باب المخزن ثمّ التفت إلينا فى هذه الحال بوجهه وأنشد هذه الأبيات بذلك اللحن نفسه :

منم كه گوشهٔ ميخانه خانقاه منست
دعای پير مغان وِرد صبحگاه منست
گرم‌ترانه‌چنگ و صبوح نيست‌چه باك
نوای من به سحر آهِ عذرخواه منست
ز پادشاه و گدا فارغم بحمد الله
گدای خاك درِ دوست پادشاه منست
غرض‌زمسجد وميخانه‌ام‌وصال‌شماست
جز اين خيال ندارم خدا گواه منست[1]

١ـ الغزل للخواجة شمس الدين محمّد حافظ الشيرازىّ فى ديوانه ، ص ١٨، طبعة بژمان .

يقول : «أنا من كانت زاوية الخمّارة مجلس عرفانى ـ ودعاء شيخ الطريقة وِرد صباحى .

إن خلا الامر من نغمة الربابة وشراب الصباح ، فماذا يضير لو صار زادى فى الاسحار الآهات الحرّى فى طلب الغفران .

الملك والشحّاذ فى عينى سواء بحمد الله ، ولكن شحّاذ تراب باب المحبوب سلطانى .

الغرض من المسجد والخمّارة وصالك ، وأُشهد الله أن لا غاية أُخرى تدفعنى .

از آن زمان كه برين استان نهادم روى
فـراز مسـند خورشـيد تكيـه‌گاه منست
مـگر به تيـغ أجـل خيمه بركنم ورنه
رميدن از در دولت نه رسم و راه منست
گنـاه اگر چـه نبـود اختيار ما حافظ
تو در طريق أدب باش وگو گناه منست[1]

ثمّ لم نره بعد ذلك ، وحـدث أن كنـتُ ذاهبـاً إل؟ المسـجد قبيـل الغـروب مستقلاّ سيّارة أُجرة ، فتوقّفـت السـيّارة عنـد ضـوء المـرور الاحمـر قـرب بوّابـة (شمـيران) عنـد انتـهاء شـارع (فخرآبـاد) ، وكـان يمّـر عليـه ! حيّـانى مـن خلف زجاج نافذة السـيّارة وأشـار بـإصبع السـبّابة أن (هـا ، لقـد رأيتُـك) ، [2] فسلّمتُ عليه بدورى وتحرّكـت السـيّارة . ولقـد قصصـت حكايتـه علـى بعـض الأصدقاء من سكنة بوّابة (شميران) فقـالوا إنّـهم يعرفونـه ، وإن والدتـه توفّيـت قبل سنوات ، وإنّهم يعرفونه كذلك بتلك الأخلاق والحالات . [3]

أمّـا الحاجّ السـيّد محمّـد الكتـابجىّ ، فقـال فى إيضاح حاله إنّه بائع جوّال

١- يقول :
فمنذ أن وجّهتُ وجهى فى هذا الطريق صار أعلى مسند الشمس متّكئى .
لن أطوى خيامى إلاّ بسيف الاجل ، فليس شأنى الفرار من باب السلطان .
ومـع أنّ ارتكـاب الذنـوب ليـس فى يدنـا يـا حـافظ ، ولكـن جـدُ أدبـاً فى طريقـه ، قـل إنّ الذنب قد صدر منّى فالتبعة عَلَىَّ » .

٢ ـ ترجمة لفظة (دالّى) .

٣ ـ أمّـا الآن ، وقـد مـرّ علـى تـأليف هـذا الكتـاب عـدّة أعـوام ، التحـق خلالهـا برحمـة اللـه تعـالى وارتحـل إلى عـالم البقـاء ، فيجـدر التنويـه باسمـه ، ويُعـرف بالحـاجّ مـهدى المجنون.

يشترى بعض الكتب منّا بقدر ما يمكنه بيعه ، ثمّ يضعها على رصيف الشارع فيبيع ما يحتاجه الناس منها ، وهو رجل أمين فى معاملته ، يأتينا يوميّاً بقائمة الكتب التى يحتاجها فنعدّها له ، ثمّ يأتى بثمنها عصراً بعد بيعها ، وتنتابه أحياناً حالات تجاهل حتّى لا يعرفه أحد ، وقد شاهدنا منه حالات عإلية .

نعم ، كان المراد من ذكر هذه القضيّة بيان النتائج المعنويّة لخدمة الاُمّ التى حين تفتح قلبها فإنّ أبواب السماء تُفتح معه ؛ قلب الاُمّ مستودع الحبّ الإلهى ّوخزينة السرّ الإلهى ّ، إن أُغلق أُغلقت معه أبواب السماء ، وإن فتح فُتحت معه .

وقد رأينا الكثير ممّن سلكوا طريق الله تعإلى وأمضوا مدّة بالتهجّد وقيام الليل وصيام النهار والرياضات المشروعة ، لكنّ معاملتهم مع أبويهم كانت سيّئة فلم يوفقّوا ولم يقطفوا ثمرة جهودهم ، أو يحصلوا على حاصل أتعابهم ، ولم يحصل لهم كشف باب أو يُفتح لهم بشىء بعد مرور الاعوام المتمادية .

لكنّ أفراداً ؛ كهذا الرجل ؛ لم ينشغلوا كثيراً بالرياضات والنوافل وترك المكروهات ، لكنّهم إثر مراعاة الاُمور المتعلّقة بنفوس الناس ؛ كترك تسبيب الاذى لمن تحت يدهم وسلطتهم ، وتحمّل أذى الناس والصبر عليه ، وتوقير ذوى الحقوق من الوالدين والكبار والاولياء وإكرامهم ؛ قد نالوا مقاماتٍ عإلية ودرجاتٍ سامية .

نعم ، فمن البحث فى هذه الآية الكريمة وبيان هذه القضيّة فقد اتّضحت كيفيّة هداية القرآن إلى سُبل السلام ، وكيف أُعطيت البصيرة وإليقين للبائع المتجوّل المعدَم الحامل لبضاعته المزجاة يوميّاً على عاتقه ، الجارّ قدميه جرّاً فوق الارض ؛ بحيث يعجز عقلاء العالم عن إدراك أمره ، فصار يضحك ساخراً من كلّ هذه التعيّنات والاُمور الاعتباريّة ، عابراً فى

هذا العالم بوعى وبصيرة ملكوتيّة ، مترحّماً على الناس العميان عن إدراك الحقائق والمعنويّات ، معتبراً أنّه يتصدّر عالم الإمكان فى مقامٍ صار مسند الشمس العإلى متّكأه .

وعلينا أن لا نعجب هنا كيف يدعو القرآن هؤلاء بأصحاب إليقين والحقّ ، ويعتبر مخالفيهم عمياناً ، ويدعو هؤلاء بأُولى الالباب وأصحاب العقل والفهم والبصيرة ويلعن مخالفيهم ويحذّرهم من العاقبة الوخيمة التى تنتظرهم :

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى' إِنَّمَا يَتَذَكَّرُأُ ولُوا الالْبَـ'ب * الَّذِينَ يُوفُونَ بعَهْدِ الله وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَـ'قَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَاللَهُ بِهِأَ ن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَو'ةَو أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـ'هُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَأُ ولَـ'ئكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّـ'تُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئهِمْ وَأَزْوَجِهِمْ وَذُرِّيَّـ'تِهِمْ وَالْمَلَـ'ئكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَـ'مٌ عَلَيْكُمْ بمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ * وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَهِ مِن بَعْدِ مِيثَـ'قِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَاللَهُ بِهِأَ ن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِأُ ولَـ'ئكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ .[1]

ومن جملة الآيات الهادية إلى سُبل السلام هذه الآيات الكريمة :

إِنَّ اللَهَ يَأْمُرُ بالْعَدْلِ وَالإِحْسَـ'نِ وَإِيتَآىءِذِى الْقُرْبَى'وَيَنْهَى'عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .[2]

يَـ'أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ

١ـ الآيات ١٩ إلى ٢٥، من السورة ١٣: الرعد .

٢ـ الآية ٩، من السورة ١٦: النحل .

شَنَـــآنُ قَـوْمٍ عَلَـى أَلاَّ تَعْدِلُـوا اعْدِلُـوا هُـوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْـوَى وَاتَّقُـوا اللَـهَ إِنَّ اللَـهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . [١]

قُلْ يَـأَهْلَ الْكِتَـابِ تَعَـالُوا إِلَـى كَلِمَـةٍ سَـوَآءٍ بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُـم أَلاَّ نَعْبُـدَ إِلاَّ اللَهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَـا بَعْضًـا أَرْبَابًـا مِّـن دُونِ اللَـهِ فَـإِن تَوَلَّـوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . [٢]

وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِـهِ عِلْـمٌ إِنَّ السَّـمْعَ وَالْبَصَـرَ وَالْفُـؤَادَ كُـلُّ أُوْلَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً . [٣]

يَـأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَـآءَكَ الْمُؤْمِنَـاتُ يُبَـايِعْنَكَ عَلَـى أَن لاَّ يُشْـرِكْنَ بِاللَـهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْـرِقْنَ وَلاَ يَزْنِـينَ وَلاَ يَقْتُلْـنَ أَوْلَـادَهُـنَّ وَلاَ يَـأْتِينَ بِبُهْتَـانٍ يَفْتَرِينَـهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِـهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَـكَ فِـى مَعْـرُوفٍ فَبَايِعْـهُنَّ وَاسْـتَغْفِرْ لَـهُنَّ اللَـهَ إِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . [٤]

وقد نزلت الآيات الاخيرة بعد الفتح ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يبايع على هذه الشروط جمعاً من النساء اللاتى جئن للبيعة ، وقد روى الواقدىّ فى «المغازى» عن عبد الله بن الزبير، قال : لمّا كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة، وأسلمت أُمّ حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة عكرمة بن أبى جهل، وأسلمت امرأة صفوان بن أُميّة: البغوم بنت المُعَذِّل من كنانة، وأسلمت فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وأسلمت هند بنت منبّه بن الحجّاج، وهى أُمّ عبد الله بن عمرو بن العاص ، فى عشر نسوة من

١ـ الآية ٨، من السورة ٥ : المائدة .
٢ ـ الآية٦٤ ، من السورة ٣: آل عمران .
٣ ـ الآية٣٦ ، من السورة ١٧: الإسراء .
٤ ـ الآية١٢، من السورة ٦٠ : الممتحنة .

قريش ، فأتين رسول اللـه صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسلّم بـالابطح فبايعنـه ، فدخلـن عليـه وعنـده زوجتـه وابنتـه فاطمـة ونسـاء مـن بـنى عبـد المطّلـب ، فتكلّمت هند بنت عتبة [1] فقالت :

يَا رَسُـولَ اللَـهِ ! الْحَمْـدُ لِلَّـهِ الَّـذِى أَظْـهَرَ الدِّيـنَ الَّـذِى اخْتَـارَهُ لِنَفْسِـهِ لِتَمَسُّنِى رَحْمَتُكَ ؛ يَا مُحَمَّدُ ! إِنِّى امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ بِاللَهِ مُصَدِّقَةٌ !

ثمّ كشفت عن نقابها فقالت : هند بنت عتبة .

فقال رسول اللـه صلّى اللـه عليه وآله وسلّم : مرحباً بك !

فقالت : واللـه يا رسول اللـه ما على الارض مِن أهل خباء أحـبّ إلىّ أن يعزّوا من أهل خبائك .

فقال رسول اللـه صلّى اللـه عليه وآله وسلّم : وزيادة أيضاً .

ثمّ قرأ رسول اللـه صلّى اللـه عليه وآله وسلّم عليـهنّ القـرآن وبايعـهنّ ، فقالت هند من بينهن : يا رسول اللـه نُماسحك ؟

فقال رسول اللـه : إِنِّى لاَ أُصَـافِحُ النِّسَـاءَ ! إِنَّ قَوْلِـى لِمِائَـة امْـرَأَةٍ مِثْـلُ قَوْلِى لاِمْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ .

ويُقال : وَضَعَ على يده ثوباً ثمئ مسحنَ على يده يومئذٍ .

ويُقـال : كـان يـؤتى بقـدحٍ مـن مـاء فيُـدخل يـده فيـه ثمّ يدفعـه إليهنّ

١ـ هنـد بنـت عتبـة أُمّ معاويـة بـن أبى سـفيان وزوجـة أبى سـفيان ، وهـى الـتى بقـرت بطـن حمـزة سيّد الشـهداء عليـه السـلام فى حـرب أُحـد واسـتخرجت كبـده فقطّعتـه وصنعـت منـه قـلادة علّقتـها فى عنقـها ، ثمّ لاكـت قطعـة مـن كبـده ، وقطّعـت أعضـاءه ومثّلـت بهـا . وقتـل أبوهـا عتبـة وأخوهـا شـيبة وابنـها حنظلـة فى حـرب بـدر ، وكـان لهـا عـداوة شـديدة مـع رسـول اللـه ، فـأهدر دمـها يـوم فتـح مكّـة ، لكنّـها أسـلمت فقبـل الرسـول إسـلامها وحقـن دمـها . صلّـى اللـه عليـك يا رسول اللـه وعلى أهل بيتك الطاهرين .

فيُدخلن أيديهنّ فيه . والقول الاوّل أثبتها عندى : إنّى لا أُصافح النساء .[١]

ونقل الطبرىّ فى تاريخه عن الواقدىّ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أمر يوم فتح مكّة بقتل ستّة نفر وأربعة نسوة من بينهنّ هند بنت عتبة، فأسلمت وبايعت ونجت من القتل . حتّى يصل إل؟ القول : فلمّا فرغ رسول الله صلّى الله عليه وآله من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة متنقّبة متنكّرة لحدثها وما كان من صنيعها بحمزة ، فهى تخاف أن يأخذها رسول الله بحدثها ذلك ، فلمّا دنون منه ليبايعنه قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

تُبَايعْنى [تبايعننى] عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكْنَ باللَهِ شَيْئَاً !

فقالَتَ هند : والله إنّك لتأخذَ علينَا أمراً ما تأخذه على الرجال وسنؤتيكه .

قال : وَلاَ تَسْرِقْنَ !

قالت : والله إن كنتُ لاُصيبُ من منال أبى سفيان الهنة والهنة وما أدرى أكان ذلك حلاًّ لى أم لا؟

فقال أبوسفيان ـ وكان شاهداً لما تقول ـ أمّا ما أصبتِ فيما مضى فأنتِ منه فى حلّ .

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : وَإِنَّكِ لَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ ؟!

فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عمّا سلف ، عفا اللهَ عنكَ .

قال : وَلاَ تَزْنِينَ !

قالت : يا رسول الله ، وهل تزنى الحُرّة ؟!

قال : وَلاَ تَقْتُلْنَ أَوْلاَدَكُنَّ !

١ـ «المغازى» لمحمّد بن عمر بن واقد ، المتوفّى سنة ٢٠٧، المعروف بالواقدىّ ، ج ٢، ص٨٥٠ و ٨٥١.

قالت : قَدْ ربَّيْنَاهُمْ صِغَاراً وَقَتَلْتَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ كِبَاراً ، فَأَنْتَ وَهُمْ أَعْلَمُ .

فضحك عمر بن الخطّاب من قولها حتّى استغرب .

قال صلّى اللـه عليه وآله وسلّم : وَلاَ تأْتِينَ بِبُـهْتَانٍ تَفْتَرِيْنَـهُ بَيْـنَ أَيْدِيكُـنَّ وَأَرْجُلِكُنَّ !

قالت : واللـه إنّ إتيان البُهتان لقبيح ولبعض التجاوز أمثل .

قال : وَلاَ تَعْصِينَنى فِى مَعْرُوفٍ .

قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف .

فقال رسول اللـه صلّى اللـه عليه وآله وسـلّم لعمـر : بايعـهنّ ؛ واسـتغفرَ لهنّ رسول اللـه ، فبايعهنّ عمـر ، وَكَـانَ رَسُـولُ اللـه صَلَّـى اللَـهُ عَلَيْـهِ وَآلِـهِ وَسَلَّمَ لاَ يُصَافِحُ النِّسَاءَ وَلاَ يَمُسُّ امْرَأَةً وَلاَ تَمُسُّـهُ إلاَّ امْـرَأَةٌ أَحَلَّـهَا اللَـهُ لَـهُ ؛ أَوْ ذَاتُ مَحْرَمٍ مِنْهُ .[1]

وروى عن أبان بن صالح أنّ بيعـة النسـاء قـد كـانت علـى نحويـن فيمـا أخبره بعض أهل العالم ؛ كان يوضع بين يَدَى رسول اللـه صلّى اللـه عليه وآله وسلّم إناء فيه ماء فإذا أخذ عليهنّ وأعطينـه غمـس يـده فى الإنـاء ثمّ أخرجـها فغمس النساء أيديهنّ فيه ، ثمّ كان بعد ذلك يأخذ عليهنّ فـإذا أعطينـه مـا شـرط عليهنّ قال : اذْهَبْنَ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ ! لا يزيد على ذلك .[2]

وقـال العلاّمـة الطباطبـائىّ مـدّ ظلّـه العـإلى فى تفسـير : وَلاَ يَقْتُلْـنَ أَوْلَـادَهُنَّ قال :بِالْوَأْدِ وَغَيْرِهِ وَإِسْقَاطِ الاْجِنَّةِ .[3]

١ـ «تـاريخ الأُمـم والملـوك» لابى جعفـر الطـبرىّ ج٢، ص ٣٣٧ ، طبعـة مطبعـة الاستقامة ـ القاهرة .

٢- « تاريخ طبرىّ » ج٢ ص ٣٣٨ طبعة مطبعة الاستقامة – القاهرة

٣ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٩، ص ٢٧٩.

عَدَّ القرآنُ الكريم قتلَ المسلم عمداً ـ بلا إباحة من الشرع من قصاصٍ أو إجراءٍ لحدّ ـ واحداً من الذنوب الكبيرة توعّدَ عليه التخليد فى جهنّم ، ولا تردّد فى هذا الامر ولا شبهة ، فقد أقام العلماء المسلمون فى كتاب الجهاد على حرمته أدلّةً أربعة : الكتاب ، السنّة ، الإجماع والعقل ، وذكر القرآن الكريم للقتل الخطأ والعمدىّ أحكاماً خاصّة :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَـًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى'أَهْلِهِ إِلاَّأَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى'أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَهِ وَكَانَ اللَهُ عليمًا حَكِيمًا * وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ و وَأَعَدَّ لَهُ وعَذَابًا عَظِيمًا . [١]

مِنْ أَجْل ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى' بَنى إِسْرَئِيلَ أَنَّهُ و مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْر نَفْس أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَـٰت ثُمَّإِنَّ كَثِيرًا مِّنهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِى الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ . [٢]

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَلَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَـٰطِل إِلاَّأَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْإِنَّ اللَهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلى اللَهِ يَسِيرًا . [٣]

---

١ ـ الآيتان ٩٢ و٩٣، من السورة ٤ : النساء .

٢ ـ الآية ٣٢، من السورة ٥ : المائدة .

٣ ـ الآيتان ٣٢ و٣٠ ، من السورة ٤ : النساء .

وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَهُ إِلاَّ بالْحَقِّ . [١]

وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَـهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَهُ إِلاَّ بالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَـٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـٰلِحًا فَأُولَـٰ ئِكَ يُبَدِّلُ اللَهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ اللَهُ غَفُورًا رَحِيمًا . [٢]

وعلاوةً على التعميمات التى ذُكرت والتى عُدَّ فيها محرّماً قتل النفس المحترمة ـ بشكلٍ عام ـ سواءً كان القتيل من ولد الإنسان أم لا ، فقد وردت آيات كثيرة تنهى بشكلٍ خاصّ عن قتل الاولاد وتحرّمه ، منها :

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًا بغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَـهُ افْتِرَآءً عَلَى اللَهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . [٣]

وآية : قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبالْوَلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلَـٰدَكُمْ مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . [٤]

وآية : وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خَطْـًا كَبيرًا . [٥]

وكذلك آية : وَإِذَا الْمَوْءُ و دَةُ سُئِلَتْ * بأَىِّ ذَنب قُتِلَتْ . [٦]

كلّها آيات تدلّ على حرمة قتل الولد ، كَبيراً كان أم صغيراً ، ذكراً أم أُنثى ، ناقص الخلقة ومشوهاً كان أم تامّ الخلقة وكاملاً ، وعليه فإنّ الطفل

١ـ الآية ١٥١، من السورة ٦ : الانعام .

٢ ـ الآيات ٦٨ إلى ٧٠، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٣ ـ الآية ١٤٠، من السورة ٦ : الانعام .

٤ ـ الآية ١٥١، من السورة ٦ : الانعام .

٥ ـ الآية ٣١، من السورة ١٧: الإسراء .

٦ـ الآيتان ٨ و ٩، من السورة ٨١ : التكوير .

الذى يُولد أعمى أو أصمّ أو مجذوذ إليد أو ناقص العقل مجنوناً أو مبتلى بأىّ نقص أو عيب ، فليس لاحدٍ الحقّ فى القضاء عليه ، لا أبـاه ولا أُمّه ، ولا الحاكم ولا الدولة ، ولا الهيئة الطبّيّة ولا غيرهم ، لا فرق فى ذلك أكان قتله بوسيلة قاتلة ، أو بإعطائه مصلاً سامّاً أو غازاً سامّاً ، أو إذابته بالحوامض ، أو باستعمال الاشقّة المهلكة ، أو أيّة وسيلة أُخرى ربّما ستكتشف فيما بعد ؛ فهو مخلوق من مخلوقات الله ، لم يرخّص أو يأذن فى قتله لاحد .

وهذا العمل قتل للنفس لم يفرّق الله خالق الإنسان فيه بين نفس الإنسان الكامل والناقص ، الرجل والمرأة ، السليم والمريض ، العاقل والمجنون ، الصغير والكبير ، بل وعد سبحانه على قتل النفس العمدىّ الخلود فى نار جهنّم .

وفوق ذلك ، فالإنسان ليس حرّاً فى التصرّف بنفسه ، فالانتحار حرام ولو كان مسبّباً عن فقر شديد وضيق ذات إليد ، أو عن السجن لأعوام طويلة ، أو لورود المصائب والمحن المختلفة ، فمَن انتحر كان مصيره جهنّم خالداً فيها وفق وعد الآية القرآنيّة الآنفة .

إنّ عموم الآيات وإطلاقها الدالّ على حرمة القتل العمدىّ يشمل قتل الإنسان نفسه وقتله غيره ، فالآية الكريمة :

إِنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أو فَسَادٍ فى الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَن أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ، [1] لها دلالة على حرمة الانتحار أيضاً ، علاوة على الآية الكريمة التى توضّح هذا المعنى :

وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ

١ـ الآية ٣٢، من السورة ٥ : المائدة .

اللَهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .[1]

لذا فليس للإنسان الحقّ فى ابتلاع أقراص السمّ القاتلة على الفور عند اعتقاله وتعذيبه من قبل العدوّ للحصول على اعترافه ، ولو كان انتحاره هيّناً لا ألم فيه ولا أذى ، أو كان التعذيب شديداً لا يُطاق ومنجرٍّ إلى قتل فظيع يقطّع الإنسان فيه إرباً إرباً ، فليس للإنسان أن يفرّ ـ باختياره ـ بالانتحار السهل السريع من القتل الاشدّ ، فلو سجنه عدوّه فى غرفة بنيّة إلقائه فى البحر وإغراقه ، فليس له الانتحار بفتح صمّام الغاز واستنشاق الغاز المسموم مثلاً ، ولو كان هذا الموت أخفّ وطأةً من ذاك .

وكذا الحال للجنود المسلمين على ظهر سفينة متأهبّة لقتال الكفّار فرماها الكفّار وأحرقوها بالنفط والبنزين ، أو بالصواريخ وسائر الاسلحة المحرقة ، فرأى المسلمون بأُمّ أعينهم موتهم الحتمىّ حرقاً ، فليس من حقّهم مع ذلك الفرار من الاحتراق برمى أنفسهم فى البحر ليموتوا غرقاً حسب اختيارهم .

وكذا فى حالة مريض بمرض مستعص مُلك ، كبعض أقسام السرطان الذى تصبح الحياة معه مرارةً ليس إلاّ ، فليس مِن حقّ هذا المريض أن ينهى حياته بالانتحار ، أو أن يطلب من صديقه الدكتور المعالج أو ممرّضه وصديقه الحميم أن يعجّلا فى موته بإعطائه مصلاً يقضى عليه فيموت قبل أجله الطبيعىّ ، فهذه كلّها تعدّ قتلاً للنفس محرّمةً ممنوعة .

وسرّ ذلك أنّ الإنسان ليس ـ فى الحقيقة ـ مالك نفسه ليمكنه اتّخاذ القرار بنفسه فى مسألة حياته أو موته ، بل إنّ مالكه وخالقه وربّه ومحييه ومميته هو الله عزّ وجلّ الذى أغلق جميع هذه الابواب أمامه ، وكلّفه أن يسعى بكلّ

١ ـ الآية ١٩٥، من السورة ٢ : البقرة .

ماأُوتى من قوّة فى إدامة حياته وتأمين بقائه حتّى يأتيه الموت الذى لابدّ منه .

وذلك لانّ الإنسان وحقيقته ووجوده ليست بقيام بدنه وجسمه ، ليكون له الخيار فى تركه والفكاك منه ، بل إنّ واقعيّته وحقيقته فى نفسه الناطقة وروحه ، وهى لاتموت بموت بدنه ، وعليه أن يبقى فى هذه الدنيا مادام لم يصل بعدُ إلى كماله ، مهما تجشّم المصاعب والمشكال ، إذ ربّما كانت هذه المصاعب أيضاً من موجبات تكامله الروحىّ ؛ والانتحار هو الموت قبل الموعد الطبيعىّ ، وهو قطف الثمرة الفجّة من الشجرة قبل نضجها ، وخلع ثوب النفس الناطقة وانتزاعها من البدن قبل فعليّتها وهى لاتزال فى نطفة الاستعداد والقابليّة .

وعلى هذا الاساس فلا يُشاهَد وقوع الانتحار بين المسلمين أبداً ، وإذا ما حصلت كلّ سنة حادثة أو حادثتان من هذا القبيل فهى ناجمة من جهل هؤلاء بهذه المسألة ، وبتخيّلهم الخلاص من هذه الدنيا ومحنها وآلامها ومصائبها ، غافلين عن أنّ نار جهنّم أشدّ من هذه المحن والآلام وأكثر إحراقاً وصهراً .

أمّا فى بلاد الكفر ، وخاصّةأُوروبّا وأمريكا فالانتحار من الشيوع للحدّ الذى صار يشكّل رقماً ملحوظاً كلّ يوم من الوفيّات فى المدن ، فهم ينتحرون بمجرّد الاصطدام بعقبة أو مشكلة ، وهم لهذا السبب ضعيفو الإرادة قليلو الصبر والتحمّل ، لايمتلكون قدرة تحمّل مشاكل الأمراض الصعبة ، والاختلافات الشديدة بين الازواج ، أو مع الجيران ، ومشاكل الفقر والفاقة ، والفشل فى الامتحانات النهائيّة ، وامتحانات القبول فى الجامعات وغيرها ؛ فهم يقدمون على الانتحار بمحض وقوع بعض هذه المشاكل .

و قد سمعتُ مراراً أنّ فى إنجلترا ؛ حيث يندر أن يرى الناس

المحرومون هناك إشراق الشمس طوال أيّام السنة ، ويقضون أغلب أوقاتهم فى تلك الجزيرة الصغيرة ذات السواحل المطلّة على البحار ، فى جوٍّ غائم مكفهّر بالغيوم السوداء والهواء الرطب القادم من البحر ، لذا فإنّ الخروج خارج المدن للنزهة والمتعة فى الايّام المشمسة النادرة يعدّ مهمّاً جدّاً ، وحين تشرق الشمس يوماً يبدو وكأن حياةً جديدةً قد نُفخت فيهم ؛ فى مثل هذه الاجواء ، لو وُعد الفتيان هناك بإخراجهم للنزهة خارجاً فى يوم مُشمس ، فإنّهم سيُقدمون على الانتحار لو بقيت الشمس غائمة ذلك إليوم ! وهم يقدمون على الانتحار إثر النزاعات العائليّة الطفيفة التى نشاهد ونعانى من أشدّ منها بيننا !

لقد صار واضحاً من هذه الآيات التى فى القرآن الكريم و التى بيّنت النهى عن قتل الولد ، أنّ هناك نوعين رائجين لقتل الاولاد بين عرب الجاهليّة ، وقد منع البارى سبحانه على يد رسول رحمته كلا النوعين بنحوٍ أكيد وقاطع :

الاوّل : قتل الاولاد عموماً ، الذكر منهم والأُنثى ، الذى تدلّ عليه آيات وَلاَ تَقْتُلُو ٰا أَوْلَـٰدَكُمْ مِنْ إِمْلَـٰقٍ، أوخَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ، أو قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًا بغَيْرِ عِلْمٍ التى ورد ذكرها ، ويستنتج منها أنّ عرب الجاهليّة إذا مرّ عليهم عامَ قحطٍ ومجاعة فإنّهم كانوا يقتلون أولادهم لئلاّ يرونهم يعانون شظف العيش وشدّة الجوع والمسكنة .

وقال العلاّمة الطباطبائىّ فى تفسيرها : الإملاق : الإفلاس من المال والزاد ، ومنه التملّق ، وقد كان هذا كالسنّة الجارية بين العرب فى الجاهليّة لتسرّع الجدب والقحط إلى بلادهم ، فكان الرجل إذا هدّده الإفلاس بادرَ إلى قتل أولاده تأنّفاً من أن يراهم على ذلّة العدم والجوع .

وقد علّل النهى بقوله : نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، أونَحْنُ نَرْزُقُهُمْ

وَإِيَّاكُمْ ، أى إنّما تقتلونهم مخافة أن لاتقدروا على القيام بأمر رزقهم ، ولستم رازقين لهم ، بل الله يرزقكم وإيّاهم جميعاً فلا تقتلوهم .[١]

الثانى : قتل البنات بالخصوص ، وكانوا يدفنوهنّ أحياءً ، كما دلّت عليه آية : وَإِذَا الْمَوْءُ و دَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ، لانّ معنى الموؤودة البنت التى تُدفن حيّة ؛ فقد كان الغزو والقتل يكثُر فى الجاهليّة بين العرب ، وكان يحدث أن تصبح بناتهم أسيرات فى أيدى أعدائهم ، فكان هذا الاسر غإلياً عليهم وصعباً لايُحتمل ، إذ كانوا يخشون أن تصبح أعراضهم فى بيوت وأيدى أعدائهم يفعلون بها ما يشاؤون ، وهو أمر لم ترتضِه حميّتهم وغيرتهم ، فكانوا يقتلون بناتهم كى لايكون لهم بنت قد تصبح فى الحرب والغارة طعمةً بيَدِ منافسيهم وأعدائهم .

قال فى « مجمع البيان » : المَوْءُودَةُ مِن وَأَدَ يَئِدُو أْداً، وكانت العرب تئد البنات خوف الإملاق .

قال قتادة : جاء قيس بن عاصم التميمىّ إلى النبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : إنّى وأدتُ ثمان بناتٍ فى الجاهليّة ، فقال : فأعتق عن كلّ واحدةٍ رقبة .

قال : إنّى صاحب إبل .

قال : فاهدِ إلى مَن شئتَ عن كلّ واحدة بدنة .

قال الجبائىّ : إنّما سُميّت موؤودة لانّها ثقلت فى التراب الذى طُرح عليها حتّى ماتت ؛ وهذا خطأ ، لانّ الموؤودة من وَأَدَ يَئِدُ معتلّ الفاء وفى الثقل آده يؤده : أثقله وهو معتلّ العين ، ولو كانت مأخوذة منه لقيل مؤودة

---

١ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٧، ص ٣٩٧، ذيل الآية الواردة فى سورة الانعام : وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلَـٰدَكُمْ مِن إِمْلَـٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .

على وزن معوودة .

وروى عن النبيّ أنـّه سُئل عن العزل فقال :

ذ َاكَ الوَأْدُ الخَفِيُّ . [1]

وورد فى « مجمع البيان » أيضاً أن الموؤودة هـى الجاريـة المدفونـة حيّـةً ، وكانت المرجئة إذا حـان وقـت ولادتهـا حفـرت حفـرة وقعـدت علـى رأسـها ، فإن ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة ، وإن ولدت غلاماً حبسته . [2]

قال الشيخ الطنطاوىّ : المَـوْءُدَة المدفونـة حيّـاً ؛ وكـان العـرب يدفنـون بناتهم أحياءً خوف الفقر والعار . وسميّت موؤدة لانـّها تثقـل فى الـتراب الـذى يُطرح عليها حتّى تموت . [3]

وقد منع صعصعة بن ناحية قومه مـن هـذا العمـل ، لـذا أنشـد الفـرزدق ، وكان من تلك القبيلة ، يفتخر :

وَمِنَّـا الَّـذِى مَـنَعَ الـوَائـدَا تِو َأحْيَا الوَئِيـد فَلَـمْ تُوأدِ [4]

وقد قال العلاّمة الطباطبائىّ : وكانت العرب تئد البنـات خوفـاً مـن لحـوق العار بهم من أجلهنّ ؛ كما يشير إليه قوله تعالى :

وَإِذَا بُشِّرَ أحَدُهُمْ بالأنْثَى' ظَلَّ وَجْهُهُ و مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيـمٌ * يَتَـوَرَى' مِـنَ الْقَوْمِ مِن سُو َءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أيُمْسِكُهُ و عَلَى' هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ و فِـى الـتُّرَابِ أَلاَ سَـآءَ مَا يَحْكُمُونَ . [5]

١ـ «مجمع البيـان» ج ٥ ، ص ٤٤٣ طبعـة صيـدا ؛ والحـاكم فى «المسـتدرك» ج ٤، ص ٦٩ عن بنت وهب الاسديّة ، وقدروت هذه العبارات عن رسول اللـه صلّى اللـه عليه وآله .

٢ ـ «مجمع البيان» ج ٥ ، ص ٤٤٤ .

٣ ـ رأينا لاحقاً أنّ الشيخ الطبرسىّ قد ردّ فى «مجمع البيان» هذا الاحتمال .

٤ ـ تفسير «الجواهر» ج ٢٥ ، ص ٨١ .

٥ –الآياتان ٥٨ و٥٩ من السورة ١٦: النحل .

والمسؤول بالحقيقة عن قتل المؤودة ، أبوها الوائد لها لينتصف منه وينتقم ، لكن عدّ المسؤول فى الآية هى المؤودة نفسها ، فسُئلت عن سبب قتلها كنوعٍ من التعريض والتوبيخ لقاتلها وتوطئةً لان تسأل الله الانتصاف لها من قاتلها حتّى يُسأل عن قتلها فيؤخذ لها منه .[١]

كان ما بيّناه مشروحاً مسألة قتل الاولاد التى عدّت من الذنوب الكبيرة غير القابلة للعفو ؛ وبالإضافة إلى ذلك فإنّ على الاب الذى يقوم بقتل أولاده أن يدفع ديتهم ، وكذا الامر بالنسبة للأُمّ ، وعُيّنت دية الولد ألف دينار شرعىّ ذهباً ودية البنت بنصف ذلك ؛ ودفع الدية من قبل الاب والأُمّ يحدث إن كانت الجناية عمديّة ، فتُدفع لغير القاتل من سائر الورثة ، الأقرب فالأقرب بنحو الإرث .

فإن كان القاتل الاب خاصّة فإنّ الدية بتمامها تدفع إلى الأُمّ ، ولا يُقتل الاب بولده ، لكنّ الدية تؤخذ منه ، إلاّ إذا نزلت الأُمّ عن حقّها فى تمام الدية أو بعضها ، حيث لايبقى ـ على هذا الفرض ـ فى ذمّة الاب شىء .

أمّا إن كان القاتل خصوص الأُمّ ، فإن أصرّ الاب على القصاص فإنّها تُقتل بولدها ، ابناً كان أم بنتاً ، أمّا إن عفى الاب عن حقّه فى القصاص ورضى بالدية فإنّ عليها أن تدفع له عن قتل ولدها ألف دينار ذهباً ، فإن كان القتيل بنتاً دفعت نصف ذلك ، إلاّ إذا نزل الاب فى الحالَين عن حقّه فى تمام الدية أو بعضها وعفى عن الأُمّ ، فتصبح الأُمّ إذ ذاك بريئة الذمّة ليس عليها شىء .

وفى جميع هذه الحالات المذكورة فإنّ الاب القاتل ، أو الأُمّ القاتلة ، يلزمها دفع الكفّارة أيضاً ، وهى تحرير رقبة مؤمنة فى سبيل الله ، أمّا إن

١ ـ «الميزان» ج ٢٠، ص ٣٢٣.

كانت الجناية على الولد من أبيه أو أُمّه خطـأً غـير عمـدىّ ، فـلا ديـة عليـهما ، بل تلزم العاقِلة ، والعاقلة هم أقارب الولد القتيل من قِبَـل أبيـه ، فيدفعـون ديتـه كلٌّ حسب قرابته مـن جهـة مراتـب الإرث . ويتوجّـب كذلـك فى هـذه الجنايـة غير العمديّة على الاب أو الأُمّ تحرير رقبة مؤمنة فى سبيل اللـه .

فلو تواطأ الاب والأُمّ كلاهما فـأوردا جنايـةً عمديّـةً علـى ولدهمـا فـإنّ عليهما دفع الدية إلى سائر ورثة الابن ، الاقرب فـالاقرب ؛ (يجـب إعطـاء الجـدّ والجدّ من جهة الاب والأُمّ ، وكذلك إخـوة وأخـوات القتيـل ، أى أبنـاء وبنـات هذين الابوين)، ويجب كذلك تقسيم الكفّارة أيضاً .

كان هذا بياناً لمسائل تتعلّـق بقتـل الولـد ، عمـداً أو خطـأً ، وعلينـا الآن مناقشة مسألة قتل الجنين التى تعدّ هـى الأُخـرى مـن الذنـوب الكبـيرة ، سـواءً كـان الجنـين فى مراحـل الحمـل الأُولى أم فى آخرهـا ، قـدّر لهـا ـ بمختلـف أشكالها ـ العذاب الإليم ، وأُوجب عليها دفع الدية كذلـك ، فـإن كـان الجنـين ذا روح لزمت الكفّارة أيضاً علاوةً على الدية .

ونُـورد لإيضـاح المطلـب خلاصـة بيـانى المرحـوم المحقّـق الحلّـىّ فى كتـاب « شـرائع الإسـلام » ، و الشـهيد الثـانى زيـن الديـن العـاملىّ فى كتـاب الروضة البهيّة» كتاب الديات ، باب دية الجنين ، نظراً لاهمّيّة الموضوع :

قيمة النطفة عشـرة دنانـير ذهبـاً، يـزن كـلّ دينـار منـها مثقـالاً شـرعيّاً واحداً ؛ فمن أفزع مجامعاً فعزل ، فعلى المفزع عشـرة دنانـير ذهبـاً (ديـة ضيـاع النطفة) يدفعها لهما فيقسمانها أثلاثاً، للرجل ثلثان (٢٣) وللمرأة ثلث واحد .

ولو أفزعت المرأة الرجلَ ، حـال الجمـاع ، فـأراق منيّـه خـارج الرحـم ، فعليها أن تدفع له تمام الدية ، أى عشرة دنانـير ذهبـاً ؛ وإن أفـزع الرجـلُ المـرأةَ فأُريق المنى خارجاً ، فعلى القـول بحرمـة عـزل الرجـل اختيـاراً ، علـى الرجـل أن يـدفع الديـة للمـرأة ، وأمّا على القـول الاقوى بأنّ العـزل اختياراً غير حـرام

على الرجل ، فلا دية عليه .

فإنأُريقت النُّطفَــة فاسـتقرت فى الرحـم ، فـإنّ ديتـها وقيمتـها عشـرون ديناراً ذهباً ، يتوجّب دفعها على من تسبّب بإسقاطها .

فإن كان المسبّب المـرأة ، فعليـها أن تدفـع للرجـل عشـرين دينـاراً ، وإن كان المسبّب الرجـل ، فعليـه أن يدفـع ذلـك للمـرأة ، وأمّـا إذا تسـبّبا سـويّاً فى ذلـك ، فعليـهما أن يدفعـا للجـدّ والجـدّة ولإخـوة وأخـوات هـذه النطفـة الـتى تشكّل مبدأ خلق الطفل .

فإن صارت النطفة عَلَقَةً ، صارت ديتـها أربعـين دينـاراً ، فالنطفـة حـين يمرّ عليها زمن تتحوّل فيه إلى علق كعلق الـدم تدعـى علـى إثـر تحوّلهـا وتبدّلهـا عَلَقَةً .

فإن صارت العلقة مُضْغَةً صارت ديتها سـتّين دينـاراً ، فحـين يمـرّ زمـن على العلقة تصبح كمضغة اللحم الذى يؤكل ويُمضغ تدعى مُضْغَةً .

فإن نشأ فى المضغـة عظـم (أى ابتـداء تكـوّن وخلـق العظـام مـن هـذه المادّة) صارت ديتها ثمانين ديناراً .

فإن اكتمل خلق الجنين فاكتسـت العظـامُ لحمـاً وشـقّت جوارحـه وصـار خلقاً سويّاً قبل أن تلجه الـروح ، صـارت ديتـه مائـة دينـار ، ابنـاً كـان الجنـين أم بنتاً .

ودليـل هـذا التفصيـل ومسـتنده أخبـار كثـيرة ، مـن جملتـها صحيحـة محمّد بن مسلم عن الإمام الباقر عليـه السـلام ، وهنـاك بـالطبع روايـات أُخـرى وردت فى هـذا الموضـوع ، مـن جملتـها روايـة أبى بصـير عـن الإمـام الصـادق عليه السـلام تدلّ على أنّ دية الجنين كيفهما كان سـبب الإسـقاط غُـرَّة ،[1] سـواءً

١ ـ الغُرَّة ، بضمّ الغين وفتح الراء المشدّدة : الغلام أو الوصيفة .

كانت الغرّة غلاماً أم وصيفةً يُشترط أن تكون غير عجوز ولا صغيرة ، لها أقلّ من سبع سنين ؛ لكنّ الرواية الأُولى أصحّ سنداً ، والشهرة الفتوائية على أساسها أكثر .

وحالات قتل الجنين السابقة جميعها لاتستلزم الكفّارة (أى تحرير رقبة مؤمنة فى سبيل الله)، إذ إنّ لزومها مشروط بحياة القتيل ، وقد افترضنا حتّى الآن أنّ الجنين لم تلجه الروح بعد ، فلا كفّارة .

أمّا إن ولجت الروحُ الجنين ، صارت ديته دية إنسان كامل ، فإن كان ابناً صارت ديته ألف دينار شرعىّ ، تعدل ألفى مثقال شرعىّ من الذهب المسكوك ، أمّا إن كان الجنين المسقط بنتاً فديتها خمسمائة دينار شرعىّ يدفعها من تسبّب بهذا الإسقاط عمداً إل؟ الوارث الآخر ، أى الاب إن كان القاتل هو الأُمّ ، أو الأُمّ إن تسبّب الاب بالقتل ، أو إل؟هما إن كانت الجناية من غيرهما .

وعلى الفرض الاخير فإ'ّ الاب والأُمّ يقسمان دية الابن القتيل بينهما بنسبة الثلثان والثلث على الترتيب .

فلو تعذّر تشخيص هوية الجنين ابناً كان أم بنتاً ، كما لو مات فى بطن أُمّه وماتت أُمّه أيضاً ، فيؤخذ من الجانى قاتل الجنين فى هذه الحالة نصف مجموع دية الولد والنبت ، أى سبعمائة وخمسون ديناراً

$$\frac{١٠٠٠+٥٠٠}{٢} = ٧٥٠ .$$

وكثيراً ما يتّفق وقوع هذا الفرض ، كأن يقدم الجانى فى جناية على الأُمّ وجنينها ، أو على الجنين ثمّ تموت الأُمّ موتاً طبيعيّاً ، وينبغى فى هاتين الحالتين دفع مبلغ سبعمائة وخمسين ديناراً لتعذّر معرفة هوية الجنين .

وينبغى فى هذه الحالة العلم أنّ موت الجنين قد وقع بعد حياته فى رحم الأُمّ ، لانّ موته قبل الأُمّ أو بعدها لاتأثير له فى اشتباه حاله ، بل إنّ المؤثّر فى

تـردّد حالـه بـين الذكـورة والأُنوثـة هـو موتـه بعـد حياتـه ، عنـد افـتراض عدم خروجه من بطن أُمّـه وافـتراض ولـوج الـروح فيـه قبـل الجنايـة ، حيـث تصبح ديته نصف مجموع دية الولد والبنت .

وفى هذه الكيفيّة من قتل الجنـين فالكفّـارة أيضـاً سـتلزم القـاتل ، عمديّـاً كان القتل أم خطأً ، وعلى فـرض التعمّـد فـإنّ الديـة سـتلزم القـاتل وتكـون فى ذمّته فينبغى عليه دفعها عـلاوةً علـى الكفّـارة أمّـا علـى فـرض القتـل الخطـأ ، فعليـه الكفّـارة فقـط ، وتلـزم الديـة العاقلـة (أقربـا أب الجنـين)، يدفعونهـا الاقرب فالاقرب .

كان هذا خلاصة أقـوال المحقّـق والشـهيد الثـانى فى الديـة وكفّـارة سـقط الجنين .

وينبغـى العلـم أنّ المؤثّـر فى الذنـب والديـة وكفّـارة سـقط الجنـين هـو القضاء على الجنين فى بطـن أُمـه ، مـهما كـانت الوسـيلة إلى ذلـك ؛ سـواءً كـان ذلـك نتيجـة حمـل شـىء ثقيـل أم ابتـلاع دواء ، أم اسـتعمال بعـض المـوادّ ، أم زيادة تناول بعـض الاغذيـة المحلّلـة أكـثر مـن المتعـارف ممّـا ينجـرّ إلى إسـقاط الطفل ؛ كأن يقال مثلاً إنّ تنـاول الزعفـران أكـثر مـن الحـدّ المتعـارف فى ابتـداء الحمل يؤدّى إلى إسقاط الجنين ؛ وسـواءً كـان ذلـك بعمليّـة جراحيّـة أم بأمثـال استنشـاق بعـض الفـازات ، أم العبـور مـن بعـض أقسـام الاشـقة المسـتعملة فى المجالات الطبّيّة ، فإنّ إسقاط الجنـين قتـلٌ فى كـلّ الاحـوال وذنـبٌ مـن الذنـوب الكبيرة ومحرّم من أعظم المحرّمات الإلهيّة .

إنّ علـى الاطبّـاء والجرّاحـين الذيـن يمزّقـون الطفـل حيّـاً بالعمليّـة الجراحيّة إرباً إرباً فيخرجونه ، أن يترقّبوا العـذاب الإلهـىّ الإليـم ، وهـو الخلـود فى نار جهنّم ، وعليهم دفع الدية والكفّارة أيضاً . فـإن كـانت الـروح قـد ولجـت الطفـل ، وكان الطبيب الجـانىّ امـرأة ، فإنّ لحاكم الشـرع ـ إن طلب ولىّ القتيـل

القصاص ـ أن يُعدمتلك الطبيبة الجانية، سواءً كان الطفل البرىء ابناً أم بنتاً .

أمّا إذا تصدّى لهذا العمل المنكر القبيح طبيب رجل ، فلحاكم الشرع ، بناءً على طلب ولىّ الطفل القصاص ، أن يُعدم الطبيب إن كان القتيل ولداً ، فإن كان بنتاً فله إعدامه بها ويبقى على ورثة الطفل القتيل دفع نصف الدية الكاملة (أى خمسمائة دينار شرعىّ مسكوك) إلى ورثة الطبيب .

وفى حال عدم طلب ولى الطفل القتيل القصاصَ ، فلحاكم الشرع عند ثبوت الجناية لديه أن يُعزّر الطبيب بالشكل الذى يراه مناسباً ، بحبسٍ أو جلدٍ ، ليكون ذلك رادعاً عن هذا العمل القبيح غير اللائق .

إنّ على الآباء الذين يجبرون نساءهم على إسقاط جنينهنّ ، والأُمّهات اللاتى يقمن أنفسهن بإسقاط الجنين ، أن ينتظروا الذلّ والانتقام والعقاب الإليم الذى سيُنزله الله الخالق بهم بقتلهم هذا الطفل المظلوم ، وسيطوى ـ عاجلاً أو آجلاً ـ ملفّ حياتهم الجميلة فما الذى سيحلّ بهم فى البرزخ ، وفى يوم القيامة ؟ الله وحده يعلم .

ونُلاحظ ممّا قيل سابقاً إلى أىّ حدّ انغمرت الدول الكافرة فى الضلالة والغىّ ونهج الذلّ والحياة التعيسة البائسة ، بحيث اعتبروا إسقاط الجنين فى محاكمهم وقوانينهم عملاً مشروعاً فأقرّوا بذلك علناً حكم قتل البشر .

فهم يعدمون ـ رأى العين ـ الطفل المعصوم ، أى زينة حياتهم وعيشهم ، وأحلى ثمار عالم وجودهم ، ثمّ يسمّون أنفسهم بالبلاد المتمدّنة المتقدّمة ، بل وصلوا إلى ادّعاء حمل لواء المدنيّة والرقىّ ، فى حين أنّ أعمالهم هذه لا تختلف أبداً مع أعمال عرب الجاهليّة ، فأُولئك كانوا يقتلون أطفالهم ويئدونهم أحياءً ، وهؤلاء يقومون بالعمل نفسه بأُسلوب آخر ، لكنّهم فى النهاية يمتدحون أعمالهم ويباركونها ويلعنون أعمال عرب الجاهليّة

ويتنفّرون منها ؛ تَبَاً لَهُمْ وَلِمَا عَملَتْ أَيْدِيهُمْ وَلُعِنُوا بِمَا فَعَلُوا وَبِمَا قَالُوا .

ونستخلص هنا أيضاً أنّ هذا النوع من الحضارة ، و كلمة الحضارة هذه ، ليست إلاّ بربريّة ووحشيّة وهمجيّة ، لكنّها احتلّت فى كتب اللغة صفة و أسماء الحضارة والمدنيّة والمدينة ، ثمّ وضعت بالتزوير والخداع أقنعه برّاقة جميلة لاعمالها المنكرة القبيحة ، وحاولت فرض همجيّتها على العالم بالتزوير وبالاضواء التى تخطف أبصار العوامّ الغافلين .

نعم ، ليس من البعيد أن يصبح إسقاط الجنين وما شابهه قانونيّاً فى بلد كإنجليزا حيث يُعتبر عمل اللواط مشروعاً ، تجيزه المحاكم وتصوّب قانونيّته فى مجلسَى العموم والشيوخ ، فهى جميعاً أُمور يشبه بعضها البعض تستند على أساس برنامج الحيوانيّة ، بل أضلّ سبيلاً وأكثر تخريباً وأشدّ ظلمة ، فلم يشاهد أبداً عمل اللواط أو إسقاط الجنين العمدىّ بين الحيوانات ؛ ويتّضح هنا جيّداً معنى الآية القرآنيّة الشريفة : بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، [١] أو أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً . [٢]

إنَّ إسقاط الجنين محرّم فى الإسلام حتّى لو انعقدت نطفته عن طريق الزنا ؛ فلو زنت امرأة أو وُطئت بشبهة [٣] فحملت فلا حقّ لها فى إسقاط

١ـ الآية ١٧٩، من السورة ٧: الاعراف . وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنس لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـ'ئِكَ كَالأَنْعَـ'مِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـ'ئِكَ هُمُ الْغَـ'فِلُونَ .

٢ ـ الآية ٧٢، من السورة ١٧: الإسرآء . وَمَنْ كَانَ فِى هَـ'ذِهِ أَعْمَى' فَهُوَ فِى الأَخِرَةِ أَعْمَى' وَأَضَلُّ سَبِيلاً .

٣ ـ وهو الجماع الحرام بدون عقد شرعىّ بظنّ الحلّيّة فى الشبهة الموضوعيّة ، كأن يجامع أحدٌ فى الليل أو فى الظلام أو فى سكرة النوم أو الغيبوبة امرأةً أجنبيّة على أنّها زوجته ، ثمّ يظهر أنّها لم تكن زوجته بل كانت محرّمة عليه .

جنينها ، ولو شهد الشهود عند الحاكم على أنّها زنت فعلى الحاكم الصبر حتّى تضع حملها ثمّ ينفّذ حكم الزنا عليها من حدٍّ أو رجم ، لانّ إجراء الحدّ عليها حال حملها سيؤدّى إلى تضرّر الجنين أو إسقاط ، وهو أمر غير جائز .

لاريب أنّ الإنسان حين يمعن فى هذه الاحكام المتقنة المحكمة سنكشف ليده معنى يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ وسُبُلَ السَّلَامِ .انظروا أىّ طرق سلام وسلامة وعافية مطلقة واجتنابٍ لكلّ فساد وضياع قد أشار القرآن إليها وقاد أتباعه نحوها .

إنّ النطفة إذا استقرّت فى الرحم فلا يمكن إخراجها لاىّ سبب ، إذ يعدّ إخراجها بأىّ وسيلة سِقطاً يستلزم أداء عشرين ديناراً ،

و العزل[1] يمنع استقرار النطفة فى الرحم ، لا إخراجها بعد الاستقرار ، لكنّه يبقى مع ذلك محلّ إشكال ، وعلى فرض الحرمة فهو يوجب أداء ديته عشرة دنانير .

والإشكال فى العزل أنّ الزوجة بالعقد الدائم هى صاحبة الحقّ فى النطفة ، فلا يمكن للرجل العزل بغير رضاها ، وعليه أن يدفع لها كلّما عزل عنها دية ذلك .

وكما رأينا فإنّ إراقة النطفة فى الرحم حقّ للرجل أيضاً ، فليس للمرأة ـ دائميّةً كانت أو منقطعة ـ أن تجبر الرجل بأىّ وجهٍ من الوجوه على العزل .

النطفة فى الحقيقة هى المادّة الاوّليّة لاصل الإنسان وطينته ، كما هو الامر فى بيضة الدجاجة أو فى بذور التفّاح بالنسبة إل؟ الدجاجة أو شجرة التفّاح ، فبعد أن تطوى المراحل والمنازل المختلفة نشوءاً من التراب ،

١ـ وهو إراقة الرجل ماءه خارج رحم زوجته .

تُمزج بعدها بالماء وتطوى الدرجات والمراتب فى سير استعدادها الطبعىّ والطبيعىّ حتّى تتمّ لها قابليتها لتكون مبدأ تكوين الإنسان ، وبعد مسير مدارج الحركة الجوهريّة فى الرحم تتبدّل إلى إنسان كامل .

فالعزل يعنى إهدار وتضييع هذا الاستعداد والقابليّة قريبة الوصول من مرحلة الفعليّة ، وإفساد وإتلاف مبدأ خلقة وطينة إنسان وإيداعها فى بُوتقة الإعدام ؛ وقد رأينا فى هذا الامر وفقاً للرواية الواردة فى « مجمع البيان » عن الرسول الاكرم صلّى الله عليه وآله أنّه قال : العَزْلُ هُوَ الوَأْدُ الخَفِىُّ ،[1] أى أنّ العزل فى الحكم والأُسلوب هو نفس وأد الطفل ، غاية الامر أنّ النتيجة فى العزل خفيّة مستورة ، وفى الوأد ظاهرة بيّنة .

إنّ للعزل ضررين رئيسيّين للرجل والمرأة ، وبالطبع فإنّ الكلام حول الاضرار البدنيّة والمزاجيّة ، وهى غير الاضرار الأُخرى الروحيّة التى يسبّبها ؛ فهو بالنسبة للرجل يؤدّى إلى ضعف الاعصاب وخمولها الذى يصل بالتكرار إلى الحدّ الذى يصبح علاجه صعباً ومستعصياً .

أمّا بالنسبة للمرأة فيسبّب تهييج الرحم إلى غذائه ، أى النطفة ، ثمّ تركه بلا إشباع من الغذاء ، وهذا التهيّج سيؤدّى إلى نشوء مرض فى الرحم باسم الورم الليضىّ ، وربّما سبّب أحياناً مرض سرطان الرحم . كما أنّ تناول الدواء لمنع الرحم من قبول النطفة ومنع حمل النساء ، الذى يتداول

---

١ ـ ذكرنا سابقاً أنّ الحاكم قد روى هذا الحديث فى «المستدرك» ج ٤، ص ٦٩ بإسناده عن بنت وهب الاسديّة ، قالت : وسئل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن العزل ؛ فقال : هو الوأد الخفىّ .

وروى فى كتاب «إحياء العلوم» ج ٤، ص ٢٤٢ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حول من ترك العزل فاستقرّ الماء فى محلّه «أنّ له أجر غلام ولو له من ذلك الجماع وعاش فقتل فى سبيل الله تعالى وإن لم يولد له» .

هذه الايّام بشكل أقراص منع الحمل ، له أضرار بالغة على مزاج المرأة ، ويُعقب ضعف الاعصاب ، وينجرّ بعض الاحيان إلى الجنون والهستيريا .

وعلاوة على ذلك ، فهو يؤدّى إلى ضعف القلب ،[1] وسرطان الرحم ، واختلالات فى الدورة الدمويّة ، وفقدان انتظام العمل الطبيعىّ للغدد ، وإلى الإفرازات الزائدة ، وإل؟ أمراض كثيرة أُخرى أصبحت تمسك بتلابيب المجتمعات البشريّة الفقيرة .

إن تناول هذه الادوية بأىّ شكل وكيفيّة ، وبأىّ تركيب صنعت ، سيؤدّى إلى قطع جريان الحيض فى أوقات معيّنة ومحدّدة ، ممّا يؤدّى إلى عدم تقبّل الرحم للنطفة ، لكنّه يمتلك عواقب وخيمة ، لذا فقد كانت دائرة الصحّة فى زمن الطاغوت ـ و من خلال عدم اهتمامها بأوضاع الفقراء ومصالحهم ـ تضع مقادير كبيرة من هذا الدواء فى المستوصفات الحكوميّة العامّة فى متناول أيدى النساء بشكل مجّانىّ لتشجيع الناس على منع الحمل والعقم .

وكانت النساء المسكينات يراجعن تلك المستوصفات فيأخذن من ذلك الدواء ويستعملنه فيصبحن أسرى مفاسده وتبعاته ، أمّا النساء الثريّات من الاشراق فلا يقربن هذا الدواء أبداً ، وخير مصداقٍ يوضّح هذا الأمر

---

١ – يقول الدكتور البروفيسور سيف الدين نبوى التفرشى فى كتاب « درمان رايگان با ورزش » (= العلاج المجانىّ بالرياضة) ص ٥٤ :

يوجد فى أبدان النساء أنزيم يدعى « ألفا بروتين كولسترول» بكمّيّة نفوق كثيراً مقدارها فى أبدان الرجال . و يتسبب عن وجود هذا الانزيم قلة تعرّض النساء للاصابة بامراض عروق القلب قبل بلوغهن سن اليأس ، أى فى أعمار العشرين و الثلاثين ، الا اذا كنّ يستعملن خلال الفترة المذكورة اقراص منع الحمل او كنّ من المدمنات على التدخين حيث ستزداد نسبة تعرضهن لمخاطر الاصابة بامراض العروق ، فيصبحن كالرجال فى هذه الحال.

هو مَثَل : الموتُ حقّ .... ولكنْ للجار .

يعمد الكثير من النساء المؤمنات إلى استعمال هذه الأقراص عند زيارة المشاهد المشرّفة ، وفى موسم حجّ بيت الله الحرام لاجتناب الطمث الذى يحصل لها فى كلّ شهر والتمكّن من أداء الاعمال التى يُشترط فيها الطهارة ، فيُصبن ـ من ثمّ ـ بالضعف والامراض الجسميّة ، وتنتابهن أحياناً الامراض النفسيّة ، علاوة على احتمال حدوث اضطراب فى أيّام طمثهنّ ، فيصبحن حسب القول المعروف (مُبعدات هنا ... وقاعدات هناك)، قد احبطن عملهنّ من جهة ، و حُرمن من نيل المكتسبات الروحيّة والمعنويّة فى هذه الزيارة وهذه المناسك .

لقد وضع الشارع المقدّس للإسلام تكليفاً خاصّاً للنساء الحائضات يصحّ باتّباعه حجّهن وتصحّ عمرتهنّ أيضاً ، فلماذا نتدخّل فى تدبيره ؟ ذلك التدخّل الذى كثيراً ما يُبطل العمل ويُحبطه !

ولقد أمر النبىّ بعض زوجاته بأعمال الحجّ والعمرة الصحيحة المطلوبة ، فقمن بها حسب تعليمه ، فلماذا نُقحم فى ذلك الشبُهات ونلوّثه بأيدينا وتصرّفاتنا ، فنأتى بالعمل المتِقّن بشكل عمل مشكوك لايقين فيه ؟!

إنّ سلامة بدن المرأة وروحها إنّما هى فى الإنجاب ، فى الحمل والإرضاع ، فطوبى للنساء اللواتى ينشّئن الاطفال فى بطونهنّ ، واللاتى يحملنهم على صدورهنّ ليُرضعنّهم ، فهذه هى الجنّة ، وهذه هى سُبل السلام .

لقد خلق الله خالق الوجود مزاج المرأة بشكل يعدّ معه فى بدنها دوماً ـ من زمن البلوغ إلى مرحلة إل؟أس ـ غذاءً خاصّاً يناسب مزاج الطفل ويلائمه ، وهو دم الحيض الذى يصبح فى زمن الحمل غذاء الطفل فى رحم

الأُمّ ، والسبب فى أنّ النساء لايعهدن غالباً الطمث زمن الحمل هو أنّ هذا الدم يُصرف فى تغذية الجنين فى الرحم .

وحين تضع النساء حملهنّ فإنّ هذا الدم يتبدّل إلى حليب أبيض لذيذ سائغ ، مريح وملائم لمزاج الطفل الوليد ، ثرّاً متدفّقاً من الاثداء ؛ لذا فإنّ النساء لايرين ـ غالباً ـ الطمث أيّام الرضاع أيضاً ، أمّا عند عدم الحمل والإرضاع فسيبقى هذا الغذاء بلا استعمال ، فيُبعد عن الرحم خارجاً .

أى أنّ المرأة ستسبّب ـ بعدم الحكمل ولإرضاع ـ بإهدار وتضييع جزء من قواها البدنيّة التى جعلها الله فى هيئة الدم ، لذا فهى بعيدة عن رحمة الله ، لن يمنحها خالقها فى هذا الحال رخصة العبادة والخشوع والخضوع ، الحاصلة بالصلاة والصيام والطواف .

إنّ على المرأة ؛ شأنها شأن الرجل ؛ أن تطوى دوماً طريق التقرّب إلى الله تعإلى ، وذلك يحصل حين تشترك مع الرجل فتصلّى وتصدم وتطوف ، وهذا يتأتّى لها فقط حين تكون حاملة أو مرضعة ، فهى فى هذه الحال قرينة رحمة الله ، فهى غير حائضة ، وقد مُنحت رخصة الركوع والسجود والقيام والطهارة ، ومنحت إجازة الصيام ، وأُعطيت الرخصة فى الطواف بالكعبة .

لذا فإنّ على النساء أن يكنّ دوماً إمّا حاملات أو مرضعات ليواكبن الرجال فى قافلة الإنسانيّة والحركة . نحو المعبود والمحبوب وقبلة المشتاقين وكعبة العاشقين والمنضمّين إلى حرم وحريم أمنه وأمانه .

يحصل طمث النساء حين يتخلّفن عن هذه القافلة ، ويعجزن عن المسير فيتوقّفن ، فالقاعدة والاصل عند النساء إذَن هى العبادة ، أى أنّ القاعدة والاصل عند النساء هى الحمل والإرضاع ، والطمث عندهن ؛ أى عدم الحمل وعدم الإرضاع يمثّل خروجاً عن الاصل وخلافاً للقاعدة ، فتأمّل فى هذه النكتة الدقيقة .

لقد قلتُ يوماً لاحد الاطبّاء الحاذقين الماهرين والملتدينين [١]، حين جرى ذكر هذا الموضوع : إنّ سلامة المرأة وسعادتها فى أن تكون إمّا حاملة أو مرضعةً لطفل على صدرها .

فتأمّل قليلاً ثمّ قال : أيّها السيّد ! إنّ هذه المقولة تطابق وتوافق آخر النتائج للمؤتمرات الطبّيّة التى عقدت هذا العام فى أمريكا ، وقد قدّمتُ بحث شهادتى للدكتوراه فى هذا الموضوع .

ثمّ قال : طبقاً لآخر الإحصائيّات والوثائق ، فإنّ الفتيات اللاتى يلدن قبل سنّ الثامنة عشرة لايُصبن بمرض سرطان الثدى ، وكلّما تأخّرن فى الولادة عن هذه السنّ فإنّ احتمال إصابتهن بهذا المرض سيصبح أكثر ، بحيث إذا مرّ عليهنّ ثلاثين سنة لم ينجبن فيها طفلاً فإنّ احتمال إصابتهنّ بهذا المرض سيتصاعد بشكل مضاعف ، أمّا النساء اللاتى لم يتزوجّن أصلاً ولم يُنجبن ، فإنّ احتمال الإصابة بسرطان الثدى لديهنّ كبيرجداً .

هذه المطالب تمثّل عين الحقيقة ، فقس ذلك بدعايات وإعلام الاستعمار الكافر الذى يكتب على الجدران والابواب : حياةٌ أجمل مع أولاد

---

١ ـ الدكتور الحاجّ السيّد حميد سجّادىّ ، من مفاخر أطبّاء العيون المعاصرين فى العالم ، فعلاوةً إلى نبوغه الإلهىّ فى فنّ طبّ العيون ، وحيازته لشهادتين فى التخصّص العاى فى مقدّم ومؤخّر العين (الشبكيّة والقرنيّة) ، فهو من الشباب المسلم المتفهّم الغيور المخلص والملتزم بخدمة الإلام والمسلمين . وكانت عين الحقير اليمنى مبتلاة بتمزّق الشبكيّة ، وهو من أصعب أنواع التمزّق ، حيث كان التمزّق مستديراً بشكل حدوة بقيت معه نقطة صغيرة تمسك الجزء المتمزّق ، وكانت نسبة الخطورة خمساً وتسعين فى المائة ، ويعدّ هذا النوع من العمليّة من أصعب أقسام العمليّات الجراحيّة التى تجرى فى العالم وأعقدها ، وقد أجرى العمليّة فوراً حيث دامت سبع ساعات ، ولله الحمد وله الشكر فقد كانت ناجحة وموفّقة ، شكر الله مساعيه الجميلة ؛ وأبقاه ذُخراً للمسلمين ، وختم له بالحسنى بمحمّدٍ وآله الطاهرين .

أقلّ، أو أولاد : واحد فقط أو اثنان ، وفى صفحة الإعلانات أو الملصقات الجداريّة يرسمون صورة لرجل يجرّ امرأةً وفى أيديهما بنت واحدة أو ولد واحد ، وهم يسيرون فى بهجة ومرح ، وهو رافع يده الميني مشيراً بالإصبع ـ السبّابة والوسطى ـ بشكل مفتوح إلى الاعلى ، ليشيروا أوّلاً إلى أنّ الاطفال يجب أن يكونوا اثنان فقطً ، وليشيروا ثانياً إلى ذلك بحرف v الذى يعدّ رمزاً للنجاح والموفّقيّة .

ملصقات v هذه توضع فى كلّ إدارة ومركز ، وخصوصاً فى قاعات المتشفيان والمستوصفات والاماكن العموميّة ، فيراها الناس ، ويصدّقها المساكين بالطبع فيعمدون إلى تحديد النسل ، وتذهب النساء فرحات أفواجاً إلى المستوصفات ليأخذن أقراص منع الحمل كهديّة ، غافلاتٍ عن أنّ هذه الاقراص ، كقرص الاستركنين ، إنّما هى سمّ قاتل طُلى بطلاء حلو لذيذ .

ويساهم الاطبّاء غير الملتزمين ، والمؤجورون فى إثارة الدعاية لهذا الموضوع أيضاً فى مختلف وسائل الإعلام ، وقد قال أحدهم يوماً لسيّدة ذهبت إليه للعلاج : أيتها السيّدة ! إنّ رحم المرأة له حكم الشجرة ، فكم ستستطيع الشجرة أن تعطى ثمراً ؟! فعادت هذه السيّدة إلى بيتها وبدأت فى وضع العقبات أمام حملها من زوجها .

وقد جاءنى الزوج إلى المسجد وشكاها ونقل كلام الدكتور لها ، فقلتُ : لقد غالط هذا الدكتور فى كلامه هذا ، وباصطلاح العامّة فقد استعمل الاحتيال والخديعة فى كلامه .

اذهب إلى منزلك وقل لاهلك : إنّ الشجرة المثمرة تهب الثمر مادامت حيّة بمجرّد أن تصل إلى مرحلة البلوغ ؛ بعض الاشجار تبدأ بالعطاء فى السنة الثانية ، وشوهد فى بعضها أنّها تبدأ بإعطاء الثمر من السنة الأُولى !

إنّ الاشجار المثمرة تعطى الثمار بشكل متنظم كلّ سنة ، لاتنقطع ثمارها أبداً إلاّ حين تصاب بآفة فتنخر الديدان جذورها ، وهى فى هذه الحال لم تعد شجرةً مثمرة بل صارت قطعة من الخشب مصيرها القطع ليس إلاّ .

بسوزند چوب درختان بی‌بر

سزا خود همین است مر بی‌بری را [١]

إنّ الطفل هو أطرى وأجمل ثمار الحياة وأفضلها ، وأعلى ثمار الحياة فى روض الإنسانيّة ، وأعطر أوراد حديقة البشرية . فكم قد تخلّفت عن قافلة التقدّم والرقّى تلكم النساء اللواتى أعرضن عن تربية الاطفال وتنمية براعم الريحان الآمىّ هذه ، وانصرفن عن هذا العمل الجميل السليم إلى العمل خارج البيت ؟ فالعمل الذى سيُنجزنه ، والمقام الذى سيشغلنه ، والفنّ والحرفة التى سيتعلّمنها ، وشهادات الطبّ والهندسة وسائر الفنون التى سيجمعنها ـ فرضاً ـ فيزيّنَّ بها غرفهنّ ، والسعى الذى سيسعينه إلى آخر عمرهنّ بنوايا صادقة فعلاً لخدمة المجتمع ، فكلّ هذا لا يعادل قيمةً وأهمّيّةً إنجاب طفل واحد وإرضاعه وتنشئته وتربيته وتقديمه إلى المجتمع ، لدليلين وسبين :

الاوّل : أنّ هذه السيّدة التى ملات غرفتها بشهادات البكالوريا والبكالوريوس والدكتوراه ، مهما كان المقام الذى تشغله ، ولو فرضنا أنّها زادت ذلك مائة ضعف ، هذه السيّدة نفسها لو خُيِّرت بين فقدانها لولدها ـ مع حفظها لشهاداتها ومقاماتها ـ ، وبين فقدانها لذلك كلّه واحتفاظها بولدها ،

١ـ يقول : «يحرقون خشب الاشجار التى لاتُثمر ، فجزاءُ عدم تقديم الاشجار للثمار أن يُفعل بها ذلك» .

لكان جوابها الفورىّ : كلّ ذلك فداء لولدى ، فهو عندى أغلى منها جمعياً .

أيـّتها السـيّدة الـتى اكتفيـت بواحـد أو اثنـين مـن الأولاد وأشـغلت نفسك بالأعمـال الأُخـرى ! اعلمـى أنّ الاولاد الذيـن كـان يُفـترض أن تـأتى بهم ـ فلم تأتِ بهـم ـ هـم كولـدك الحـإلى وقـد فقدتيـهم وخسـرتيهم ولم تحـظِ بالفوز بهم ، وأىّ فوز عظيم !

لقد ضجيّتِ بأولادك اللطيفـين الرائعـين فـداء هـذه الاعمـال والمشـاغل ، بل فـداء هـذه الشـواغل والأُمـور البسـيطة بـاعترافك أنـتِ ، فمـا أعظمـه مـن خسران ، وأشدها من فاقةٍ وفقر .

وعلّة هذا اللغز ومفتاحه هو أنّ الولد له حيـاد ووجـود تشـبهك ، فـهو فى الحقيقة يمثّل امتداد بقـائك ، لم يكـن لاىٍّ مـن الامـوال والتجـارات والصناعـات والمقامات قيمة كقيمتـه ، ولـن يكـون لهـا ذلـك ، لانّ أسـاس حيـاتك وعيشـك يمثّل عندك قيمة أعلى من كلّ مقامٍ ورصيد ووجاهة .

والثـانى : أنّ إنجـاب الاطفـال هـو تكثـير المثـل ، أى أن تـأتى المـرأة بموجودات تماثلها وتشـابهها مـن بنـين ونبـات ، فلـو ولـدت ستّة أطفـال فقـد جاءت فى الخارج بستّة أشباه لهـا ، ولـو ولـدت عشـرة صـار لهـا عشـرة أشـباه وأمثال ، هذا إن كان ولدهـا بناتـاً ، أمّـا إذا ولـدت بعضـهم بنينـاً فقـد أتـت فى الخارج بموجودات أقوى وأكثر طاقة وقدرة .

كلّ مـن هـؤلاء الأولاد سـيصبح بـدوره ، إثـر جـهود الأُمّ وأتعابهـا فى تربيتـهم وإكمـال رشـدهم ، إنسـاناً شـبهياً بـالأُمّ يماثلـها مـن جميـع الجوانـب ، وربّمـا أقـوى منـها وأكـثر فاعليّـة ، وسـيكونون فى مجـال الخدمـة والفاعليّـة والتأثير فى المجتمع الإسـلامىّ نظـير أُمّـهم ، وربّمـا كـانوا أفضـل وأكـثر فاعليّـة وتأثيراً .

فـانصـراف المـرأة إلى إنجـاب الاطفـال وتربيتهـم وتقـديمهم إلى

المجتمع ، بدلاً من دخولها ومشاركتها فى الاعمال والفنون والصناعات الإجتماعيّة ، سيرفع من خدمات وجودها إلى الدرجة العلى ا بنسبة عدد أولادها ؛ فلو أنجبت ثمانية أولاد فقد ضاعفت خدمتها للمجتمع ثمان مرّات ، ولو امتنعت ـ اختياراً ـ عن الإنجاب والتربية فقد أنزلت وأسقطت مستوى خدماتها بتلك النسبة .

وفى الحقيقة فإنّ السيّدات من هذا النوع حين يدخلق المجتمع فيعتبرن أنفسهن خادمات مخلصات له ، فإنهنّ بهذه النسبة قد أبعدن أنفسهن عن المجتمع وأزحن عب ءمسؤوليّة خدمته عن أكتافهنّ .

وبغضّ النظر عن هذا كلّه ، فإنّ كسب الكمالات المعنويّة والعلوم الإلهيّة والدراسة الجامعيّة التى تفيد النساء ، كتعليم إدارة أمُور البيت ، والخياطة ، وفنون الطبخ ، وحفظ الصحّة والمسائل الصحيّة والطبّ النسائىّ والتوليد ، وعلوم تربية الاولاد ، وكثير غيرها لامنافاة بينها وبين مسألة تربية الاطفال ، بل إنّ لها منتهى الانسجام والملائمة .

و ممّا تقدّم ، يمكننا الاستنتاج أنّ النساء اللاتى يعمدن إلى إغلاق أنابيت الرحم لديهنّ بعمليّة جراحيّة يُتلفن ويُفسدون فى الحقيقة أهمّ أجهزة وجودهنّ ، أى الأُنوثة .

إنّ رحم المرأة ؛ شأنه شأن العين وإل؟د والرجل والقلب ؛ واحد من أعضاء البدن ، بل من الاعضاء المهمّة جدّاً ، يُحفظ بحفظه وسلامته وجود المرأة وأنوثتها ، وتتبدّد وتتلف بفنائه وإتلافه ومرضه أُنوثة المرأة .

وليس للطبيب والجرّاح الحقّ فى إغلاق أنابيت الرحم ، ولو كان ذلك بطلب الزوجين أو موافقتهما ، لانّه يستتبع نقصان عضو ، وتسبيب نقصان العضو حرام شرعاً وعقلاً .

فكما أنّه ليس لأحد الحقّ أن يقول للجرّاح : اقطع يدى ، أو أُذنى أو

رجلى ، فليس له الحقّ كذلك أن يقول : اغلق أنابيت الرحم . نعم ، إنّ الإنسان لايمتلك حرّيّة التصرّف بأجزاء وأعضاء بدنه ، وليس له الحقّ فى إتلافها وإفسادها ، فمالك الإنسان هو الله ، وهو لم يُجز له عقلاً ولا شرعاً هذه التصرّفات . على أنّ المراة التى تغلق أنابيت رحمها تصبح عقيماً غير ولود بالمرّة ، وبفرض إمكان إعادة فتح هذه الانابيت بعمليّة جراحيّة أُخرى فإنّ إمكان حصول حمل مجدّد لهديها سيكون ضئيلاً جدّاً ، ولكن إن اعتقدت النساء اللاتى قمن بإغلاق الانابيت بجهالة منهنّ أو من أزواجهنّ ، بإمكان فتحها مجدّداً بعمليّة جراحيّة جديدة ، فإنّ الواجب الشرعى يحتمّ عليهن ـ عند إمكان ذلك وعدم وجود محذور ـ أن يُبادرن إلى إجراء تلك العمليّة وإعادة فتح أنابيت الرحم .

لقد أصبح إغلاق الانابيب فى زمن الطاغوت أُسلوباً وتقليداً بين الطبقات الغنيّة المرفّهة ، وقد أفاق بعضهم على عاقبة خطأهم بعد فوات الاوان ، فعاشوا بقيّة أعمارهم يحلمون بالحصول على طفل .

قيل : إنّ الكلام كان يدور حول إعقام وإخصاء الرجال الفقراء المعدمين الذين غالباً ما يكونون كثيرى الاولاد ، بحيث يصبح هذا العمل قانونيّاً ، كما هى حال رجال الهند الذين كانت حكومتهم تجبرهم على الإخصاء . [1]

عندئذٍ لن يتبقّى فى البلد رجل ولا امرأة ! فالنساء يعمدن إلى ابتلاع

١ـ حدّدت دولة الصين حاليّاً مسألة إنجاب الاطفال بطفل واحد لكلّ عائلة ، فإذا ما تجاوزت عائلة ما الحدّ ضُيِّق عليهم فى مسائل الرفاه والخدمات الاجتماعيّة ، كالمدرسة والمسكن والصحّة والتغذية والضرائب ، للحدّ الذى يُصبح مسألة ثقيلة غير محتملة . لذا تعمد العوائل التى لها بنت وترغب كثيراً بإنجاب ولد إلى قتل ابنتهم كى يبقوا عند إنجاب ولد ضمن الحدود القانونيّة . لكنّ هذه القيود لاتطبّق على مسلمى الصين الذين تعدّ مسألة زيادة النسل ضمن عقائدهم ، وقد أفسحت لهم حكومة الصين المجال لزيادة النسل .

الاقراص وإلى سدّ أنابيب الرحم ، و يلجأ الرجال إلى سحق الخصيتين لإعقام أنفسهم ، وهذا هو معنى الذلّ والاسر والاستعباد ، هذا هو معنى الاَستثمار الحقيقىّ ، وهذا هو مفهوم الاستحمار والاستبعاد الواقعىّ ، فهم يفعلون بنا ما لم يُفعل بالعبيد زمن الجاهليّة .

يقولون : إنّ الارض لاتتّسع لكلّ هؤلاء الافراد ، وإذا ما استمرّ سيل المواليد فى الزيادة فسيأتى الوقت الذى تغصّ الارض بهم وتضيق ؛ أُفٍّ لَكُمْ وَلاِوْهَامِكُمْ الخَالِيةِ وَآرَائِكُمْ البَالِيةِ وَأَهْوَائِكُمُ الكَاسِدَةِ !

لقد ضمن الله تعالى فى قرآنه سعة الارض لعيش الاحياء ولدفن الاموات ، أفتشعرون بالاسى للّه وتخشون أن تثقل أرضه فلا تتّسع لحمل الاحياء ودفن الاموات ؟

أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَتًا . [١]

يقرب عدد نفوسٍ إنجلترا من ستّ وخمسين مليوناً ، ويقربون فى فرنسا من خمس وخمسين مليوناً ، وفى ألمانيا يقربون من سبع وسبعين ونصف مليوناً ، وتعادل مساحة إيران مجموع هذه الدول الثلاث ، فكيف خرج سهم قرعة البؤس وعدم السعة والاستيعاب هنا ، فى الوقت الذى بلغ عدد السكّان بعد زيادتهم خمسين مليوناً ؟! [٢]

١ـ الآيتان ٢٥ و٢٦، من السورة ٧٧ : المرسلات .

٢ ـ وفقاً لاخر الإحصائيّات التى حصل عليها عن إيران سنة ١٤٠٤ ه ق ، فإنّ عدد نفوس إيران ٤٩/٤٤٥/٠١٠ تسع وأربعون مليوناً وأربعمائة وخمس وأربعون ألفاً وعشرة نسمات ؛ وبناءً على ما جاء فى كتاب السنة (يربُوك) الخاصّ بسنوات ١٩٨٣ و١٩٨٤ ميلاديّة ، التى تقارن سنة ١٤٠٤ ه ، فطبقاً لآخر الإحصَائيّات ، فانّ عدد سكّان ألمانيا الغربيّة ٦٠/٧٠٠/٠٠٠ ستّون مليوناً وسبعمائة ألف نسمة ، وألمانيا الشرقيّة ١٦/٧٠٠/٠٠٠ ستّ عشرة مليوناً وسبعمائة ألف نسمة ، وفرنسا ٥٤/٣٠٠/٠٠٠ أربع وخمسون مليوناً وثلاثمائة ألف

هذا ، مع أنّه يُعدّ من أفضل بلاد العالم فى معذدنه وذخائره الدفينة ، وفى ملائمة أراضيه للزارعة وتربية الدواجن ، فى حين أن تلكم البلاد لاتمتلك معدناً ولا زراعة ، للحدّ الذى صارت البطاطس غذاءهم الرئيسىّ ؛ لكنّ القُرعة حادت عنهم ولم تخرج باسمهم !! بل كان سهم الحظّ والمواتاة دوماً فى جانبهم ، وما خرج باسم كان سهم الحياة والسلامة والصحّة ؛ وهذا سرّ مستور ولغز خفىّ لايُظَنُّ أنّ أحداً سيطّلع على حقيقته مادام الكفّار يسيّرون أُمورنا ويوجّهونها .

راز درون پرده‌ز رِندان مست پُرس

كاين حال نيست زاهد عالميقام را [1]

فقارنوا هذه الحياة المتهافتة المقرونة بالمصيبة والذلّة ، المطبوعة بالعبوديّة ، مع تعليم القرآن وهدايته إلى سبل السلام وطرق العزّة والكرامة والعافية ، حين يأمر المالكين وا لمتكّنين أن لا يتزوّجوا لوحدهم زوجات دائميّة مَثْنَى وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ [2] فينجبوا الكثير من الاولاد ، بل إنّ عليهم تهيّة

نسمة ، وإنجلترا ٤٩/٢٠٠/٠٠٠ تسعم وأربعون مليوناً ومائتا ألف نسمة ، وإيرلندا الشماليّة ١/٥٠٠/٠٠٠ مليوناً واحداً وخمسمائة ألف نسمة ، وإسكتلندا ٥/٠٠٠/٠٠٠ خمس ملايين نسمة .

وعلى هذا فإنّ مجموع هذه الارقام التى تمثّل دول إنجلترا وفرنسا وألمانيا يقرب من ١٨٨/٥٠٠/٠٠٠ مائة وثمانية وثمانون مليوناً وخمسمائة ألف نسمة ، أى قريباً من أربعة أضاعف سكّان إيران . ويجب القول أيضاً إنّ عدد سكّان اليابان يبلغ مائة وثلاثين مليون مع أنّ مساحته تبلغ خُمُس مساحة إيران ، فيكون تراكم السكّان فيه مقارنةً بإيران ثلاثة عشر ضِعفاً .

١ ـ يقول : «سَل الحاذق الماكر حالَ سُكره عن اللغز المستور ، فإنّه ليس هذا حال زاهدٍ ذى مقامٍ شريف!» .

٢ ـ الآية ٣ ، من السورة ٤ : النساء . وَإِن خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَمَى' فَانْكِحُوا

أسباب ومستلزمات زواج الايتام والفقراء والمستضعفين كذلك :

وَأَنْكِحُوا الأَيَـامَى مِنكُمْ وَالصَّـالِحِينَ مِنْ عِبَـادِكُمْ وَإِمَـآئِكُمْ إِن يَكُونُـوا فُقَرَآءَ يُغْنِيهِمُ اللَهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَهُ وَسِعٌ عليمٌ . [١]

يروى الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملىّ، عن محمّد بن يعقوب الكلينىّ، وعن الشيخ الطوسىّ ، وعن الشيخ الصدوق فى « التوحيد » بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : تَزَوَّجُوا الاَبكَارَ ! فَإِنَّهُنَّ أَطِيبُ شَيءٍ أَفْوَاهاً ؛ قَال : (وفى حديث آخر) وَأَنْشَفُهُنَّ أَرْحَامًا ،و أَدَرُّ شَيْءٍ أَخْلاَفاً (أَخْلاَمًا) وَأَفْتَحُ شَيءٍ أَرْحَامًا . أَمَا عَلِمْتُمْ إِنِّى أُبَاهِى بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى بالسِّقْطِ يَظَلُّ مُحْبَنْطِيَاً عَلَى بَابِ الجَنَّةِ فَيَقُولُ اللَهُ عَزَّ وَجَلَّ : ادْخُلْ ! فَيَقُولُ : لاَ أُدْخُلُ حَتَّى يَدْخَلُ أَبَوَاىَ قَبْلِى ! فَيَقُولُ اللَهُ تَعَالَ؟ لِمَلَكٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ : ائتِنِى بِأَبَوَيْهِ ، فَيَأْمُرُ بِهِمَا إِلَى الجَنَّةِ ، فَيَقُولُ : هَذَا بِفَضْلِ رَحْمَتِى لَكَ . [٢]

وروى كذلك الشيخ الحرّ العاملىّ ، عن الكلينىّ ، بسنده المتّصل عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال :

تَزَوَّجُوا بِكْراً وَلُوداً ، وَلاَ تَزَوَّجُوا حَسْنَاءَ جَمِيلَةً عَاقِراً ! فَإِنِّى أُبَاهِى

مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَآءِ مَثْنَى' وَثُلَـاثَ وَرُبَـاعَ فَإِن خِفْتُم أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى' أَلاَّ تَعُولُوا .

١ـ الآية ٣٢ ، من السورة ٢٤ : النور .

٢ ـ «وسائل الشيعة» ج ٧، ص٣٤ و٣٥ ، الباب ١٧ الطبعة الحروفيّة ، المطبعة الإسلاميّة . و قد اوردها القاضى القضاعىّ فى « شرح فارسى شهاب الاخبار» فى الكلمات القصار لخاتم الانبياء صلى الله عليه و آله ص ٣١٥ رقم ٤٢٩ بهذه العبارة: تزوجوا الودود الولود ، فانى مكاثر بكم الانبياء يوم القيامة .

بِكُمُ الاْمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . [1]

وروى كذلك عن الكلينىّ بإسناده عن الإمام الرضا عليه السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : تَزَوَّجْهَا سَوَاءً وَلُوداً ! وَلاَ تَزَوَّجْهَا جَمِيلَةً حَسْنَاءَ عَاقِراً ! فَإِنِّى أُبَاهِى بِكُمُ الاْمَمَ يَوْمَ القيامة ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الوِلْدَانَ تَحْتَ العَرْشِ يَسْتَغْفِرُونَ لاَبَائِهِم يَحْضِنُهُمْ إبْرَاهِيمُ ؛ وَتُرَبِّيهِمْ سَارَةُ فِى جَبَلِ مِن مِسكٍ وَعَنْبَرٍ وَزَعْفِرَانٍ . [2]

وروى عن الكلينىّ أيضاً ، بسنده المتّصل ، عن خالد بن نجيح أنّهم تذاكروا الشؤم عند الإمام الصادق عليه السلام ، فقال :

الشُّومُ فِى ثَلاَثٍ : فِى المَرْأَةِ وَالدَّابَّةِ وَالدَّارِ ، فَأَمَّا شُومُ المَرْأَةِ فَكَثْرَةُ مَهْرِهَا وَعُقْمُ رَحِمِهَا . [3]

روى كذلك عن الكلينىّ ، بسنده المتّصل ، عن جابر بن عبدالله الانصارىّ أنّه قال : كنّا حضوراً عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : إنَّ خَيْرَ نسَائِكُمُ الوَلُودُ الوَدُودُ العَفِيفَةُ ... الحديث . [4]

وروى أيضاً عن الصدوق ، بإسناده ، عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : مَا يَمْنَعُ المُؤْمِنُ أن يَتَّخِذَ أَهْلاً لَعَلَّ اللَهَ يَرْزُقُهُ نَسَمَةً تَثْقُلُ الاْرْضَ بلاَ إلَهَ إلاَّ اللَهُ . [5]

ويروى عن الصدوق أيضاً بإسناده ، ممن الإمام الباقر عليه السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : مَا بُنِىَ بِنَاءٌ فِى الإسْلاَمِ أَحَبُّ إلَى اللَهِ

١ـ «وسائل الشيعة» ج ٧ ، ص ٣٣ ، الباب ١٦.
٢ ـ «وسائل الشيعة» ج٧ ، ص ٣٤ ، الباب ١٦.
٣ ـ «وسائل الشيعة» ج ٧ ، ص ٣٣ ، الباب ١٦.
٤ ـ «وسائل الشيعة» ج ٧ ، ص ١٤، الباب ٦ .
٥ ـ «وسائل الشيعة» ج ٧ ، ص ٣ و٤، الباب١ .

عَزَّ وَجَلَّ مِنَ التَزْوِيجِ .[١]

وورد عن الصدوق أيضاً ، فى « الخصال » فى حديث الاربعمائة عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال : تَزَوَّجُوا فَإنَّ التَزْوِيجَ سُنَّةُ رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَإنَّهُ كَانَ يَقُولُ : مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَتَّبِعُ سُنَّتِى فَإنّ مِنْ سُنَّتِى التَّزُوِيجُ . وَاطْلُبُوا الوَلَدَ ! فَإنِّى مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأمَمَ غَداً وَتَوَقُّوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ مِن لَبَنِ البَغِيَّ مِنَ النِّسَاءِ وَالمَجْنُونَةِ فَإنَّ اللَّبَنَ يُعَدِّى .[٢]

والخلاصة : فإنّ هذه المطالب تظهر مدى الاهمّيّة التى يوليها الدين الإسلامىّ المقدس لامر التزويج والنكاح ، وشدّة ترغيبه وتشجيعه على زيادة النسل وإنجاب الاولاد والإكثار الذرّيّة .

إنّ على حكومة الإسلام أن تفتح أبواب الزواج على مصراعيها أمام الناس ، وأن تحلّ مشاكل الشباب من الجنسين فى هذا الامر وفق برامج صحيحة تمكّن لكلّ فتىً وفتاة الزواج فى بداية البلوغ ليُنجبا الاولاد ويشرعا فى الوقت نفسه ، بتحصيل العلوم الضروريّة أيضاً ، بالشكل الذى لايصبح الزواج فيه معيقاً للتقدّم والرقىّ ، وتصبح مسألة امتلاك الاطفال أمراً طبيعيّاً وعُرفاً متداولاً لا يتعارض مع الصناعة والفنّ والحرفة والعلم .

وهناك فى حكومة الإسلام رجال نالوا درجة الشهادة فى معركة الجهاد والحرب ، ينبغى تنظيم برنامج صحيح لتزويج نسائهم فور انقضاء عدّتهنّ ، كى لايبقين بلا زوج ومعيل ، ولينجبن أطفالاً يشغلون محلّ المجاهدين

١ـ «وسائل الشيعة» ج ٧، ص ٣ ، الباب ١ .

٢ـ «وسائل الشيعة» ج ٧، ص ٤ ، الباب ١ . و اورد القاضى القضاعى فى « شرح فارسى شهاب الاخبار» بالفارسية ضمن بيان و شرح الكلمات القصار برسول الله صلى الله عليه و آله ص١٤ رقم ٢٩ : الرضاع يغيّرالطباع .

الخإلى .

فالرغبة الجنسيّة من الغرائز التى لايمكن تجاهلها والوقوف بوجهها بأىّ شكل ، غاية الامر أنّ إشباعها يجب أن يحصل بالطريق الصحيح والنكاح المشروع ، وإلاّ فإنّ عواقب غير محمودة ستنجم عن ذلك ـ لا سمح الله ـ وسيكون أمام الفتاة الشابّة التى استشهد زوجها أن تبقى تحتمّك ـ مع رغبتها بالزواج ـ المحن والحياة العسيرة بلا زوج ؛ أو أن ينجرّ الامر ـ طوعاً أو كرهاً ـ إلى اتّخاذ الاخدان فى مسيرة مخالفة للشريعة .

پرى رخ تاب مهجورى ندارد و در بستى ز روزن سر برآرد [1]

ووفقاً لتقرير إدارة الإحصاء فإنّ فى إيران حإليّاً ما يقرب من أربعة ملايين وسبعمائة ألف امرأة بدون زوج ، ويجب التفكير بحال هؤلاء الأبرياء وتنظيم برنامج زواجهم بأحسن وجه ، و وضع مخصّصات مإليّة لهذا الأمر ؛كما هو الحال فى إدارة التعبئة والحرس الثورىّ ودائرة رعاية عوائل الشهداء ؛ إدارة مستقلّة وواسعة ومهمة لتنظيم وتهيئة أمر زواجهنّ بلا مشقّات وعراقيل .

ومن بين الآيات التى تهدى إل؟ سُبل السلام هذه الآيات الكريمة :

مَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ و نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ و كِفْلٌ مِّنْهَا وكَانَ اللَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا * وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ اللَهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا . [2]

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَن

---

١ ـ يقول : «لاصبر للجنيّة على الهجر ، فلو أغلقت أمامها الباب لعادت من كوة الجدار» .

٢ـ الآيتان ٨٥ و٨٦ ، من السورة ٤ : النساء .

أَلْقَى إِلَيكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَ لِكَ كُنتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . [١]

ومنها : وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَهِ ثذمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ وذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ . [٢]

ومنها : وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَهِ فَيَسُبُّوا اللَهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَ لِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . [٣]

ومنها : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . [٤]

ومن جملة الآيات هذه الآية الكريمة :

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ اللَهَ كَانَ عليمًا خَبِيرًا . [٥]

ونلحظ فى هذه الآية الامر الإلهىّ للرجل بالتريّث عند احتمال حدوث الشقاق والطلاق بين الزوجين وأن لايلجأ إلى الطلاق فوراً ، بل على الزوجين أن يختارا عنهما رجلين معتمدين من ذوى الخبرة والعقل والدراية كحكمين ، يجلسان فيتدارسان الامر ويقلّبان وجوهه ، هذه المناقشات

١ ـ الآية ٩٤، من السورة ٤ : النساء .

٢ ـ الآية ٦ ، من السورة ٩ : التوبة .

٣ ـ الآية ١٠٨، من السورة ٦ : الانعام .

٤ ـ الآية ١٢٥، من السورة ١٦: النحل .

٥ ـ الآية ٣٥، من السورة ٤ : النساء .

والمباحثات كثيراً ماحلّت الخلافات ، فأقرّ الله بين أُولئك الازواج بإصلاح الحَكَمين الصلح والتفاهم ، ووفّق قرار الحكمين ورأيهما فقد تبدّلت حياتهم من الاضطراب إلى الصلح والصفاء واستعادت نشاطها ونضارتها التى انفرطت وتهدّمت بسبب الخلافات النجمة عن عدم تفاهمهما وعن بعض الافكار والآراء الواهية .

كما أنّ القرآن الكريم لايرتضى الطلاق المقرون بالنزاع والضرب وتبادل العبارات الخشنة القاسية والكلمات القبيحة الوقحة ، الذى يحدث بين الكثير من الناس ، وينهى بجزم عن أىّ تعامل وأقوال من هذا النوع .

فالطلاق يمثّل فى المنطق القرآنىّ طريق الخلاص الوحيد عند تعذّر التفاهم والانسجام ، ممّا يحيل حياة الزوجين إلى حياة مليئة بالغصّة ومقرونة بالالم والقلق والاضطراب وتشتّت الافكار ، وفى هذه الحالة يصبح الطلاق بصورته المثلى الحسنى الطريقَ الوحيد للعلاج الالم ومداواته وشفائه .

لذا ، ينبغى أن تسرّح المرأة بإحسان ، فيُبذل لها ويُحسن إليها عند تسريحها وفراقها ، كما أنّه لوأُريد ردّها ومعاشرتها فيجب رعايتها بشكل حسن مقبول وتمتيعها بالشكل الكامل .

وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَـٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * الطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَـٰنٍ .[1]

ومن جملة الآيات الكريمة :

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى الاْخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَهِ فَإِن

١ـ النصف الثانى من الآية ٢٢٨ ومطلع الآية ٢٢٩ ، من السورة ٢: البقرة .

فَـآءَت فَـأَصْلِحُوا بَيْنَـهُمَا بـالْعَدْلِ وَأَقْسِـطُوٓا إِنَّ اللَـهَ يُحِـبُّ الْمُقْسِـطِينَ * إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . [١]

ومنها : يَـٰأَيُّـهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَـوْمٌ مِّـن قَـوْمٍ عَسَـىٰٓ أَن يَكُونُـوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُـنَّ خَـيْرًا مِّنْـهُنَّ وَلاَ تَلْمِـزُوٓا أَنفُسَـكُمْ وَلاَ تَنَـابَزُوا بِالأَلْقَـٰبِ بِئْـسَ الإِسْـمُ الْفُسُـوقُ بَعْـدَ الإِيمَـٰنِ وَمَـن لَّـمْ يَتُـبْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ * يَـٰأَيُّـهَا الَّذِيـنَ ءَامَنُـوا اجْتَنِبُـوا كَثِـيرًا مِّـنَ الظَّـنِّ إِنَّ بَعْـضَ الظَّـنِّ إِثْـمٌ وَلاَ تَجَسَّسُـوا وَلاَ يَغْتَـبْ بَعْضُكُـم بَعْضًـا أَيُحِـبُّ أَحَدُكُـمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَهَ إِنَّ اللَهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ . [٢]

ونلاحـظ فى هـاتين الآيتـين الاخـيرتين أنـّها حرّمـت علـى المؤمنـين ستّة أعمال وصفات تقـارن ومتـلازم الحركـة باتّجـاه الشـقاق والنفـاق والتفرقـة والعـداوة وقلـق النفـس والاضطـراب الذهـنىّ وانفصـام عُـرى المحبّـة والمـودّة ، ودعتـهم إلى سـبل السـلام الـتى تخـالف هـذه الصفـات والاعمـال و تعاكسـها تماماً :

الاوّل : السخرية بأى شكل وكيفيّـة كـانت ، فلـو سـخر أحـد مـن أحـد ـ مهما كانا ـ لكان ذلك حراماً وقبيحاً مستهجناً .

الثـانى : اللمـز وذكـر عيـوب الآخريـن ، الـذى يتحـوّل باعتبـار وحـدة المجتمـع الإسـلامىّ واشـتراك المسـلمين فى الهمـوم والآلام والديانـة ، إلى لمـز الإنسان نفسه ، لذا بيّن ذلك بتعبير وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ .

الثالث : التنـابز بالالقـاب ومنـاداة البعـض البعـض الآخـر وذكرهـم لهـم بالعناوين والالقاب غير الجميلة ، وهو حرام .

١ـ الآيتان ٩ و١٠ ، من السورة ٤٩ : الحجرات .

٢ـ الآيتان ١١ و١٢، من السورة ٤٩: الحجرات .

الرابع : الظنّ بالآخرين سوءاً ، وهو حرامٌ فبالرغم من أنّه ليس عملاً خارجيّاً بل هو مجرّد فعل نفسىّ ، لكنّه مع ذلك الحرام ، ويتوجّب على المؤمن أن ينزّه فكره وذهنه عن التلوّث بالأوهام والتصوّرات غير الصحيحة عن المؤمنين ، وأن يُزيل صدأ الكدورة عن قلبه بصفاء وجلاء الإيمان بالله سبحانه .

الخامس : التجسّس والتفتيش فى عمل الآخرين : لماذا يذهبون ؟ وماذا يعملون ؟أير تكبون ذنباً وإثماً فى بيوتهم أم لا ؟وبشكل عامّ فإنّ أىّ تجسّس وتفتيش فى أعمال الناس حرام .

السادس : الغِيبة ، وهى ذكر المؤمن بسوء حال غيابه ، ووصفه بعبارات وأوصافٍ لو سمعها واطّلع عليها لاحزنه ذلك وأغمّه وضايقه .

سيدلّنا التمعّن فى هذه الآيات وهذا النمط من التعاليم ، بنحو اللزوم والوجوب الذى أوجبه القرآن الكريم على المؤمنين ، أىَّ عالمٍ ملىءٍ بالصفاء والمودّة وراحة البال وطمأنينة الخاطر ، وأىّ حياة مقرونةٍ بسلامة الجسم والروح والاخلاف كان القرآن الكريم يسوق باتّجاهها المجتمع البشرىّ ، ثمّ يورده فى خاتمة المطاف فى اسم سلام الحضرة الأحديّة .

وينبغى العلم لَنّ جميع الآيات المباركة فى القرآن الكريم تدعو إلى سبل السلام ، لااختصاص فى هذا الامر لايةٍ دون أُخرى ، وقد أوردنا هذه الآيات المعدودة كمثال مع مقارنتها مع بعض المناهج البشريّة التى تؤدّى بالإنسان فى النتيجة إلى الضلال ؛ وإلاّ فإنّ الآيات التى تدعو إلى التوحيد ، والإخلاص فى العمل ، والتوجّه التامّ للّه وأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، هى من أظهر وأوضح مصاديق الدعوة إلى السلام ، نظير آية :

قُلِ اللَهُمَّ مَـٰلِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ

قَدِيرٌ . [١]

وكآية : وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ و شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ و وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا . [٢]

كان هذا شرحاً مختصراً لمعنى السلام وكيفيّة هداية القرآن إلى سُبل السلام ، وطرق الاطمئنان وسكون الخاطر وراحة البال ؛ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ؛ [٣] وهو الشيء الاوّل الذى يهدى له القرآن أتباع طريق الرضوان الإلهىّ .

وأمّا المورد الثانى الذى كانت الآية المتقدّمة بصدد إثباته ، فقد كان الإخراج من ظلمات النفس الامّارة وكدورة الباطن ، وسوقهم بإذن الله إلى عالم النور والوحدة والتجرّد والبساطة : وَيُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ .

وينبغى العلم أن جميع الأعمال الحسنة والاخلاق الفاضلة والصفات الحميدة والملكات المحمودة والعقائد المطهّرة هى كلّها نور ؛ وفى المقابل فإنّ جميع الاعمال السيّئة والاخلاق الرديّة ، والصفات الذميمة والملكات القبيحة والعقائد الفاسدة كلّها حلكة وظلام .

لذا فإنّ القرآن الكريم يسوق المؤمنين فى هذه الاودية الخطرة المظلمة صعبة العبور ، التى تكتنفها الظلمات من كلّ حدبٍ وصوب ، ويدخلهم فى أعلى المقامات والدرجات والامكنة المتّسعة الرجيبة ،

---

١ ـ الآية ٢٦، من السورة ٣ : آل عمران .

٢ ـ الآية ١١١، من السورة ١٧ : الإسراء .

٣ ـ النصف الثانى من الآية ٢٨، من السورة ١٣: الرعد ، وكان النصف الاوّل : الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ .

المنبسطة المنيرة التى تتدفّق الانوار عليها من كلّ جانب ؛ أى أنّ العمل بالقرآن ، والمواظبة على ذلك ، سيؤدّيان إلى أن تُخلى الصفات السيّئة الذميمة مكانها شيئاً فشيئاً إلى الصفات الحسنة الحميدة ، فالشخص الذى يعمل بالقرآن ويسعى لجعله أساس تحرّكه وقدوة وأُسوة وبرنامجاً حقيقيّاً له فى العلم والعمل ، سيجد أنّ تلك الصفات القبيحة ستطوى بساطها شيئاً فشيئاً من نفسه التى اتّخذتها منزلاً وسكناً ؛ شاء ذلك أم أبى ؛ فتحلّ محلها الصفات الحميدة مثل ضيوف جدد لطاف يأنس بهم .

إنّ السيّئات الاخلاقيّة شأنُها كشيطان مهيب اتّخذ منزلاً فى زوايا النفس الإنسانيّة و هو لايريد بأىّ وجه من الوجوه أن يخليه ، وبمرور الزمان فإنّه سيخذ من هذا المحلّ (السرقفلىّ) كمسكن خاصّ له ، وكمركز لتردّد وهجوم وحملات جنده وعساكره .

وهى فى الحقيقة ظلمات حالكة خطرة كاسرة طاحنة ومهلكة ، تجرّ الإنسان من كلّ صوب إلى الضلال والهلاك والضياع ، وتريق دمه فتشربه على مائدتها السوداء القذرة ، بشكل لايبقى أثراً لشخصيّته وموضوعيّته وإنسانيّة ، فيمّحى بمرور الزمن اسمه من قائمة العابدين والمؤمنين .

إنّ الحقد والبخل والحسد والتكاثر فى الاموال وحبّ الجاه والرياسة ، والانشغال بملاهى الدنيا ، وعلى رأسها جميعاً الشرك بالله والنزوع إلى عالم الكثرة ، هى حقّاً ظلمات شديدة متراكمة ؛ وفى قبالها النور الذى يمثّل عين التوحيد ؛ ومن لوازمه وشروطه طهارة القلب وصفاؤه من لوث الكدورات ، وهو نور فى الحقيقة ، لا شبيهاً بالنور ، ولا مسمّىً بالنور مجازاً وكناية واستعارة . بل هو نور بتمام معناه الحقيقىّ والواقعىّ ، وهذا النور الحقيقىّ أقوى وأشدّ إضاءة بآلاف المرّات من النور المادّىّ الطبيعىّ ، كما قد جاء :

اللَهُ نُورُ السَّمَـٰوَتِ وَالاْرْضِ .[١]

وقد وردت بشأن القرآن روايات مستفيضة بل متواترة تشير إلى أنّه نور ، وقراءته نور ، وتلاوته نور ، والاستشفاء به نور ، وهو نور فيما بعد الموت يعبر بالإنسان العقبات والمنعطفات المظلمة الحالكة ، كما أنّ التعاليم غير القرآنيّة ظلمة ، والظلم والجور ظلمة .

قال رسول اللهصلّى الله عليهوآله وسلّم : الظُّلْمُ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.[٢]

اللَهُ وَلِىُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَـٰتِ .[٣]

لقد نُسبت الظلمات هنا إلى الشرك والكفر والفسق والوثنيّة والثنويّة وعبادة الاصنام بأىّ شكل كانت ، فى حين نُسب النور إلى التوحيد . لذا فكلّما ورد لفظ الظلمة فى القرآن جىء به بصيغة الجمع ، لانّ الظلمات الناشئة من الشرك والكفر مثار للكثرة ، على عكس التوحيد الذى هو نور ، ونور واحدٌ ، ولهذا فقد عبّر دوماً عن النور بصيغة المفرد ولم يستعمل لفظ أنوار ، لانّ النور مَثار الوحدة .

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَـٰتِ مَن يَشَإِ اللَهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٌ .[٤]

فالكمذّبين فى نظر القرآن صمّ وبكم حقيقةً ، كما عدّهم فى بعض الآيات عُمياً حقيقة ،أُركسوا علاوة على ذلك فى الظلمات :

١ـ مقطع من الآية ٣٥، من السورة ٢٤: النور .

٢ ـ «إحياء العلوم» ج ٣، ص ٢١٩. إيّاكم والظلم فإنّ الظلم ظلماتُ يوم القيامة .

٣ ـ الآية ٢٥٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٤ ـ الآية ٣٩، من السورة ٦ : الانعام .

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى الظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. [1]

هُوَ الَّذِينَ يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا . [2]

هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . [3]

قَدْ أَنزَلَ اللَهُ إِلَيكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولاً يَتْلُوا عَلَيكُمْ ءَايَـٰتِ اللَهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ . [4]

كانت هذه بعضاً من الآيات القرآنيّة الكريمة التى فيها دلالة على ظلمانيّة الشرك حقّاً ونورانيّة التوحيد حقّاً ، ومن هنا فقد اشتقّ الظُلم ؛ أى الجور والاعتداء والانحراف عن طريق الحقّ ؛ والظُلمة ؛ أى الحلكة ؛ كلاهما من مادّةٍ واحدة ظَ لَ مَ ، ويمكن من هذا الطريق فهم حقيقة الظلمة والحلكة ، وهى الظلم والجور الذى يمثلّ الشرك بالله أجلى وأظهر مصاديقه .

لقد وُضعتْ الالفاظ للمعانى العامّة ، فالظُلمة والعمى والصمّ والموت وماشابهها تُطلق حقيقةً عل؟ ظلمة الروح والشرك والكفر ، بل إنّ أوضح وأفضل مصاديقها هى المعانى الملكوتيّة والنفسيّة ؛ وهذه الظلمات المادّيّة رشحة من تلك الظلمة ومثال منها .

١ ـ الآية ١٢٢، من السورة ٦: الانعام .

٢ ـ الآية ٤٣ ، من السورة ٣٣ : الاحزاب .

٣ ـ الآية ٩ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

٤ ـ مقطع من الآية ١٠ ومقطع من الآية ١١، من السورة ٦٥ : الطلاق .

وتعابير كهذه كثيرة فى القرآن ، وقد ورد فى موضعين من القرآن هاتين الآيتين : إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى' وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى الْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ .[١]

دعا الله سبحانه فى الآيتين مُنكرى وجاحدى الحقّ بالموتى والعُمى والصمّ .

وقد عبّر فى سورة الممتحنة عن الكفّار الاحياء بالموتى فى القبور :

يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَوَلَّوا قَوْمًا غَضِبَ اللـه عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الاْخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ الْقُبُورِ .[٢]

وفوق هذا وأهمّ أنّ القرآن الكريم لايعتبر أُصولاً هذه الظلمات المادّيّة ظلمة ، ولا يعتبر الموت والعمى والصمم والبكم المألوفة فناءً وفقداناً لحواسّ البصر والسمع والنطق ، فهو يقول إنّ العيون لاتعمى أصلاً ، بل إنّ ما يعرض عليه العمى هو القلوب التى فى الصدور : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الاْرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الاْبْصَـٰرُ وَلَـٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ .[٣]

فدعى فى هذه الآية القلوبَ التى لاتتعقّل بالقلوب الميتة لا روح فيها ولا إدراك ، والآذانَ التى لاتعتبر بالمواعظ بالآذان الصمّاء ، واستدلّ فى بيان

---

١ ـ الآيتان ٨٠ و ٨١، من السورة ٢٧: النمل ، والآيتان ٥٢ و ٥٣، من السورة ٣٠: الروم ، غاية الامرأنّ الآية فى الموضع الثانى بدأت بحرف فاء : فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى .

٢ ـ الآية ١٣، من السورة ٦٠ : الممتحنة .

٣ ـ الآية ٤٦، من السورة ٢٢: الحجّ .

هـذا المدّعـى بـأنّ العمـى يعـرض فى الاصـل لعـين القلـــب ، ولعـــين الذهـــن والإدراك ، لا للعين الماديّة الطبيعيّة الموجودة فى رأس الإنسان .

فلا ينبغى أن يُطلق اســم الاعمـى علـى الذيـن فقـدوا هـذه العـين ، بـل الاعمى من عميت عين باطنه وحقيقة بصيرته .

وعلى هذا ، فكم شـوهد هنـالك مـن عميـان يقـرأون القـرآن ، أى أنـــّهم كانوا عمياناً بتمـام المعـنى لكنّـهم كـانوا يتلـون القـرآن بموهبـة إلهيّـة ويشـيرون إلى مواقع آياته .

لقد جاء سماحة آية اللـه الشيخ محمّـد تقـى بهجـت الفومـنىّ الرشـتىّ مـدّ ظلّه العإلى صبح يوم الجمعـة ١٥ جمـادى الاولى ١٤٠٨ هــ لزيـارة هـذا الحقـير فى مدينة قـم المقدّسـة فى مـنزل ولـدى الحـاجّ السـيّد أبى الحسـن ، وكـان مـن جملة مذاكراته وإفاداته أنـّه قال :

كان هناك فى أيّام شبابنا رجل أعمـى يفتـح القـرآن فيـدلّ علـى أىّ آيـةٍ تُراد منه ، ويضع إصبعه عليها ، وقـد أردتُ أيّـام الشـباب ممازحتـه ومعاكسـته ، فقلتُ : أين الآية الفلانيّة ؟

ففتحَ القرآن ووضع إصبعه على الآية المعيّنة .

فقلتُ : ليس هذا صحيحاً ، فهذه آية أُخرى .

فردّ علىّ : أَوَ أعمى أنت ؟! أفلا ترى ؟! [1]

---

١ ـ ذكر الملاّ الرومىّ فى «المثنوىّ» ج ٣، ص ٢٤١ طبعة ميرزا محمودىّ ، قصّة أعمى يقرأ القرآن :

ديـــد در بغـــداد يك شـــيخ فقـــير صـــحفى در خـــانة پـــيرى ضـــرير

پيـــش او مهمـــان شـــد او وقت تموز هـــر دو زاهـــد جمـــع گشـــته چند روز

گفت اينجا أى عجب مصحف چراست چـــونكـــه نابينـــات اين درويش راســـت

انـــدر اين انديشـــه تشـــويشـــش فـــزود كه جـــز او را نيست اينجـــا بـــاد و بـــود

...

اوست تنها مصحفی آویخته　　من نیم گستاخ یا آمیخته
تا بپرسم ، نی خمش صبری کنم　　تا به صبری بر مرادی بر زنم
صبر کرد صبر و بود چندی در حَرَج　　کشف شد کالصبر مفتاح الفرج

یقول: رأی شیخ فقیر فی بغداد مصحفاً فی بیت عجوزٍ أعمی .

مخلّ علیه ضیفاً فی شهر تموز ، واجتمع الزاهدان معاً أیّاماً معدودات .

قال الضیف فی نفسه : أری عجباً ! أری مصحفاً ، وهذا الدرویش أعمی !!

وزاد من حیرته واضطرابه علمه أن لا أحد فی البیت غیر هذا الاعمی .

وفکّر فی نفسه : أنّه وحید ، لکنّه یعلّق مصحفاً ، لکنّی لست بهذه الدرجة من الوقاحة ولا من المعرفة به .

کی أسأله عن ذلك ؟ فلاصمت وأصبر حتّی أنال بالصبر مُرادی .

ولقد صبر وصبر فی مشقّة وحرج ، حتّی انکشف له الامر عیاناً ، ولقد قیل : الصبر مفتاح الفرج» .

حتّی یصل إلی القول :

مرد مهمان صبر کرد و ناگهان　　کشف گشتش حال مشکل در زمان
نیم شب آواز قرآن را شنید　　جَست از خواب آن عجائب را بدید
که ز مصحف کور میخواند درست　　گشت بی‌صبرو ز کورآن‌حال جست
گفت چون در چشمهایت نیست نور　　چون همی بینی همی خوانی سطور
گفت : ایگشته ز جهل تن جدا　　این عجب میداری از صنع خدا ؟
من زحقّ درخواستم کای مستعان　　بر قرآئت من حریصم ، همچو
نیستم حافظ مرا نوری بده　　در دو دیده وقت خواندن بیکره
باز دیده دو دیده‌ام را آن زمان　　که بگیرم مصحف و خوانم عیان
آمد از حضرت ندا کای مردکار　　ای بهر رنجی بما امیدوار
حسن ظنّ است و امیدی خوش ترا　　تا فور خوانی معظم جوهرا
همچنان کرد و همان گاهی که من　　واگشایم مصحف اندر خواندن
آن خبیری که نشد غافل زکار　　آن گرامی پادشاه روزگار
باز بخشد بینشم آن شاه فرد　　در زمان همچون چراغ شب نورد

...

زين سبب نبود ولى را اعتراض هر چه بستاند فرستد اعتياض
گر بسوزد باغ انگورى دهد در ميان ماتمت سورى دهد
آن شل بى‌دست را دستى دهد كان غمها را دل مستى دهد

يقول: «صبر الضيف مدّة ، وفجأة انكشف له ما استعصى عليه هذه المدّة .

فقد طرق سمعه منتصف الليل صوت تلاوة للقرآن ، فنهض ليرى تلك العجائب .

وشاهد الأعمى يقرأ فى المصحف قراءة صحيحد . فلم يطق إذ ذاك صبراً وسأله عن الأمر .

وقال له : كيف تُبصر وكيف تقرأ السطور وأنت أعمى لا نور فى بصرك ؟!

فأجابه : يا من ابتعدت عن الجهل بالجسم ـ كناية عن حصوله على التجرّد ـ أتحسب صُنع الله هذا عجباً ؟

لقد سألت ربّى : أيّها المسُتعان ، أنا حريص على التلاوة حرصى على روحى .

ولستُ بحافظٍ للقرآن ، فهب لى نوراً فى عينى عند التلاوة .

وافتح لى عن بصرى حين أمسك القرآن ليمكننى تلاوته عياناً ومباشرةً .

فجاء من الربّ النداء : أيّها المُجدّ الذى يؤمّلنا فى جميع المحن !

إنّ حسن ظنّك ورجاءك الجميل يدعوانك كلّ آن إلى مرتبةٍ أعلى وأسمى .

ولقد استجاب لى فى ذلك ربّى ، فكلّما فتحتُ المصحف لأتلو ما فيه .

فإنّ ذلك الخبير الذى لايغفل ، ذلك المَلِك العزيز .

وذلك الحاكم الفرد يعيد بصيرى إلىّ فيضىء النور فيه كالشعاع فى الليل الحالك .

ولهذا فلا اعتراض على الحبيب الذى كلمّا أخذ شيئاً أعطى عوضاً منه .

ذلك الذى لو أحرق البستان لاعطاك كرم عنب ، والذى يهبك فى مأتمك حفلاً بهيجاً .

والذى أعطى يداً لذلك الاشلّ الذى لا يد له ، ولذلك الغارق فى الغمّ قلباً نشواناً» .

وذكر قبلها بأربع صفحات ، أى فى صفحة ٢٣٧، قصّة الشيخ الاقطع الذى يحوك الزنابيل :

شيخ أقطع گشت نامش پيش خلق كرد معروفش بدين آفات حلق
در عريش او را يكى زائر بيافت كو بهر دو دست خود زنبيل بافت
گفت او را اى عدوّ جان خويش در عريشم آمدى سركرده پيش

كان سماحة آية اللـــه الحـاجّ محمّـد تقـى فى النجـف الأشـرف و هـو مـن التلاميـــذ المعـــروفين لآيـة الحـقّ و سـند العـرفان ، العارف الذى ليس له مثيل

همـين چـرا كردى شتاب اندر سباق　　گفـت از افـراط مهـــر و اشـــتياق
پس تبسّـــم كرد و گفت اكنـــون بيا　　ليـــك مخفـــى دار ايـــن را اى كيـا
تا نمـــيرم مـن مگو ايـــن با كسـى　　نى قـــرينى نى حبيـــبى نى خَســـى
بعـــد از آن قـــوم دگر از روزنـش　　مطلّـــع گشـــتند بـــر بافيـــدنـش
گفـت حكمـــت را تو دانى كردگار　　مـن كنـم پنهـان تو كردى آشكار
آمـــد إلهـامش كه يك چنـدى بدند　　كه در اين غـم بر تو منكر مى‌شدند
كه مگر ســـالـوس بود او در طريق　　كه خـــدا رســـواش كرد اندر فريق
من نخـــواهم كـــان رمه كافر شوند　　و از ضـــلالت بر گمـــان بـد روند
اين كـــرامت را بكـــرديم آشـــكار　　كه دهيـمت دســـت انـدر وقت كار
تـا كه ايـن بيچـــارگان بـــد گمان　　رو نـــگردنـــد از جنـــاب آسمـــان

يقول : عُرف هذا الشيخ الزاهد فى هذه القضيّة بالشيخ الاقطع .
ولقد دخل عليه فى عريشه فجأةً رجل لزيارته ، فرآة مشغولاً بحياكة زنبيل بيديه الاثنتين .
قال له الشيخ : يا عدوّ نفسه ! لِمَ دخلتَ عريشى فجأة ؟!
ولِمَ عجلتَ فدخلتَ بلا استئذان ؟! أجاب : من فرط الشوق والمحبّة .
فتبسّم الشيخ وقال : هوِّن عليك ، فتعالَ واكتم هذا .
اكتمه فلا تبح به لاحد مادمتُ حيّاً ، حتّى لاصدقائك ورفقائك .
وحصل أن اطّلع بعد ذلك على أمر حياكته أشخاص آخرون من كوّة العريش .
فدعا ربه : إلهى ! تعلمُ الحكمة فى الأُمور ، فكلمّا تكتّمتُ على هذا الامر أظهرتَه أنت .
فأُلهم إليه : أنّ هناك عدّة أساءوا بك الظنّ وأنكروا زهدك ونزاهتك .
فقالوا : لو لم يكن منافقاً ومُرائياً لما فضحه اللـه وخذله .
ولم أشأ أن يكفر هؤلاء البائسون ، وأن يسدروا فى غيّهم وظنّهم السيّى .
فأظهرت هذه الكرامة فى إعطائنا لك يداً حين تعمل .
وذلك لئلاّ يُعرض هؤلاء الشاكّون البائسون بوجوههم عن السماء» .

المرحوم الحاجّ الميرزا السيّد على القاضى التبريزىّ رضوان الله عليه ، و كان له فى حياته حالات و واردات و مكاشفات غيبيّة إلهيّة ، و نال أعلى المراتب بالسكوت والمراقبة .

يقول سماحة آية الله الحاجّ الشيخ عبّاس القوجانىّ (و هو وصىّ المرحوم القاضى والمقيم حاليّاً فى النجف الأشرف): كان الشيخ محمّد تقى بهجت يحضر درس المرحوم آية الله الحاجّ الشيخ محمّد حسين الأصفهانىّ (المعروف بالكمبانىّ) فى الفقه والأصول ، وبما انّه كان يعود إلى حجرته فى مدرسة السيّد بعد انتهاء الدرس ، فقد كان بعض الطلّاب يذهبون إليه لرفع ما ورد عليهم من إشكالات الدرس .

وقد يروه نائماً ، لكنّهم يسألونه ، فيُجيبهم كأنّه فى حال اليقظة أجوبة كافيةً شافية . وحينما يُسأل عن إجاباته تلك ، يؤكّد على عدم علمه بها ، و يقول : لا شيء لدىّ ، و لم يخطر ببالى شيء ممّا تقولون .

يقول سماحة آية الله الحاجّ الشيخ عبّاس القوجانىّ مدّ ظلّه : كان آية الله بهجت كثيراً ما يذهب إلى مسجد السهلة فيبيت هناك إلى الصباح ، وحدث فى ليلةٍ حالكة الظلام أن احتاج إلى تجديد وضوئه ، ولم يكونوا آنذاك ينيرون مصباحاً فى المسجد ، وكان مجبراً على الخروج من المسجد للطهارة والوضوء ، فتحرّك ليتوضّأ فى المحلّ المخصّص للوضوء والواقع خارج المسجد إلى جهة الشرق فأحسّ فجأة ـ وهو يعبر هذه المسافة المظلمة وحيداً ـ بخوفٍ بسيطٍ ينتابه .

وبمجرّد إحساسه بهذا الخوف توهّج أمامه نور كالمصباح ، وصار يسير أمامه كلّما سار ، وقد خرج مع ذلك النور فتطهّر وتوضّأ ثمّ عاد إلى مكانه والضوء يتحرّك معه ، فلمّا وصل مكانه السابق اختفى ذلك النور وتلاشى .

وبشأن نور القرآن فقد شوهد الكثير من الافراد الذين كانور يقرأون بنور القرآن المعنوىّ ، كان الكثير منهم أُميّين لم يروا مدرسة ولم يحضروا درساً ، منهم المرحوم كربلائى محمّد كاظم الفراهانىّ رحمة الله عليه الذى عاش فى عصرنا هذا ، وكان رجلاً عامّيّاً قرويّاً أُفيض عليه القرآن فى أحد مراقد أبناء الائمة من قبل رجلين مارّين لايعرفهما .

ولقد هاجرتُ إلى مدينة المشهد الرضوىّ المقدّس على ساكنها وعلى آبائه السلام سنة ١٤٠٠ هجريّة قمريّة فىيوم الرابع والعشرين من شهر جمادى الاُولى للإقامة والتوطّن ، وحططتُ رحإلى فى جوار بضعة رسول الله هذه .

وقد جاءنى يوماً شخصان من قرّاء التعزية ، أحدهما باسم الحاجّ الشيخ جعفر الرشتىّ والآخر الحاجّ السيّد حسن مؤمن زاده، وكانا صديقين متحابّين ، وقد انتقل كلاهما إلى الرحمة الواسعة للحقّ تعإلى ، رحمةُ الله عليهما .

وقد قال الحاجّ الشيخ جعفر فى ذلك المجلس للحقير : أنا حافظ للقرآن فقد أُفيض عَلَىَّ من الإمام علىّ بن موسى الرضا عليه السلام فى حرمه المطهّر ، فأنا أقرأ التعزية فى الحرم أيضاً .

فسررتُ جدّاً وهنّأته على ذلك وقلتُ : إنّ وجودكم مبارك بهذه الموهبة الإلهيّة .

وقد جلسا ساعة ، ثمّ التفت إلىّ المرحوم الحاجّ جعفر عند ذهابهما وقال : أيّها السيّد! إنّكم لم تسألوا منّى شيئاً من القرآن ولم تختبرونى .

فأجبت : لأنّ هذا المطلب مسلّم ، ولاشكّ لدىّ فيه ليحتاج الامر إلى سؤالٍ واختبار . إذ فى مقام الثبوت ، فإنّ هذا الحقير لاشكّ لديه فى إمكان إفاضات وبركات كهذه من قبل الإمام الرضا عليه السلام ، وأمّا فى مقام الإثبات ، فإنّ وجوداً بهذا الجلال والاحترام يمثّل حقيقةً مصداقاً للصدق

ولايبقىلدىّ محلاًّ للشكّ.

روى فى « التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكرىّ » سلام الله عليه فى ذيل الآية المباركة : فَإن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ و بِالْعَدْلِ ،[1] رواية مفصّلة جدّاً تحوى مطالب وحوادث ، نشير هنا إلى مختصر منها فقط يمثّل شاهداً لكلامنا حول نور القرآن وإشعاعه وضيائه :

... يصل إلى القول : ولقد مرّ أميرالمؤمنين على قومٍ من أخلاط المسلمين ليس فيهم أحد من المهاجرين أو الأنصار ، وهم قعود فى بعض المساجد فى أوّل يوم من شعبان ، وإذا هم يخوضون فى أمر القدر وغيره ممّا اختلف الناس فيه ، قد ارتفعت أصواتُهم واشتدّ فيه محكّهم وجدالهم ، فوقف عليهم وسلّم فردّوا وأوسعوا له وقاموا إليه يسألونه القعود إليهم ، فلم يحفل بهم ، ثمّ قال وناداهم :

يَا مَعْشَرَ الْمُتَكَلِّمِينَ فِيمَا لاَ يُعْنِيهِمْ وَلاَ يُرَدُّ عَلَىْ؟ْ هِمْ ! أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عِبَاداً قَدْ أَسْكَتَتْهُمْ خَشْيَتُهُ مِنْ غَيْرِ عَمَىً وَلاَ بِكَمَ ، وَإِنَّهُمْ لَهُمُ الْفُصَحَاءُ الْعُقَلاَءُ الاْوْلِياءُ الْعَالِمُونَ باللَهِ و أَيَّامِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ إذاً ذَكَرُوا عَظَمَةَ اللَهِ انْكَسَرَتْ أَلْسِنَتُهُمْ ، وَانْقَطَعَتْ أَفْئِدَتُهُمْ ، وَطَاشَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَهَائَتْ حُلُومُهُمْ ، إعْزَازاً لِلَّهِ ، وَإعْظَامَاً وَإجْلاَلاً لَهُ .

فَإذَا أَفَاقُوا مِنْ ذَلِكَ اسْتَبَقُوا إلَى اللَهِ بالاْعْمَالِ الزَّاكِيَةِ يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الظَّالِمِينَ وَالخَاطِئِينَ ـ وَإنَّهُمْ بُرَآءُ ـ مِنَ الْمُقَصِّرِينَ وَالْمُفَرِّطِينَ . أَلاَ إنَّهُمْ يَرْضَوْنَ باللَهِ القَلِيلَ ؛ وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ لِلَّهِ الكَثِيرَ ؛ وَلاَ يُدِلُّونَ عَلَيْهِ بالاْعْمَالِ . فَهُمْ مَتَى مَارَأَيْتَهُمْ مَهْمُومُونَ ، مُرَوَّعُونَ ، خَائِفُونَ ، مُشْفِقُونَ ، وَجِلُونَ !

١ـ جزء من الآية ٢٨٢ ، من السورة ٢ : البقرة .

فَأَيْنَ أَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُبْتَدِعِينَ ؟! أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالقَدَرِ أَسْكَتُهُمْ عَنْهُ ؛و أَنَّ أَجْهَلَ النَّاسِ بالقَدَرِ أَنْطَقُهُمْ فِيهِ ؟!

ثمّ قال : يَا مَعْشَرَ الْمُبْتَدِعِينَ ! هَذَا يَوْمُ غُرَّةَ شَعْبان الكَرِيمِ ، سَمَّاهُ رَبُّنَا شَعْبَان لِتَشعُّبِ الخَيْرَاتِ فِيهِ .

حتّى يصل إلى قوله : ألا أُحدِّثُكم إلاّ بما سمعته من رسول الله ؟!

لقد بعث رسول الله جيشاً ذات يوم إلى قومٍ من أشدّاء الكافرين ، فأبطأ عليه خبرهم وتعلّق قلبه بهم وقال : ليت لنا من يتعرّف أخبارهم ويأتينا بأنبائهم ، فبينا هو قائل إذ جاءه البشير بأنّهم قد ظفروا بأعدائهم وأسلبوهم ، وصيّروهم بين قتيل وجريح وأسير ، ونهبوا أموالهم ، وسبوا ذراريهم وعيالهم ، فلمّا قرب القوم من المدينة خرج إليهم رسول الله بأصحابه يتلّقاهم ، فلمّا لقيهم ورئيسهم زيد بن حَارثة ؛ وكان قد أمّره عليهم ؛ فلمّا رأى زيد رسول الله نزل عن ناقته وجاء إلى رسول الله وقبّل رجله ، ثمّ قبّل يده ورجله ، فأخذه رسول الله فضمّه وقبّل رأسه .

ثمّ نزل إلى رسول الله عَبد الله بن رَوَاحَة فقبّل يده ورجله وضمّه رسول الله . ثمّ نزل إليه قَيس بن عاصم المنقريّ فقبّل يده ورجله وضمّه رسول الله إليه .

ثمّ نزل ساير الجيش ووقفوا يصلّون عليه وردّ رسول الله عليهم خيراً ، ثمّ قال لهم : حدّثونى خبركم وحالكم مع أعدائكم ! وكان معهم من أُسراء القوم وذراريهم وعيالاتهم وأموالهم من الذهب والفضّة وصنوف الامتعة شيء عظيم ، فقالوا : يا رسول الله ! لو علمت كيف حالنا لعظم تعجبّك !

فقال رسول الله : لم أكن أعلم ذلك حتّى عرّفنيه الآن جبرئيل ، وما كنتُ أعلم شيئاً من كتابه ودينه حتّى علّمنى ربّى ، كما قال :

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ

وَلاَ الإِيمَـانُ وَلَـكِن جَعَلْنَـاهُ نُـوراً نَّـهْدِى بـهِ مَـن نَّشَـآءُ مِـنْ عِبَادِنَـا وَإِنَّـكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ، [1] ولكن حدّثوا بذلك إخوانكم هؤلاء لاصدّقكم فقد أخبرنى جبرئيل بصدقكم .

فقالوا : يا رسول الله ! إنّا لمّا قربنا من العدوّ بعثنا عيناً لنا ليعرف أخبارهم وعددهم لنا ، فرجع إلينا يخبرنا أنّهم قدر ألف رجل ، وكنّا ألفى رجل ، وإذا القوم قد خرجوا إلى ظاهر بلدهم فى ألف رجل وتركوا فى البلد ثلاثة الآف ، يوهموننا أنّهم ألف ، وأخبرنا صاحبُنا أنّهم يقولون فيما بينهم نحنُ ألف وهم ألفان ولسنا نطيق وكافحتهم ، وليس لنا إلاّ التحاصن فى البلد حتّى تضيق صدروهم من منازلتنا فينصرفوا عنّا ، فتجرّأ بذلك عليهم وزحفنا إليهم فدخلوا بلدهم وأغلقوا دوننا بابه ، فقعدنا منازلهم ، فلمّا جنّ علينا الليل وصرنا إلى نصفه فتحوا باب بلدهم ونحن غارّون نائمون ماكان فينا منتبه إلاّ أربعة نفر: زيد بن حارثة فى جانب من جوانب العسكر يصلّى ويقرأ القرآن ، و عبدالله بن رواحة فى جانب آخر يصلّى ويقرأ القرآن ، و قتادة بن النعمان فى جانب آخر يصلّى ويقرأ القرآن ، و قيس بن عاصم من جانب آخر يصلّى ويقرأ القرآن .

فخرجوا فى الليلة الظلماء الدامسة ورشقونا بنبالهم ، وكان ذلك بلدهم وهم بطرقه ومواصفه عالمون ، ونحن منها جاهلون ، فقُلنا فيما بيننا : ذهبنا وأُتينا ، هذا ليلٌ مُظلم لايمكننا أن نتّقى النبال لانّنا كنّا لا نبصرها .

فبينا نحن كذلك إذ رأينا ضوءاً خارجاً من فىّ قيس بن عاصم المنقرىّ كالنار المشتعلة، وضوءاً خارجاً من فىّ قتادة بن النعمان كضوء الزهرة والمشترى ، وضوءاً خارجاً من فىّ عبدالله بن رواحة كشعاع القمر

---

١ ـ الآية ٥٢، من السورة ٤٢ : الشورى .

فى الليلة المظلمة ، ونوراً ساطعاً من فىّ زيد بن حارثة أضوء من الشمس الطالعة، وإذا تلك الانوار قد أضاءت معسكرنا حتّى أنّه أضوء من نصف النهار ، وأعداؤنا فى ظلمة شديدة ، فأبصرنا وعموا عنّا ، ففرّقنا زيد بن حارثة ـ الذى كانت له القيادة ـ عليهم حتّى أحطنا بهم ونحن نبصرهم وهم لايُبصروننا ، ونحن بُصراء وهم عميان ، فوضعنا عليهم السيوف فصاروا بين قتيل وجريح وأسير ، دخلنا بلدهم فاشتملنا على الذرارى والعيال والاثاث والاموال ، وهذه عيالاتهم وذراريهم ، وهذه أموالهم ، وَمَار أَيْنَا يَا رَسُولَ اللَهِ أَعْجَبَ مِنْ تِلْكَ الأَثْوَارِ مِنْ أَفْوَاهِ هَؤلاَءِ القَوْمِ الَّتِى عَادَتْ ظُلْمَةً عَلَى أَعْدَائِنَا حَتَّى مَكَنَّا مِنْهُمْ ! ... الحديث .[1]

وبالطبع فإنّ المراد من نور القرآن فى الآية الكريمة : وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، ليس هو النور الظاهرىّ المرئىّ الذى يسطع من شخص القارى للقرآن ، بل إن المراد منه هو النور المعنوىّ البسيط والمجرّد ، الذى يُميت بطلوعه جميع الصفات الرذيلة ، ويحرق جراثيم الفساد فى زوايا القلب المظلمة ويقضى عل؟ها ، لكنّا أوردنا هذه الامثلة العديدة ليُعلم أنّ إشعاع النور الظاهرىّ هذا كان من آثار القرآن أيضاً والحمدللّه .

وهذا هو الشىء والاثر الثانى الذى يمنحه القرآن للمتّبعين سبيل رضا الحقّ ، والساكين طريق رضا المحبوب المطلق .

والأثر الثالث والنتيجة المترتّبة على القرآن فهى الهداية إلى الصراط

---

١ ـ «تفسير الإمام العسكرىّ عليه السلام» المطبوع فى هامش «تفسير علىّ بن إبراهيم» فى قطع رحلىّ ، الطبعة الحجريّة ، ص ٢٤٩ و٢٥٠ ، وقد ترجم المرحوم المحدّث النورىّ هذا الخبر بأكمله وأدرجه فى آخر كتابه «الكلمة الطيّبة» .

المستقيم : وَيَهْدِيهِمْ إِلَى' صِـرَاطٍ مُّسْـتَقِيم ؛ وعلينـا أن نعلـم هنـا أىّ طريـق هـو المقصـود بـالصراط المسـتقيم يومـا هـو الفـرق بينـه وبـين سُـبل السـلام الـتى يهدى القرآن الكريم إليها البشـر ، كمـا فى هـذه الآيـة الكريمـة ؟ وعمومـاً ، فمـا معنى أن يجعل القرآن هدايته مرّةً ـ وبشـكل صريـح ـ إلى سُـبل السـلام ، ومـرّة أُخـرى إلى الصـراط المسـتقيم ؟ إذ إنّ الآيـة الشـريفة جـاءت بـواوٍ عاطفـة وتكرار الجملة الفعليّة ، فدلّـت علـى مغـايرة المعطـوف للمعطـوف عليـه :يَـهْدِى بِهِ اللَهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَـ'مِ وَيَهدِيهِمْ إِلَى' صِرَاطٍ مُسْتَقِيم .

وقد بحثنا بحمد اللـه ومنّه فى سلسلة « علوم ومعارف الإسلام » فى قسـم « معرفة المعاد » بحثاً كافياً ووافيـاً فى معـنى الصـراط واسـتقامة وكيفيّـة ظـهوره وبروزه يـوم القيامـة ، وصـراط الجنّـة والنـار ؛ [1] لكـن مـن المناسـب كثـيراً أن لا نتعدّى هنا بيانات أُستاذنا الاكرم وملاذنـا الاعظـم آيـة اللـه العظمـى ، سـند التحقيـق والبرهـان ، ومثـل التفريـد والعرفـان ، الحـاجّ السـيّد محمّـد حسـين الطباطبائىّ التبريزىّ أفاض اللـه علينا من نفحات نفسه القدسـيّة ، ومـن بركـات تربتـه المنيفـة ، فقـد ذكـر فى بيـان الآيـة المباركـة اهْدِنَـا الصِّـرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ شرحاً مفيداً وعإلياً حوى مطالب راقية ومعارف حقّة حقيقيّة ، نورده هنا :

أمّا الصراط فـهو والطريـق والسـبيل قريـب المعـنى ، وقـد وصـف تعـإلى الصراط بالاستقامة ، ثمّ بيّن أنـّه الصراط الذى يسـلكه الذيـن أنعـم اللـه تعـإلى عل؟هم ، فالصراط الذى من شأنه ذلك هو الذى سُئل الهدايـة إليـه ، وهـو بمعـنى الغايـة للعبـادة ، أى أنّ العبـد يسـأل ربّـه أن تقـع عبادتـه الخالصـة فى هـذا الصراط .

بيـان ذلك : أنّ اللـه سـبحانه قـرّر فى كلامه لنوع الإنسان ، بل لجميع من

---

١ ـ انظر: «معاد شناسى» (=معرفة المعاد) ج ٨ ، المجلس٥١ إلى ٥٣ .

سواه سبيلاً يسلكون به إليه سبحانه ، فقال تعالى :

يَـأَيُّـهَا الإنسَـانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـاقِيهِ . [١] وقال تعالى : وَإِلَيـهِ الْمَصِيرُ ، [٢] وقال : أَلاَ إِلَى اللَهِ تَصِيرُ الأمُورُ ؛ [٣]

إلى غير ذلك من الآيات ، وهى واضحة الدلالـة علـى أنّ الجميـع سـالكو سبيل اللـه ، وأنـهم سائرون إلى اللـه سـبحانه . ثمّ بيّـن أنّ سـبيل ليـس سـبيلاً واحـداً ذا نعـت واحـد ، بـل هـو منشـعب إلى شـعبتين منقسـمٌ إلى طريقتـين ، فقال :

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيكُمْ يَـا بَنـى ءَادَمَ أن لاَّ تَعْبُـدُوا الشَّيْطَـانَ إِنـَّهُ و لَكُـمْ عَـدُوٌّ مُّبِينٌ *و أَنِ اعْبُدُونِى هَـذَا صِـرَاطٌ مُّسْـتَقِيمٌ . [٤] فـهناك طريـق مسـتقيم وطريـق آخر وراءه .

وقال تعالى :

فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ فَلْيَسْـتَجِيبُوا لِـى وَلْيُؤْمِنُـوا بِـى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . [٥]

وقال تعالى : ادْعُونى أَسْـتَجِبْ لَكُـمْ إِنَّ الَّذِيـنَ يَسْـتَكْبِرُونَ عَـن عِبَـادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ . [٦]

فبيّن تعالى أنـّه قريـب مـن عبـاده ، وأنّ الطريـق الاقـرب إليـه تعـالى طريق عبادته ودعائه ، ثمّ قـال فى وصـف الـذين لا يؤمنـون : أُلَـئكَ يُنَـادَوْنَ

١ـ الآية ٦، من السورة ٨٤: الانشقاق .

٢ ـ الآية ٣، من السورة ٦٤: التغابن .

٣ ـ الآية ٥٣، من السورة ٤٢: الشورى .

٤ـ الآيتان ٦٠ و٦١، من السورة ٣٦: يس .

٥ ـ الآية ١٨٦، من السورة ٢: البقرة .

٦ـ الآية ٦٠، من السورة ٤٠: غافر .

مِـن مَّكَـانٍ بَعِيـدٍ ، [1] فبيّـن أنّ غايـة الذيـن لا يؤمنـون فى مسـيرهم وسـبيلهم بعيدة .

فتبيّن أنّ السبيل إلى اللـه سبيلان : سـبيل قريـب وهـو سـبيل المؤمنـى ، وسبيل بعيد وهو سبيل غـيرهم ، فـهذا نحـو اختـلاف فى السـبيل ؛ وهنـاك نحـو آخر من الاختلاف ، قال تعـإلى : إِنَّ الَّذِيـنَ كَذَّبُـوا بِـَايَـٰتِنَـا وَاسْـتَكْبَرُوا عَنْـهَا لاَ تُفَتَّـحُ لَـهُمْ أَبْـوَٰبُ السَّـمَآءِ ، [2] ولـولا طـروق مـن متطـرّق لم يكـن للبـاب معنى ، فهناك طريق من السُّفْل إلى العلوّ .

وقـال تعـإلى : وَمَـن يَحْلِـلْ عَلَيْـهِ غَضَبِـى فَقَـدْ هَـوَىٰ ، [3] والهـوى هـو السـقوط إلى أسـفل ، فـهناك طريـق آخـر آخـذٌ فى السـفالة والانحـدار ، وقـال تعـإلى : وَمَـن يَتَبَـدَّلِ الْكُفْـرَ بالإِيمَـٰنِ فَقَـدو ضَـلَّ سَـوَآءَ السَّـبيل ، [4] فعـرّف الضلال عن سواء السبيل بالشركَ لمكان قوله : فقـد ضـلَّ ، وعنـدَ ذلـك تقسّـم الناس فى طرقهم ثلاثة أقسام :

١ ـ مـن طريقـة إلى فـوق ، وهـم الذيـن يؤمنـون بآيـات اللـه ولايستكبرون عن عبادته .

٢ ـ ومن طريقة إلى السفل ، وهم المغضوب عليهم .

٣ ـ ومَن ضلّ الطريق وهو حـيران فيـه ، وهـم الضـالّون ؛ وربّمـا أشـعر بهـذا التقسـيم قولـه تعـإلى : صِـرَٰطَ الَّذِيـنَ أَنْعَمْـتَ عَلَيْـهِمْ غَـيْرِ الْمَغْضُـوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِينَ . [5]

---

١ ـ الآية ٤٤، من السورة ٤١: السجدة .

٢ ـ الآية ٤٠، من السورة ٧: الاعراف .

٣ ـ الآية ٨١ ، من السورة ٢٠: طه .

٤ ـ الآية ١٠٨، من السورة ٢: البقرة .

٥ ـ الآيتان ٦ و ٧، من السورة ١: الفاتحة .

والصراط المستقيم لا محالة ليس هو الطريقان الآخران من الطرق الثلاثة ، أعنى طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين ، فهو من الطريق الاوّل الذى هو طريق المؤمنين غير المستكبرين ، إلاّ أنّ قوله تعالى : يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ،[١] يدلّ على أنّ نفس الطريق الاوّل أيضاً يقع فيه انقسام .

وبيانه أنّ كلّ ضلال فهو شرك ، كعكسه على ما عرفت من قوله تعالى : وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَبِيلِ ،[٢]

وفى هذا المعنى قوله تعالى :

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيكُمْ يَٰبَنِى ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَٰنَ إِنَّهُ و لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ *و أَنِ اعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا [٣]

والقرآن يَعُدّ الشرك ظلماً وبالعكس ، كما يدلّ عليه قوله تعالى حكايةً عن الشيطان لمّا قضى الامر : إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ إليمٌ .[٤] كما يعدّ الظلم ضلالاً فى قوله تعالى : الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَٰنَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ،[٥] وهو ظاهر من ترتيب الاهتداء والامن من الضلال أو العذاب الذى يستتبعه الضلال ، على ارتفاع الظلم ولبس الإيمان به .

وبالجملة الضلال والشرك والظلم أمرها واحد وهى متلازمة صدقاً ،

---

١ ـ الآية ١١، من السورة ٥٨: المجادلة .

٢ ـ الآية ١٠٨، من السورة ٢: البقرة .

٣ ـ الآيات ٦٠ إلى ٦٢: من السورة ٣٦: يس .

٤ ـ الآية ٢٢، من السورة ١٤: إبراهيم .

٥ ـ الآية ٨٢، من السورة ٦: الانعام .

وهذا هو المراد من قولنا إنّ كلّ واحد منها معرّف بالآخر أو هو الآخر ، فالمراد الاتّحاد فى المصداق دون المفهوم .

إذا عرفتَ علمتَ أنّ الصراط المستقيم الذى هو صراط غير الضإلين صراطٌ لايقع فيه شرك ولا ظلم البتّة ، كما لا يقع فيه ضلال البتّة ، لا فى باطن الجنان من كفر أو خطور لايرضى به الله سبحانه ، ولا فى ظاهر الجوارح والاركان من فعل معصيةٍ أو قصورٍ فى طاعة ، وهذا هو حقّ التوحيد علماً وعملاً ، إذ لا ثالث لهما فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلَـٰل ؟ [1]

وينطبق على ذلك قوله تعإلى : الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ،[2] وفيه تثبيت للامن فى الطريق ووعدٌ بالاهتداء التامّ بناءً على ما ذكروه من كون اسم الفاعل (مهتدون) حقيقة فى الاستقبال ؛ فليفهم فهذا نعت من نعوت الصراط المستقيم .

ثمّ إنئه تعإلى عرّف هؤلاء المنعم عليهم ، الذين نسب الصراط المستقيم إليهم بقوله تعإلى : وَمَن يُطِعِ اللَهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا .[3]

وقد وصف هذا الإيمان والإطاعة قبل هذه الآية بقوله : فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا * وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ

---

١ ـ الآية ٣٢، من السورة ١٠: يونس .

٢ ـ الآية ٨٢، من السورة ٦: الانعام .

٣ ـ الآية ٦٩، من السورة ٤: النساء .

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لآَّتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَطًا مُّسْتَقِيمًا * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّـۧنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عليمًا . [١]

فوصفهم بالثبات التامّ قولاً وفعلاً وظاهراً وباطناً على العبوديّة ، لايشذّ منهم شاذّ من هذه الجهة ، ومع ذلك جعل هؤلاء المؤمنين تبعاً لأُولئك المنعم عليهم ، وفى صفٍّ دون صفّهم لمكان مَعَ ولمكان قوله وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا، ولم يقل فَأُلئك من الَّذِينَ بل قال : فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ .

ونظير هذه الآية قوله تعإلى : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءِ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَحِيمِ . [٢]

وهذا هو إلحاق المؤمنين بالشهداء والصدّيقين فى الآخرة ولمكان قوله : عِندَ رَبِّهِمْ ـ وقوله : لَهُم أَجْرُهُمْ.

فَأولئك (وهم أصحاب الصراط المستقيم) أعلى قدراً وأرفع درجة ومنزلة من هؤلاء وهم المؤمنين الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم من الضلال والشرك والظلم ، فالتدبّر فى هذه الآيات يوجب القطع بأن هؤلاء المؤمنين ـ وشأنُهم هذا الشأن ـ فيهم بقيّة بعد لو تمّت فيهم كانوا مِنَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَهُ عَلَيْهِمْ ، وارتقوا من منزلة المصاحبة مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَهُ عَلَيْهِمْ إلى درجة الدخول فيهم ، ولعلّه نوع من العلم باللـه ، ذكره فى قوله تعإلى : يَرْفَعِ اللَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ .

---

١ ـ الآيات ٦٥ إلى ٧٠، من السورة ٤: النساء .

٢ ـ آية ١٩، من السورة ٥٧: الحديد .

فالصراط المستقيم أصحابه منعـم عليـهم بنعمـة هـى أرفـع النعـم قـدراً ، يربو على نعمة الإيمان التامّ ، وهـذا أيضـاً نعـت مـن نعـوت الصـراط المسـتقيم . ثمّ إنّه تعالى على أنّـه كـرّر فى كلامـه ذكـر الصـراط والسـبيل لم ينسـب لنفسـه أزيد من صراطٍ مستقيم واحد ، وعدّ لنفسه سُبلاً كثـيرة ، فقـال عـزّ مـن قـائل : وَالَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، [1]

وكذا لم ينسب الصراط المستقيم إلى أحدٍ مـن خلقـه إلاّ مـا فى هـذه الآيـة صِرَطَ الَّذِيـنَ أَنْعَمْـتَ عَلَيْـهِمْ ـ الآيـة ،[2] ولكنّـه نسـب السـبيل إلى غـيره مـن خلقه فى عدّة مواضع ، كنسبته إلى النـبىّ : قُـلْ هَـٰذِهِ سَـبِيلِى أَدْعُـوٓ إِلَـى اللَّـهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَـنِ اتَّبَعَنـى ، [3] وكنسـبته إلى المنيـب للّـه : وَاتَّبِـعْ سَـبِيلَ مَـنْ أَنَابَ إِلَى ، [4] وكنسبته إلى المؤمنين : وَمَن يشَاقِقِ الرَّسُولَ مِـن بَعْـدِ مَـا تَبَيَّـنَ لَـهُ الْـهُدَىٰ وَيَتَّبِـعْ غَـيْرَ سَـبِيلِ الْمُؤْمِنِـينَ نُوَلِّـهِ مَـا تَوَلَّـىٰ وَنُصْلِـهِ جَـهَنَّمَ وَسَـآءَتْ مَصِيرًا . [5]

ويُعلم منـها أنّ السـبيل غـير الصـراط المسـتقيم فإنّـه يختلـف ويتعـدّد ويتكثّـر باختـلاف المتعبّـدين السـالكين سـبيل العبـادة بخـلاف الصـراط

---

١ ـ الآية ٦٩، من السورة ٢٩: العنكبوت .

٢ـ و سببه أنّ المراد من «الذين أنعمت عليهم» خصوص أولياء اللـه الذين نـالوا فـوز الوصـول إلى الولايـة الكلّيّـة ، لانّ المـراد مـن النعمـة أينمـا وردت فى القـرآن الكـريم كـان خصـوص نعمـة الولايـة . و علـى هـذا فـإنّ إضافـة و نسـبة الصـراط إلى المنعـم عليـهم لايختلـف عـن إضافتـه إلى اللـه ، لانّ شـرط الولايـة الفنـاء المحـض لـولىّ اللـه فى ذاتـه القدسـيّة ، و المؤثّـر هـو وحدة الفانى و المفنىّ فيه ، فصراط اللـه و صراط ولىّ اللـه صراط واحد حقّاً و حقيقةً .

٣ ـ الآية ١٠٨، من السورة ١٢: يوسف .

٤ ـ الآية ١٥، من السورة ٣١: لقمان .

٥ ـ الآية ١١٥، من السورة ٤: النساء .

المستقيم ، كما يشير إليه قوله تعالى : قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللَهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُ وسُبُلَ السَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . [١]

فعدّ السُبل كثيرة والصراط واحداً ، وهذا الصراط المستقيم إمّا هو السبل الكثيرة وإمّا أنّها تؤدّى إليه باتّصال بعضها إلى بعض واتّحادها فيه . وأيضاً قال تعالى : وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ، [٢] فبيّن أنّ من الشرك (وهو ضلال) ما يجتمع مع الإيمان وهو سبيل ، ومنه يعلم أنّ السبيل يجامع الشرك ، لكنَّ الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمِ لا يجامع الضّلال ، كما قال : وَلاَ الضَّالِينَ.

والتدبّر فى هذه الآيات يُعطى أنّ كلّ واحد من هذه السُبل يجامع شيئاً من النقص أو الامتياز ، بخلاف الصراط المستقيم ، وأنّ كلاًّ منها هو الصراط المستقيم لكنّه غير الآخر ويفارقه ، لكنّ الصراط المستقيم يتّحد مع كلٍّ منها فى عين أنّه يتّحد مع ما يخالفه ، كما يستفاد من بعض الآيات المذكورة وغيرها ، كقوله : وَأَنِ اعْبُدُونى هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ، [٣] وقوله تعالى : قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّى إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ، [٤] فسمّى العبادة صراطاً مستقيماً وسمّى الدين صراطاً مستقيماً وهما مشتركان بين السبل جميعاً .

فمثل الصراط المستقيم بالنسبة إلى سبل الله تعالى كمثل الروح

---

١ ـ الآيتان ١٥ و ١٦، من السورة ٥: المائدة .

٢ ـ الآية ١٠٦، من السورة ١٢: يوسف .

٣ ـ الآية ٦١، من السورة ٣٦: يس .

٤ ـ الآية ١١٦، من السورة ٦: الانعام .

بالنسبة إلى البدن ، فكما أنّ للبدن أطواراً فى حياته هو عند كلّ طور غيره عند طورٍ آخر ، كالصِّبا والطغواة والمُراهقَة والشباب والكهولة والهرم ، لكنّ الروح هى الروح وهى متّحدة بها ، والبدن يمكن أن تطرأ عليه أطوار تنافى ما تحبّه وتقتضيه الروح لو خلّيت ونفسها بخلاف الروح ، فِطْرَتَ اللَهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، [1] والبدن مع ذلك هو الروح أعنى الإنسان ، فكذلك السبيل إلى الله تعإلى هو الصراط المستقيم ، إلاّ أنّ السبيل كسبيل المؤمنين وسبيل المنيبين وسبيل المتّبعين للنبىّ أو غير ذلك من سبل الله تعإلى ، ربّما اتّصلت به آفة من خارج أو نقص ، لكنّهما لايعرضان الصراط المستقيم ، كما عرفت أنّ الإيمان وهو سبيل ربّما يجامع الشرك والضلال ولكن لايجتمع مع شىء من ذلك الصراط المستقيم ؛ فللسبيل مراتب كثيرة من جهة خلوصه وشوبه وقربه وبُعده ، والجميع على الصراط المستقيم أو هى هو .

وقد بيّن الله سبحانه هذا المعنى ، أعنى اختلاف السبيل إلى الله مع كون الجميع من صراطه المستقيم فى مثل ضربه للحقّ والباطل فى كلامه فقال تعإلى : أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ وكَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَهُ الْحَقَّ وَالْبَـٰطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ كَذَ لِكَ يَضْرِبُ اللَهُ الأَمْثَالَ . [2]

فبيّن أنّ القلوب والإفهام فى تلقّى المعارف والكمال مختلفة ، مع كون الجميع متّكئة ومنتهيةً إلى رزقٍ سماوىّ واحد ، وبالجملة فهذا أيضاً

١ ـ الآية ٣٠، من السورة ٣٠: الروم .

٢ ـ الآية ١٧، من السورة ١٣: الرعد .

نعت من نعوت الصراط المستقيم .

وإذا تـأمّلتَ مـا تقـدّم مـن نعـوت الصـراط المسـتقيم تحصّـل لـك أنّ الصراط المسـتقيم مـهيمن علـى جميـع السـبل إلى اللـه والطريـق الهاديـة إليـه تعإلى ، وبمعنى أنّ السبيل إلى اللـه إنّما يكون سبيلاً إليه موصـلاً إليـه بمقـدار مـا يتضمّنـه مـن الصـراط المسـتقيم حقيقـةً ، مـع كـون الصـراط المسـتقيم هاديـاً موصلاً إليـه مطلقـاً بـدون قيـد أو شـرط ، ولذلـك سمّـاه اللـه تعـإلى صراطـاً مستقيماً ، فإنّ الصراط هو الواضح من الطريق ، مأخوذ من سـرطت سـرطاً إذا بلعتَ بلعـاً، كأنـّه يبلـع سـالكيه فـلا يدعـهم يخرجـون عنـه ولا يدفعـهم عـن بطنه ، والمستقيم هو الذى يريد أن يقوم علـى سـاق فيتسـلّط علـى نفسـه ومـا لنفسه ، كالقائم الـذى هـو مسـلّط علـى أمـره ، ويرجـع المعـنى إلى أنـّه الـذى لايتغيّر أمـره ولا يختلـف شـأنه . ف الصـراط المسـتقيم مـا لايتخلّـف حكمـه فى هدايته وإيصاله سالكيه إلى غايته وقصدهم ، قال تعإلى:

فَأَمَّـا الَّذِيـنَ ءَامَنُـوا باللـه وَاعْتَصَمُـوا بـهِ فَسَـيدْخِلُهُمْ فِـى رَحْمَـةٍ مِنْـهُ وَفَضْـلٍ وَيَهْدِيـهِمْ إِلَيـهِ صِرَطًـا مُّسْـتَقِيمًا، [1] أىَ لايتخلّـف أمـر هـذه الهدايـة ، بل هى على حالها دائماً .

وقال تعإلى : وَمَن يُرِدِ اللَهُأَن يَهْدِيَهُ و يَشْرَحْ صَـدْرَهُ و لِلإِسْلَـ'م وَمَـن يُرِدْأَن يُضِلَّهُ و يَجْعَلْ صَدْرَهُ وضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّـمَا يَصَّعَّدُ فِـى السَّـمَآءِ كَـذَ لِـكَ يَجْعَلُ اللَهُ الرِّجْسَ عَلَـى الَّذِيـنَ لاَ يُؤْمِنُـونَ * وَهَـذَا صِـرَطُ رَبِّـكَ مُسْـتَقِيمًا ، [2] أى هذه طريقته التى تختلف ولا تتخلّف .

وقال تعـإلى: قَـالَ هَـ'ـذَا صِـرَ'طٌ عَلَـىَّ مُسْـتَقِيمٌ *إِ نَّ عِبَـادِى لَيْسَ لَكَ

١ ـ الآية ١٧٥، من السورة ٤: النساء .

٢ ـ الآيتان ١٢٦ و ١٢٧، من السورة ٦: الانعام .

عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَـكَ مِـنَ الْغَـاوِينَ ، [1] أى هـذه سـنّتى وطريقـتى دائمـاً مـن غـير تغيـير ، فـهو يجـرى مجـرى قولـه : فَلَـن تَجِـدَ لِسُـنَّتِ اللَّـهِ تَبْدِيـلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً . [2]

وقد تبيّن ممّا ذكرنا فى معنى الصراط المستقيم أُمور :

أوّلها : أنّ الطـرق إلى اللـه مختلفـة كمـالاً ونقصـاً وغـلإاً ورخصـاً ، فى جهة قربهـا مـن منبـع الحقيقـة والصـراط المسـتقيم كالإسـلام والإيمـان والعبـادة والإخـلاص والإخبـات ، كمـا أنّ مقابلاتهـا مـن الكفـر والشـرك والجحـود والطغيـان والمعصيتـه كذلـك ، قـال سـبحانه : وَلِكُـلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّـا عَمِلُـوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ . [3]

وهذا نظير المعارف الإلهيّة الـتى تتلقّاهـا العقـول مـن اللـه فإنّـها مختلفـة بـاختلاف الاسـتعدادات ومتلوّنـة بـألوان القابليّـات علـى مـا يفيـده المثـل المضروب فى قوله تعالى : أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا . [4]

و ثانيها : أنـّه كمـا أنّ الصـراط المسـتقيم مـهمين علـى جميـع السـبل ، فكذلك أصحابه الذين مكّنهم اللـه تعالى فيه وتولّى أمرهـم وولاّهـم أمـر هدايـة عباده حيث قال : وَحَسُنَ أُولَـٰئِـكَ رَفِيقًـا ، [5] وقـال تعـالى : إِنَّمَـا وَلِيُّكُـمُ اللَّـهُ وَرَسُـولُهُ و وَالَّذِيـنَ ءَامَنُـوا الَّذِيـنَ يُقِيمُـونَ الصَّلَـوٰةَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَـوٰةَ وَهُـمْ رَٰكِعُـونَ . [6] والآيـة نازلـة فى أمـيرالمؤمنـين علـىّ بـن أبى طـالب علـيه السـلام

١ ـ الآيتان ٤٢، من السورة ١٥: الحجر .
٢ ـ الآية ٤٣، من السورة ٣٥: فاطر .
٣ ـ الآية ١٩، من السورة ٤٦: الاحقاف
٤ ـ الآية ١٧، من السورة ١٣: الرعد .
٥ ـ الآية ٦٩، من السورة ٤: النساء .
٦ ـ الآية ٥٥، من السورة ٥: المائدة .

بالاخبار المتواترة ، وهو عليه السلام أوّل فاتح لهذا الباب من الأُمّة .

وثالثها : أنّ الهداية إلى الصراط يتعيّن معناها بحسب تعيّن معناه ، فالهداية هى الدلالة وإراءة الغاية بإراءة الطريق ، وهى نحو إيصال إلى المطلوب ، وإنّما تكون من الله سبحانه ، وسنّته سنّة الاسباب بإيجاد سبب ينكشف به المطلوب ويتحقّق به وصول العبد إلى غايته فى سيره ، وقد بيّنه الله سبحانه بقوله : فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ و يَشْرَحْ صَدْرَهُ و لِلإِسْلَٰمِ ، [1] وقوله : ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى' ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَآءُ . [2] وتعدية قوله تلين ب إِلَى' لتضمين معنى مثل الميل والاطمئنان ، فهو إيجاده تعالى وصفاً فى القلب به يقبل ذكر الله ويميل ويطمئن إليه .

وكما أنّ سبله تعالى مختلفة ، فكذلك الهداية تختلف باختلاف السبل التى تضاف إليه ، فلكلّ سبيل هداية قبله تختصّ به ، وإلى هذا الاختلاف يشير قوله تعالى : وَالَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ، [3] إذ فرّق بين أن يجاهد العبد فى سبيل الله ، وبين أن يُجاهد فى الله ، فالمجاهد فى الاوّل (جَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ) يريد سلامة السبيل ودفع العوايق عنه ، بخلاف المجاهد فى الثانى (جَـٰهَدُوا فِينَا) فإنّه إنّما يريد وجه الله ، فيمدّه الله سبحانه بالهداية إلى سبيل دون سبيل بحسب استعداده الخاصّ به ، وكذا يمدّه الله تعالى بالهداية إلى السبيلً بعد السبيل حتّى يختصّه بنفسه جلّت عظمتُه .

و رابعها : أنّ الصراط المستقيم لمّا كان أمراً محفوظاً فى سبل الله

---

١ ـ الآية ١٢٥، من السورة ٦ : الانعام .

٢ ـ الآية ٢٣، من السورة ٣٩ : الزمر .

٣ ـ الآية ٦٩ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

تعإلى على اختلاف مراتبها ودرجاتها ، صحّ أن يهدى اللـــه الإنسـان إليـه وهـو مهدىّ ، فيهديه من الصراط إلى صـراط ، بمعـنى أن يهديـه إلى سـبيل مـن سـبله ثمّ يزيد فى هدايته فيهتدى من ذلك السـبيل إلى مـا هـو فوقـها درجـةً ، كمـا أنّ قولـه تعـإلى : اهْدِنَـا الصِّـرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ * صِـرَاطَ الَّذِيـنَ أَنْعَمْـتَ عَلَيْـهِمْ غَـيْرِ الْمَغْضُـوبِ عَلَيْـهِمْ وَلاَ الضَّـإلينَ ـ وهـو تعـاى يحكيـه عمّـن هـداه بالعبادة ـ من هذا القبيل .

ولا يرد عليه أنّ سـؤال الهدايـة ممّـن هـو مـهتد بـالفعل سـؤالٌ لتحصيـل الحاصل وهو محال ، وكذا ركوب الصـراط بعـد فـرض ركوبـه تحصيـل للحـاصل ولا يتعلّق به سؤال ، والجواب ظاهر .

وكذا الإيراد عليه بـأنّ شـريعتنا أكمـل وأوسـع مـن جميـع الجـهات مـن شرائع الأُمم السابقة ، فما معنى السؤال من اللـه سـبحانه أن يـهدينا إلى صـراط الذين أنعم اللـه عليهم منهم ؟ وذلك أنّ كون شـريعة أكمـل مـن شـريعة أمـرٌ ، وكون المتمسّـك بشـريعة أكمـل مـن المتمسّـك بشـريعةٍ أمـرٌ آخـر وراءه ، فـإنّ المؤمن المتعارف من مؤمنى شريعة محمّـد صلّـى اللـه عليـه وآلـه ـ مـع كـون شريعته أكمل وأوسع ـ ليس بأكمل من نوح وإبراهيم عليهما السـلام مـع كـون شـريعتهما أقـدم وأسـبق ، وليـس ذلـك إلاّ أنّ حكـم الشـرائع والعمـل بهـا غير حكم الولاية الحاصلة من التمكّن فيها والتخلّق بها .

فصاحبُ مقام التوحيد الخـالص ؛ وإن كـان مـن أهـل الشـرائع السـابقة ، أكمل وأفضـل ممّـن لم يتمكّـن مـن مقـام التوحيـد ولم تسـتقرّ حيـاة المعرفـة فى روحه ولم يتمكّن نور الهداية الإلهيّة مـن قلبـه ، وإن كـان عـاملاً بشـريعد محمّـد صلّى اللـه عليه وآله وسلّم التى هى أكمـل الشـرائع وأوسـعها ، فمـن الجـائز أن يستهدى صاحب المقام الدانى من أهـل الشـريعة الكاملـة ويسـأل اللـه الهدايـة إلى مقام صاحب المقام العإلى من أهل الشريعة التى هى دونها .

ومن أعجب ما ذُكر فى هذا المقام ما ذكره بعض المحقّقين من أهل التفسير جواباً عن هذه الشبهة : أنّ دين الله واحد وهو الإسلام ، والمعارف الاصليّة وهى التوحيد والنبوّة والمعاد وما يتفرّع عليها من المعارف الكلّيّه واحد فى الشرائع ، وإنّما مزية هذه الشريعة على ما سبقها من الشرائع هى : أنّ الاحكام الفرعيّة فيها أوسع وأشمل لجميع شؤون الحياة ، فهى أكثر عنايةً بحفظ مصالح العباد وثانياً أنّ أساس هذه الشريعة موضوع على الاستدلال بجميع طرقها من الحكمة والموعظة والجدال الاحسن ، وثالثاً أنّ الدين وإن كان ديناً واحداً والمعارف الكلّيّة فى الجميع على السواء غير أنّهم سلكوا سبيل ربّهم قبل سلوكنا ، وتقدّموا فى ذلك علىٰنا ، فأمرنا الله النظر فيما كانوا عليه والاعتبار بما صاروا إليه .

وقد ردّ العلاّمة على هذا القول بهذا الشكل :

هذا الكلام مبنىّ على أُصول فى مسلك التفسير مخالفة للأُصول التى يجب أن يبتنى مسلك التفسير عليها ، فإنّه مبنى على أنّ حقايق المعارف الاصليّة واحدة من حيث الواقع من غير اختلاف فى المراتب والدرجات وكذا ساير الكمالات الباطنيّة المعنويّة ، فأفضل الانبياء المقرّبين مع أحسن المؤمنين من حيث الوجود وكماله الخارجىّ التكوينىّ على حدٍّ سواء ، وإنّما التفاضل بحسب المقامات المجعولة بالجعل الشتريعىّ من غير أن يتّكى على تكوين ، كما أنّ التفاضل بين الملك والرعية إنّما هو بحسب المقام الجعلىّ الوضعىّ من غير تفاوت من حيث الوجود الإنسانىّ .

ولهذا الاصل أصلٌ آخر يبنى عليه ، وهو القول بإصالة المادّة ونفى الاصالة عمّا ورائها والتوقّف فيه إلاّ فى الله سبحانه بطريق الاستثناء بالدليل ، وقد وقع فى هذه الورطة مَن وقع لاحد أمرين : إمّا القول بالاكتفاء بالحسّ اعتماداً على العلوم المادّيّة ، وإمّا إلغاء التدبّر فى القرآن بالاكتفاء

بالتفسير بالفهم العامّىّ .

و خامسها: أنّ مزية أصحاب الصراط المستقيم على غيرهم ، وكذا صراطهم على سبيل غيرهم ، إنّما هو بالعلم لابالعمل ، فلهم من العلم بمقام ربّم ما ليس بغيرهم ، إذ قد تبيّن ممّا مرّ أنّ العمل التامّ موجود فى بعض السبل التى دون صراطهم ، فلا يبقى لمزيّتهم إلاّ العلم ، وأمّا ما هذا العلم ؟ وكيف هو ؟ فنبحث عنه إن شاء اللـه فى قوله تعالى : أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا . [1]

ويُشعر بهذا المعنى قوله تعالى : يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ، [2] وكذا قوله : إِلَيهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُ ، [3] فالذى يصعد إليه تعالى هو الكلم الطيّب وهو الاعتقاد والعلم ، وأمّا العمل الصالح فشأنه رفع الكلم الطيّب والإمداد ، دون الصعود إليه تعالى . [4]

إلى هنا تنتهى إفادات أُستاذنا الاعظم قدّس اللـه نفسه فى التفسير ، وقد نُقلت بعينها لاحتوائها مطالب عميقة دقيقة وإفاضات رشيقة ، ليصل المطالعون الكرام ؛ بصرف الوقت والتأمّل فى مضامينها ؛ إلى نكاتها الفلسفيّة والعرفانيّة ، وأن يدعوا اللـه سبحانه جادّين ليرزقهم توفيق العمل بالقرآن ، وتوفيق الاهتداء وسلوك الصراط المستقيم ، وأن يجعلهم فى معيّة أوليائه المهيمنين على السبل ، وأن يفيدهم و يمتّعهم بمزايا الصراط

---

١ ـ الآية ١٧، من السورة ١٣: الرعد .

٢ ـ الآية ١١، من السورة ٥٨: المجادلة .

٣ ـ الآية ١٠، من السورة ٣٥: فاطر .

٤ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ، ج ١، ص ٢٦ إلى ٣٥ مع حذف بعض المسائل الجزئيّة غير الضروريّة .

المستقيم وفوائده التى تضيق عن الحصر ؛ أى أن يرفعهم من الكثرة إلى الوحدة ، ومن الثنويّة إلى التوحيد ، ومن رؤية الوجه الخلقىّ للموجودات إلى زيارة ولقاء وجه الله ، وخلاصة القول يوصلهم بالطريق والسبيل والنهج إلى الصراط المستقيم .

ولإيضاح هذا المختصر نقول : إنّ كل موجود من الموجودات ، وكلّ ظاهرة فى عالم الخلق تخضع لقانون وبرنامج منظّم لاتتخطّى عنه أبدا ، فهى تتحرّك على الدوام فى الطريق والمسير الذى خطّه لها خالقها ، كلٌّ تحت خصوصيّة من الخصوصيّات وماهيةٍ من الماهيّات ، بلا إفراطٍ وتجاوز وسبق وتعدّى ، وبلا تفريط وقصور وفطور ، مع شروط معيّنة ومعدّات خاصّة إلى المقصد والغاية الطبعيّة والطبيعيّة وكمال الحياة الماديّة ، كلٌّ ينشد هدفه ويتوجّه نحوه ويطمئنّ إليه ويسكن .

هذا من الجهة الظاهريّة ، وهى تختلف فى هذه الحالة عن بعضها فى البداية والمنتهى ، وفى السير والمسير ، وفى الظروف والعقبات ، وفى الغاية والنتيجة ، وفى الرزق والتحمّل ، وأخيراً فهى تختلف فى كلّ شىء وفى جميع الاعراض التسعة التى تطرأ على الجوهر .

لكنّ جميع هذه الموجودات ، بلا اختلاف فى النهاية ، تتحرّك معاً فى توحدّ واتّفاق ، وفى منتهى الأُنس والألفة إلى مقصدٍ واحد وهو الله سبحانه ، فهو الذى يمسك بزمام حركتها فى الباطن ، كلاًّ على انفراد ، فيسوقها إليه .

فالنملة تختلف عن النحلة وتتفاوت من جميع الجهات ، لكنّهما يتّحدان من هذه الجهة ولا ينفصلان ؛ وبالرغم من اختلاف الإنسان عن الحيوان ، واختلاف أصناف الحيوانات البرّيّة والبحريّة والطائرة عن بعضها ، لكنّها تتّفق وتتّحد جميعاً فى سيرها إلى الله ، ذلك السير الذى لا تتوقّف عنه لحظة ولا تبطى فى سرعتها واندفاعها فيه .

فهى دوماً فى حالة حركةٍ إلى الله ، فى نومها ويقظتها ، وفى حال علمها وجهلها ، وفى حال سقمها وصحّتها ، وفى حال موتها وحياتها ، تتحرّك إلى الله وتبحث عنه بلا وعىٍ منها أو شعور بهذه المسألة . هذه الحركات المختلفة التى لا تنتهى ولا تنحصر باختلافهم فقط فى الجنس والنوع والصنف ، بل إنّ كلّ فرد من أفراد الموجودات ، وكلّ ذرّة من الذّرات لها اختلاف فيما بينها ، لا تتّحد مع بعضها ولن تتّحد أبداً ، وذلك ما يُعبّر عنه بالسُبل، فتبارك الخالق الحقّ الذى خلق بقدرته وعظمته التى لاينقضى منها العجب هذه الموجودات التى تضيق عن الحصر والإحصاء .

إنّ الاتّحاد ووحدة الحركة باتّجاه مقر عزّ الله ، التى هى غاية فى الاتّحاد بل هى الوحدة ، يعبّر عنها بالصراط المستقيم ، حيث إنّ كلّ موجود ، وإن افترق كلّ بسبيله وظاهر خلقته ، لكنّه فى باطنه وقرارة نفسه يجد الصراط المستقيم الذى كان السبيل عليه أشبه بالستارة المسدلة التى تخفيه وتغطّيه ، فمن نظر الظاهر رأى سبيلاً مفترقاً منعزلاً مختصّاً بذلك ، ومن التفت إلى الباطن شاهد الكلّ فى صراطٍ مستقيم واحد ، ويتّضح له أنّ :

وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ [1] كالشمس الطالعة وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، [2] تُبدّل إلى تَفْقهون وتَعلمون وتُبصرون وتُشاهدون . وستتضّح وتتبيّن هذه الآية ونظائرها من الآيات القرآنيّة الكثيرة الحسنة الجميلة ، كالآية الشريفة :

مَا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَى' صِرَطٍ مُّسْتَقِيمٌ ، [3]

لانّ المراد من أخذ الناصية سوقها وتحريكها فى طريق وبأُسلوب

١- قسم من الآية ٤٤، من السورة ١٧: الإسرآء .

٢- قسم من الآية ٥٦، من السورة ١١: هود .

معيّن ومقدّر ، والمراد من الصراط المستقيم هو السُّنّة الإلهيّة الواحدة التى تضع جميع الموجودات فى هذا الصراط وتهيمن عليها . وقد كان هذا هو قول النبىّ هود على نبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام لقومه بعد أن قال : إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ، [1] ومن هنا يُعلم أنّ حقيقة التوكّل تعنى الخروج والتنصّل من حول النفس وقوّتها واتّخاذ الله وكيلاً وكفيلاً ، وعبارة عن ورود الصراط المستقيم ومشاهدة أنّ زمام المخلوقات جميعاً بِيَدِ الحقّ تعإلى ، لا يُستثنى من هذا الحكم حتّى ذرّة واحدة .

فالكلّ قد خضعت رقابهم فى مقام العبوديّة ، المؤمن والكافر ، والعادل والفاسق ، يتفّقون ويتّحدون بدون أدنى اختلاف واتغيير من جهة أمر التكوين ومن جهة وجه ربّى ومن جهة الوجه الامرىّ ، هذه الموجودات نفسها التى كانت تختلف وتتغاير من جهة أمر التشريع والاعتبار ، ومن جهة الوجه الخلقىّ ، ومن جهة جنبة العالم هذه ، لا ينحصر اختلافها ومغايرتها فى أُصول وفروع الهيّة والتركيب ، بل يتعدّى ذلك إلى أدقّ مراحل تشخّصها ، فكان كلٌّ يسلك سبيلاً يتحرك فيه غير سبيل الآخر .

وسرّ ذلك أنّ الله سبحانه واحد ، وجميع الموجودات مخلوقاته هو فحسب ، وبالرغم من أنّ الله قد أوجدها كثيرة الاختلاف ـ وإلاّ لم يكن لها هذه الكثرة والتعدّد ـ ومع ذلك فهى متّصلة به ومرتبطة ، وهى من جهة المخلوقيّة سواء ، فكلّها ظهورات وتجليّات الواحد الذى هو الله ، والتكرار فى التجلىّ محال غير ممكن ، فقد نشأت كلّها من مبدأ واحد ، وتتحرّك فى مسير واحد ، وتنتهى إلى غايةٍ واحدة .

وكم كان جميلاً بيان العارف الجليل الشيخ محمود الشبسترىّ رحمه

١- قسم من الآية ٥٦، من السورة ١١: هود .

اللـه عليه لهذا الامر :

تـو آن واحـد كه عين كثـرت آمد

تـو آن جمعـى كه عين وحـدت آمد

در اين مشهد يكى شد جمع و أفراد

چو واحد سارى اندر عـين أعـداد[1]

كسـى اين سِر شناسد كو گذر كرد

ز جزوى سـوى كلّى يك سفر كرد [2]

أى أنّ هـذا الربـط بـين الحـادث والقـديم ، وبـين الخلائـق والمخلـوق ، ووحـدة الـذات والصفـات والافعـال هـذه فى كـثرة الظـهورات والمخلوقـات ، سيمّكن للإنسـان الـذى جـاوز الطـرق السـبليّة ووصـل إلى الصـراط المسـتقيم ويخطو وفق منهجه وينصرف من رؤيـة الكـثرات الجزئيّـد إلى التطلّـع إلى جمـال المحبوب الواحد الاحد الفرد الصّمد ، أى يسافر من عالم الجزئيّات إلى عالم الكلّيّات والبسائط والانوار ، فيرى النور المطلق للحقّ الواحد فى جميع ما سواه ، مـن الـذرّة إلى الـذروة ، ومـن المُلـك إلى المَلَكُـوت ، ومـن أدنى إلى أعلـى مقـام ودرجـة الهويّات .

وهذا هو مقام الإنسان الكامل ، أى الصراط المسـتقيم ؛ كمـا قـال صـادقُ آل محمّد عليه السلام :

إنَّ الصُّـورَةَ الإنْسَـانِيَةَ هِـىَ الطَّـرِيقُ المُسْـتَقِيمُ إلَـى كُلِّ خَيْـرٍ وَالجِسْـرُ

١ـ يقول : «أنت ذلك الواحد الذى كان نفس الكثرة ـ وذلك الجمع الذى كان عين الواحد . فى هذا المشهد واحدٌ صار جمعاً وأفراداً ـ والأفراد صاروا تسارياً فى كلّ الأعداد .

٢- يقول: مَن يفهم هذا السرّ عندما سافر من عالم الجزئيّات إلى عالم الكلّيّات» .

المَمْدُودُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ . [١]

لقد كان سيّد الشهداء عليه السلام حقيقة القرآن الناطق ، [٢] وحقيقة الصراط المستقيم حيث دعا براحلته ـ وفق رواية الطبرىّ ـ فركبها ونادى بأعلى صوته بصوت عالٍ دعاءً يسمع جلّ الناس :

أيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِى وَلاَ تَعْجَلُوا حَتَّى أَعِظُكُمْ بِمَا هُوَ حَقٌّ لَكُمْ عَلَىَّ ؛ وَحَتَّى أَعْتَذِرُ إلَيكُمْ مِنْ مَقْدَمِى عَلَيْكُمْ !

فَإن قَبِلْتُمْ عُذْرِى ، وَ صَدَّقْتُمْ قَوْلِى ، وَ أَعْطَيْتُمُونِى النِّصْفَ [٣] مِنْ

١ـ «تفسير الصافى» ج ١، ص ٥٥، طبعة گراورى الإسلاميّة .

٢ـ حين رفع جيش معاوية بتدبير ومكر عمرو بن العاص المصاحَف على رؤوس الرماح وطلبوا تحكيم القرآن ، قال أميرالمؤمنين عليه السلام لصحبه أن لا يُخدعوا بمكيدة أعدائهم ، فهى حيلة يريدون بها إيقاع الوهن بينهم وحيازة النصر عنهم ثمّ العمل بعد ذلك خلاف كتاب الله ، حتّى يصل إلى القول : أنا كلام الله الناطق وهذا كلام الله الصامت . هذه عبارة حكاها الشهيد القاضى نور الله الشوشترىّ فى مقدّمة كتابه «مجالس المؤمنين» ص ٤، الطبعة الحجريّة ، عن قطب الدين صاحب «المكاتيب» ، ثم قرّره بالنحو التالى : فحسب الوجه الذى ذكره مولانا الفاضل العارف قطب الدين الانصارىّ الشافعىّ فى كتاب «المكاتيب» لايكمن الاهتداء إلى الطريق بلا دليل ، وقولُ (إنّ كتاب الله وسُنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بيننا فلا حاجة لدليل ومرشد) يشبه قول المريض : إنّ الكتب التى خطّها الطبيب موجودة فلا داعى لمراجعة الطبيب ، وهو خطأ ، لانّ فهم الكتب التى خطّها الطبيب والاستنباط منها لا يتيسّر لكلّ أحد ، فلابدّ من الرجوع إلى أهل الاستنباط ، (ولو ردّوه إلى الرسول وإلىأُولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ، فالكتاب الحقيقىّ هو صدور أهل العلم لا فى بطون الدفاتر (بل هو آياتٌ بيّنات فى صدور الذين أوتوا العلم) كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام : أنا كلام الله الناطق وهذا كلام الله الصامت . هذا تمام كلام الفاضل المذكور ـ انتهى نقل القاضى نور الله عن قطب الدين الشافعىّ .

٣ـ النِّصْف بكسر النون وسكون الصاد ، وقد تثلّث النون : اسم بمعنى الإنصاف ، يقال : ما جعلوا بينى وبينهم نُصْفاً : أى إنصافاً وعدلاً «أقرب الموارد» .

أَنْفُسِكُمْ كُنْتُمْ بذَلِكَ أَسْعَدَ ؛ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَلَىَّ سَبيلٌ . وَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا مِنِّى العُذْرَ وَلَمْ تُعْطُوا النِّصْفَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ؛ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إلَى وَلاَ تُنْظِرُونِ . إنَّ وَلِيِّىَ اللَهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ .

فلمّا أخواته كلامه هذا صحن وبكين ، وبكت بناته فارتفعت أصواتهنّ ، فأرسل إليهنّ أخاه العبّاس بن علىّ عليهما السلام وعليّاً ابنه وقال لهما : سكّتاهنّ فلعمرى ليكثر بكاؤهنّ .

فلمّا سكتنَ حَمِدَ الله وأثنى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلّى على النبيّ محمّد ، وعلى ملائكة الله وأنبيائه ، فلم يُسمع متكلّم قطّ قبله ولا بعده أبلغَ فى منطق منه .[1]

ثمّ قال : الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى خَلَقَ الدُّنْيَا فَجَعَلَهَا دَارَ فَنَاءٍ وَزَوَالٍ ، مُتَصَرِّفَةً بأَهْلِهَا حَالاً بَعْدَ حَالٍ ، فَالمَغْرُورُ مَنْ غَرَّتْهُ ؛ وَالشَّقِىُّ مَنْ فَتَنَتْهُ .

فَلاَ تَغُرَّنَّكُمْ هَذِهِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا تَقْطَعُ رَجَاءَ مَنْ رَكَنَ إلَيهَا ؛ وَتُخَيِّبُ طَمَعَ مَن طَمَعَ فِيهَا ؛و أَرَاكُمْ قَدْ اجْتَمَعْتُمْ عَلَى أَمْرٍ قَدْ أَسْخَطْتُمُ اللَهَ فِيهِ عَلَيْكُمْ ؛ وَأَعْرَضَ بوَجْهِهِ الكَرِيمِ عَنْكُمْ ،و أَحَلَّ بكُمْ نقْمَتَهُ وَجَنَّبَكُمْ رَحْمَتَهُ .

فَنِعْمَ الرَّبُّ رَبُّنَا ، وَبِئْسَ العَبِيدُ أَنْتُمْ ! أَقْرَرْتُمْ بالطَّاعَةِ وَآمَنْتُمْ بالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ؛ ثُمَّ إنَّكُمْ زَحَفْتُمْ إلَى ذُرِّيَّتِهِ وَعِتْرَتِهِ تُرِيدُونَ قَتْلَهُمْ .

لَقَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْكُمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاكُمْ ذِكْرَ اللَهِ العَظِيمِ ! فَتَبًّا لَكُمْ وَلِمَا تُرِيدُونَ . إنَّا لِلّهِ وَإنَّا إلَيهِ رَاجِعُونَ .

١ـ «تاريخ الطبرىّ» ج ٦، ص ٢٤٢.

هَؤُلاَءِ قَوْمٌ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانهمْ فَبُعْداً لِلقَوْمِ الظَّالِمِينَ .[١]

ثمّ قال : **أَمَّا بَعْدُ ؛ فَانْسِبُونَى وَانْظُرُوا مَنْ أَنَا؟ ثُمَّ لْجعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَابتُوهَا فَانْظُرُوا هَلْ يَصْلَحُ لَكُمْ قَتْلِى وَانْتِهَاكِ حُرْمَتِى ؟! أَوَلَسْتُ ابْنَ بنْتِ نَبِيِّكُمْ ؟ وَابْنَ وَصِيِّهِ ، وَابْنَ عَمِّهِ ،و أَوَّلَ المُؤْمِنِينَ المُصَدِّقِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِو آلِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ؟! أَوَلَيْسَ حَمْزَةُ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ عَمِى (عَمِّ أَبى) ؟**

أَوَلَيْسَ جَعْفَرُ الطَّيَّارُ فِىالجَنَّةِ بجَنَاحَيْن عَمِّى ؟ أَوَلَمْ يَبْلُغْكُمْ مَا قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِو آلِهِ لِى وَلاِخِى : هَذَانِ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ ؟!

فَإِنْ صَدَّقْتُمُونى بمَا أَقُولُ وَهُوَ الحَقُّ ، وَاللَهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَاً مُنْذُ عَلِمْتُ أَنَّ اللَهَ يَمْقُتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونى فَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ إِنْ سَأَلْتُمُوهُ عَنْ ذَلِكَ أَخْبَرَكُمْ ، سَلُوا جَابرَ بْنَ عَبْدِاللَهِ الأَنْصَارِىّ ؛ وَأَبَا سَعِيدٍ الخُدَرِىّ ، وَسَهْلَ بنَ سَعْدِ السَّاعِدِىّ ،و زَيْدَ بْنَ أَرْقَمْ ، وَأَنَسَ بْنَ مَالِكَ يُخْبرُوكُمْ أَنَّهُمْ سَمِعُوا هَذِهِ المَقَالَةَ مِنْ رَسُولِ اللَهِ لِى وَلاِخِى ، أَمَا فِى هَذَا حَاجزٌ لَكُمْ عَنْ سَفْك دَمِى ؟!

فقال له شمر بن ذى الجوشن : هو يعبد الله على حرف إن كان يدرى ما تقول .[٢]

١ـ مقتل محمّد بن أبى طالب حسب نقل المقرّم فى «مقتل الحسين عليه السلام» ، ص ٢٥٤ و ٢٥٥.

٢ـ فى «أقرب الموارد» : حرفُ كلّ شىء طرفه وشفيره وحدّه ، ومن هذا القبيل : حرف الجبل أى أعلى قمّته . (فلانٌ على حرفٍ من أمره) أى ناحيةٍ منه إذا رأى شيئاً لايُعجبه عدل عنه ، ومنه قول القرآن : «ومن الناس من يعبد الله على حرف» ؛ أى إذا لم يرَ ما يجب النقلب على وجهه ، فيعبده فى السّراء لا فى الضرّاء ـ انتهى .

فقال حبيب بن مظاهر : واللـه إنّى لارداك تعبد اللـه على سـبعين حرفـاً ، وأنا أشهد أنّك صادقٌ وماتدرى ما يقول الحسين عليه السـلام ، وقـد طبـع اللـه على قبلك .

ثمّ قال لهم الحسين عليه السلام :

فَإِنْ كُنْتُم فِى شَكٍّ مِنْ هَذَا أَفَتَشُـكُّونَ أَنِّـى ابْـنُ بِنْـتِ نَبِيِّكُـمْ ؟ فَوَاللَـهِ مَـا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالْمَغْـرِبِ ابْـنُ بِنْـتِ نَبِـىٍّ غَـيْرِى فِيكُـمْ وَلَاَ فِـى غَـيْرِكُمْ ، وَيْحَكُـمْ أَتَطْلُبُونِـى بِقَتِيـلٍ مِنْكُـمْ قَتَلْتُـهُ ؟ أَوْ مَـالٍ اسْـتَهْلَكْتُهُ ؟ أَوْ بِقِصَـاصِ جُراحَـةٍ ؟ فأخذوا لا يكلّمونه ، فنادى :

يَا شَبَثُ بْنُ رِبْعِىّ ! وَيَا حَجَّـارُ بْـنُ أَبْجَـر ! وَيَـا قَيْـسُ بْـنُ الاْشْـعَث ! وَيَـا يَزِيدُ بْنُ الحَارِثِ ! أَلَمْ تَكْتُبُوا إِلَى أَنْ قَـدْ أَيْنَعَـتِ الثِّمَـارُ وَاخْضَـرَّ الجَنَـابُ وَإِنَّمَـا تَقْدِمُ عَلَى جُنْدٍ لَكَ مُجَنَّدٍ فَأَقْبَلْ ؟

فقالوا : لم نفعل .

قال : سبحان اللـه ! بلى والله لقد فعلتم .

ثم قـال : ايـها النـاس اذا كرهتمـونى فدعـونى انصـرف عنكـم الى مـأمنى من الارض.

فقال له قيس بـن الاشـعث : أولا تـنزل علـى حكـم بـنى عمـكّ ؟ فـانهم لم يروك الا ما تحب و لن يصل اليك منهم مكروه .

فقـال الحسـين عليـه السـلام : لا واللـه لا اعطيـكم بيـدى اعطـاء

وعلـى هـذا فـإنّ معـنى العبـادة علـى حـرف أنـّه يعبـد اللـه فى بعـض الحـالات لا فى جميعها ، أى أنـّه لا يعبده بعقيـدةً راسـخة وإيمـانٍ تـامّ . كمـا تسـير إليـه الآيـة القرآنيّـة : «ومـن النـاس من يعبداللـه علـى حـرفٍ فـإن أصابـه خـيرٌ اطمـأنّ بـه وإن أصابتـه فتنـةٌ انقلـب علـى وجهـه خسـر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين» . وهى الآية ١١، من السورة ٢٢: الحجّ .

الذليل و لا اقر قرار العبيد !

ثم نادى : يا عباد الله ! انى عذت بربى و ربكم ان ترجمون انى اعوذ بربى و ربكم من كل متكبر لا يومن بيوم الحساب.

ثم اناخ راحلته و امر عقبة بن سمعان فعقلها و اقبلوا يزحفون نحوه . [١]

قال فى « نفس المهموم »، ص ١٤٩ ، بعد ذكر الخطبة الثانية للإمام عليه السلام **تَبَّاً لَكُمْ أَيُّهَا الجَمَاعَةُ وَتَرَحَاً حِينَ اسْتَصْرَخْتُمُونَا وَاهِلِينَ فَأَصْرَخْنَاكُمْ مُوجِفِينَ** : ويعجبنى فى هذا المقام نقل كلام ابن أبى الحديد فى « شرح النهج » عند ذكر الابيّين من احتمال الضيّم والذلّ ، قال : سيّدُ أهل الإباء الذى علّم الناسَ الحميّة والموت تحت ظِلال السيوف اختياراً له على الدنيّة أبو عبد الله الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، عُرض عليه وعلى أصحابه الامان فأنف من الذلّ ، ثمّ ذكر قوله : **أَلاَ وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَنِى بَيْنَ اثْنَتَيْنِ : بَيْنَ السِّلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذِّلَّةُ** ، إلى آخر الخطبة . ثمّ يقول ابن أبى الحَديد : سمعتُ النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلوىّ البصرىّ يقول : كأنّ أبيات أبى تمام فى محمّد بن حميد الطائىّ ما قيلت إلاّ فى الحسين عليه السلام :

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ المَوْتِ سَهْلاً فَرَدَّهُ
إِلَيهِ الحِفَاظُ المُرُّ وَالخُلُقُ الوَعْرُ
وَنَفْسٌ تَعَافُ الضَّيْمَ حَتَّى كَأَنَّهُ
هُوَ الكُفْرَ يَوْمَ الرَّوْعِ أَوْ دُونَهُ الكُفْرُ

١- نفس المهموم ص ١٤٥ و ١٤٦ عن الارشاد للشيخ المفيد .

فَأَثْبَتَ فِى مُسْـتَنْقَعِ المَــوْتِ رِجْـلَهُ
وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْـتِ أَخْمَصِـكِ الحَشْرُ
تَـرَدَّى ثِيَـابَ المَوْتِ حُمْرَاً فَمَا أَتَى
لَهَـا اللَّيْلُ إلاَّ وَهْىَ مِنْ سُنْدُسِ خُضْرُ

البَحْثُ الثَّالِثُ

أحْكَامُ القُرْآنِ مُطَابِقَةٌ لِلْحَقِّ وَخَالِدَةٌ أبَدَ الدَّهْرِ

وتفسير آية

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ

أعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

ولَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أعْدَائِهِمْ أجْمَعِينَ مِنَ الانَ إلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

ولاَ حَولَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قال اللـه الحكيم فى كتابه الكريم :

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ [1].

قال سماحة آية اللـه العلاّمـة الطباطبـائى قـدّس اللـه نفسـه فى التفسـير: القرآن اسم لكتـاب اللـه باعتبـار قراءتـه، والتلقيـة قريبـة المعـنى مـن التلقـين، وتنكير حكيم عليم للتعظيـم. والتصريـح بكـون هـذا القـرآن مـن عنـده تعـإلى ليكون ذلك حجّةً علـى الرسـالة، وتـأييداً لمـا تقـدّم مـن المعـارف، ولصحّـة مـا سيذكره من قصص الانبياء عليهم السلام .

وتخصيـص الاسمـين الكريمـين حكيـم وعليـم للدلالـة علـى نزولـه مـن ينبوع الحكمة، فلا ينقضه نـاقض ولا يوهنـه موهـن، ومنبـع العلـم فـلا يكـذب فى خبره ولا يخطى فى قضائه . [2]

وقد اشـتّى لفـظ القـرآن مـن مـادّة قَرَأَ يَقْرَأُ قَرَاءَةً وَقُرْآنَاً، أى جمـع بعـض

---

١ ـ الآية ٦، من السورة ٢٧: النمل .

٢ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٥، ص ٢٧٢.

الشيء إلى بعضه الا َخـر؛ ولان الإنسـان يجمـع وقـت القـراءة الحـروف ويضـمّ بعضها إلى البعـض الاخـر فتصـير كلمـةً، ثمّ ينشـأ العبـارة والكـلام، فقـد قبـل للكلام والتلاوة قراءةً.

والقـرآن مصـدر مـن هـذا البـاب، ثمّ جُعـل عَلَمًـا للكتـاب السـماوىّ للمسلين، المُـنزل علـى النـبىّ الاكـرم صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم، ودُعـى بـالقرآن لان العقـائد الحقّـة الواقعيّـة والاحكـام والمواعـظ والقصـص قـد جُمِعَت فيه.

وقال بعض العلماء رضوان اللـه عليـهم: إنّ علّـة عسـمية القـرآن قرآنـاً أنـّه كـان مـن بـين جميـع الكتـب السـماويّة ثمرتهـا وعصارتهـا جميعـاً، بـل قـد جُمـع فيـه عُصـارة وثمـرة العلـوم الحقّـة بأكلمـها، ويمكـن أن نسـتبين فيـه تفصيل كلّ شيء، كما قال تعإلى:

لَقَدْ كَانَ فِـى قَصَصِـهِمْ عِـبْرَةً لاّ لِـى الاْ لْبَـا'بِ مَـا كَـانَ حَدِيثًـا يُفْـتَرَى' وَلَـا'كِـن تَصْدِيـقَ الَّـذِى بَيْـنَ يَدَيْـهِ وَتَفْصِيـلَ كُـلِّ شَـىْءٍ وَهُـدًى وَ رَحْمَـةً لِّقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ. [1]

وكذلك عدّ القرآن تبياناً ومظهراً لكلّ شيء:

وَنَزَّلْنَـا عليـكَ الْكِتَـا'بَ تِبْيَـا'نًـا لِّكُـلِّ شَـىْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً وَبُشْـرَى' لِلْمُسْلِمِينَ. [2]

---

١ ـ الآية ١١١، من السورة ١٢: يوسف .

٢ ـ النصف الثانى للآيـة ٨٩، مـن السـورة ١٦: النحـل. يقـول ابـن حجـر العسـقلانى فى «شـرح صحيـح البخـارى» ج١٣ ص٢١٠و ٢١١ ، فى شـرح كـلام الرسـول الاكـرم صلـى اللـه عليـه و آله : بعثت بجوامـع الكلـم . مـا مـن الانبيـاء نـبى الا اعطـى مـن الآيـات مـا مثلـه او مـن (أو آمـن) عليـه البشـر ، و انمـا كـان الـذى اوتيـت وحيـا اوحـاه اللـه الىّ فـارجو انى اكـثرهم تابعـا يـوم القيـامـة : و معـنى الحصـر فى قـوله انمـا كـان الـذى اوتيتـه ان القـرآن اعظـم المعجـزات و افيـدها

والشاهد على قولنا هو الآيات القرآنيّة الدالّة على هذا المعنى، مثل آية:

لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ *إِنَّ علينَا جَمْعَهُ و وَقُرْءَانَهُ و * فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ و* ثُمَّإِنَّ علينَا بَيَانَهُ. [1]

وآية: وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُ و على النَّاسِ على' مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنْزِيلاً. [2]

ومن أسماء القرآن أيضاً: الفرقان، من مادّة فَرَقَ يَفْرُقُ فَرْقاً وَفُرْقَانـاً ، من التفريق بين الأجزاء، و بعد أن عرفنا أنّ معنى الآية وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ هو : أنّا فصّلنا القرآن جزءاً جزءاً وأتقنّاه وأحكمناه ؛ وعلى هذا فإنّ مصدرها الفُرْقَان بمعنى الفارق والفارق بين الحقّ والباطل ؛ وبما أنّ هذا الكتاب السماويّ المبين كتابُ فصلٍ وليس بالهزل ، وكتاب حقّ لاباطل ، فهو

و ادومها لاشتماله على الدعوة و الحجة و دوام الانتفاع الى آخر الدهر ، فلما كان لاشيء يقاربه فضلا عن ان يساويه كان ما عداه بالنسبة اليه كأن لم يقع .

قيل يؤخذ من ايراد البخارى هذا الحديث عقب الذى قبله (بعثت بجوامع الكلم) أنّ الراجح عنده ان المراد بجوامع الكلم القرآن و ليس ذلك بلازم ، فان دخول القرآن فى قوله بعثت بجوامع الكلم لاشى فيه و انما النزاع هل يدخل غيره من كلامه من غير القرآن .

١ ـ الآيتان ١٦ إلى ١٩، من السورة ٧٥: القيامة. اورد الشيخ محمود ابو رية فى كتاب « اضواء على السنة المحمدية » ص ٢٤٦، الطبعة الثالثة : كان النبى حينما ينزل عليه من القرآن ما ينزل يأمر كتّابه بان يسارعوا الى كتابته عند النطق به ، حت؟ لقد بلغ من حرصه على ادائه كما اوحى اليه ان كان يحرك به لسانه بما يتلقاه من الوحى حتى لا يتفلت منه شيء ، فقد اخرج البخارى و غيره عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : لا تحرك به لسانى ... الآية ، قال : كان رسول الله يعالج من التنزيل شدة ، كان يحرك به لسانه و شفتيه مخافة ان يتفلّت منه ـ يريد ان يحفظه ـ فانزل الله : لا تحرك... الآية.

٢ ـ الآية ١٠٦، من السورة ١٧: الإسراء . وقريب من هذا المعنى الآية ١١٤، من السورة ٢٠: طه: فَتَعَلَى اللهُ الْمُلْكُ الْحَقُّ وَلاَتَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِأَن يُقْضَى' إِلَيْكَ وَحْيُهُو وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا.

الفاصل والمميّز والمفرّق بين الحقّ والباطل:

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى ۟ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ . [١]

وقد ورت لفظة الفُرقان فى سبعة مواضع من القرآن الكريم، وكانت تعنى فى تلك المواضع جميعاً القدرة على تشخيص الحقّ من الباطل ، والنور والبصيرة الحاصلة للمؤمنين إثر التقوى.

والقرآن الشامل لجميع المعارف أعمّ وأشمل ممّا كان يوحى للأنبياء السابقين ويُبيّن وأُوحى إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله فهو أعمّ و أشمل وهو فرقان أيضاً .

ويستفاد من الروايات الواردة عن الائمّة المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أنّ القرآن يُطلق على مجموع الآيات الإلهيّة، المحكم منها والمتشابه، فى حين يُطلق الفرقان على الآيات المحكمة خاصةً .

يروى فى تفسير « نور الثقلين » عن « أُصُول الكافى » عن على بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن سنان أو عن غيره، عمّن ذكره قال:

سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَهِ عليهِ السَّلاَمُ عَن الْقُرْآنِ وَالفُرْقَانِ أَهُمَا شَيْئَانِ أَوْ شَيْءٌ وَاحِدٌ ؟ فَقَالَ عليهِ السَّلاَمُ : القُرْآنُ جُمْلَةُ الكِتَابِ وَالفُرْقَانُ المُحْكَمُ

---

١ ـ النصف الاوّل ١٨٥، من السورة ٢: البقرة. يقول ابو ريه فى هامش كتابه « اضواء على السنة المحمدية » ص٢٤٦و ٢٤٧ : كان بين نزول اول القرآن و آخره ٢٠ سنة أو ٢٣ او ٢٥ ، و هو مبنى على الاختلاف فى مدة اقامته (صلى الله عليه و آله) بمكة بعد البعثة ، فقيل عشر و قيل ١٣ و قيل ١٥، و لم يختلف فى مدة اقامته بالمدينة انها عشر سنين ـ و كان القرآن ينزل بحسب الحاجة ، خمس آيات ، و عشر آيات و اكثر و اقل ، و صح نزول غير أولى الضرر وحدها ، و هى بعض آية ـ (كتاب التبيان للجزائرى ، ص ٢٩).

الواَجبُ العَمَلُ بهِ. [1]

وورد كذلك فى « الصحيفة السجّاديّة » فى دعاء ختم القرآن قوله:

اللَـهُمَّ إنَّـكَ أعَنْتَنـى علـى خَتْـم كِتَـابكَ الَّـذِى أنْزَلْتَـهُ نُـوراً؛ وَجَعَلْتَـهُ مُهَيمِناً على كُـلِّ كِتَـابٍ أنْزَلْتَـهُ؛ وَفَضَّلْتَـهُ علـى كُـلِّ حَدِيـثٍ قَصَصْتَـهُ ! وَفُرْقَانـاً فَرَقْتَ بهِ بَيْنَ حَلاَلِكَ وَحَرَامِكَ ! وَقُرْآنـاً أعْرَبْتَ بهِ عَنْ شَرَائِعِ أحْكَامِكَ. [2]

وتصف كثـير مـن الا َيـات القرآنيّـة القـرآن بأنـّه كتـاب مبـين لـه نـور وجلاله ومجد وعظمة وحكمة، كما فى الا َيات التإلية :

ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجَيدِ. [3]

بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ . [4]

يس * وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيم . [5]

إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ . [6]

الر تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِين . [7]

وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ. [8]

وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ. [9]

---

١ ـ «تفسير نور الثقلين» لعبد على بن جمعة العروسىّ الحويزى، ج ١، ص ٢٥٨ فى ذيل الآية الكريمة: و انزل الفرقان ؛ و«أُصول الكافى» ج ٢، ص ٦٣٠ .

٢ ـ «الصحيفة الكاملة السجّاديّة» الدعاء الثانى والاربعون .

[٣ ـ الآية ١، من السورة ٥٠ : ق .

٤ ـ الآيتان ٢١ و ٢٢، من السورة ٨٥ : البروج .

٥ ـ الآيتان ١ و ٢، من السورة ٣٦ : يس .

٦ ـ الآيتان ٧٧ و ٧٨، من السورة ٥٦ : الواقعة .

٧ ـ الآية ١، من السورة ١٥: الحجر.

٨ ـ الآية ٩٢، من السورة ٦: الانعام .

٩ ـ الآية ٥٥ ، من السورة ٦: الانعام .

ومضافاً إلى هذه الآيات ونظائرها الدالّة على أصالة وثبات وحقّانيّة القرآن وامتناع ورود الباطل والتردّد فيه، فهناك آيات أُخرى فى هذا الكتاب العزيز أمّا أن تسند تنزيل القرآن إلى الله مباشرةً، كأية : الرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْءَانَ . [١] وآية : حَم* تَنزِيلُ الْكِتَـٰبِ مِنَ اللَهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم . [٢]

أو بواسطة الوحى منه، كآية: نَحْنُ نَقُصُّ عليكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَا إِلَيكَ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَـٰفِلِينَ . [٣]

أو تعدّه بواسطة وحى الروح، والروج الامين، وروح القدس ، وجبرائيل، كآية: وَكَذَ لِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيكَ رُوحًا [٤] مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَـٰبُ وَلاَ الإِمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم * صِرَاطِ اللَهِ الَّذِى لَهُ و مَا فِى السَّمَـٰوَتِ وَمَا فِى الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَهِ تَصِيرُ الأُمُورُ. [٥]

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * على' قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِّىٍّ مُّبِينٍ . [٦]

١ ـ الآيتان ١ و ٢، من السورة ٥٥ : الرحمن.

٢ ـ الآيتان ١ و ٢، من السورة ٤٥: الجاثية؛ والا´ية ٢، من السورة ٤٦: الاحقاف.

٣ـ الآية ٣، من السورة ١٢: يوسف.

٤ ـ الروح هوأحد الموجودات، وهو أفضل وأشرف من جميع الملائكة وبضمنها جبرائيل ويستفاد من الروايات أنّ نزول جبرائيل وتبليغه الوحى بمساعدة الروح ومعيّته، ويستفاد من آية «تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم» أنّ الملائكة جمع والروح واحد، وهو غير الملائكة، لانّه عُدّ قسيماً لها، ويُقال لنفس الإنسان الناطقة روحاً، لإمكان تكاملها وترقيّها وبلوغها مرتبة الروح، وإلاّ فإنّ النفس بذاتها ليست روحاً.

٥ ـ الآيتان ٥٢ و ٥٣، من السورة ٤٢: الشورى.

٦ ـ الآيات ١٩٣ إلى ١٩٥، من السورة ٢٦: الشعراء.

قُلْ نَزَّلَهُ ورُوحُ الْقُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا. [1]

قل من كان عدواً لجبريل فانه نزّله على قلبى باذن اللـه.[2]

أو أنّه كان يوحى بواسطة أعوان جبرائيل ومساعديه، وكانت آيات القرآن تنزل فى ألواح أو شبه ألواح بأيدى ملائكة الوحى وسفراء الحقّ تعإلى، وهم ملائكة كرام بررة :

كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ. [3]

ويبدو من هذه الآيات أن الآيات القرآنيّة كانت تنزل أحياناً بشكل وحى مباشر من اللـه تعإلى إلى الرسول الاكرم صلّى اللـه عليه وآله وسلّم

١ ـ الآية ١٠٢، من السورة ١٦: النحل.

٢ ـ الآية ٩٧، من السورة ٢: البقره.

٣- الآيات ١١ إلى ١٦، من السورة ٨٠ : عبس. يقول احمد امين المصرى فى كتابه « يوم الاسلام » ص ٤٢و٤٣ (الذى الفه سنة ١٩٥٢ م) : و هذا الوحى انواع ، بعضه لا تختص به الرسل بل و لا الانسان ، بل ان الحيوانات تعمل بغرائز ها بوحى من اللـه ، كما قال تعالى :

و اوحى ربى الى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا و من الشجر و مما يعرشون .

و كل خطرات نفس الانسان و الايعاز اليه بعمل الخير ايحاء من اللـه . اما الرسل فلهم شأن أرقى من هذا، بأن يرسل اللـه ملكا كجبريل يحمل رسالته الى النبى بآية قرآنية أو بحديث قدسى . و قد حدث النبى صلى اللـه عليه و آله و سلم نفسه عن هذا ، فقال انه كان يأتيه احيانا على شكل انسان كدحية الكلبى و احيانا يأتى على شكل صلصلة جرس فيفصم عرقا فى اليوم الشديد البرد ، ثم ينفصل عنه و قد وعى عنه ما يقول .

على كل حال ، ان تعاليم القرآن ليست من عند محمد ، و انما هى من عند اللـه بواسطة ذلك الوحى . و اسلوب القرآن نفسه دال على ذلك ، مثل: قل اعوذ برب الفلق . و قل اعوذ برب الناس . و قل هو اللـه احد . و انا انزلنه قرءآنا عربيا . و قل اوحى الى انه استمع نفر من الجن، و هكذا من الاساليب التى تدل على انه كان النبى صلى اللـه عليه و آله و سلم يتصل بالملأ الأعلى بشكل لانعرفه ، و يتلقى العلم عن اللـه بشكل لا نعرفه ايضا.

وأحياناً بواسطة روح أعظم من الملائكة، وتنزل تارةً بواسطة جبرائيل وهو أعظم ملائكة السماء، وتارةً أُخرى بواسطة ملائكة الوحى الكثيرين العاملين تحت إمرة جبرائيل.

وباعتبار تحديد الآية القرآنيّة المباركة كلام الله سبحانه مع البشر بالوحى ، أو من وراء حجاب، أو بإرسال رسول ، وحصرها ذلك بهذه الاقسام الثلاثة، فيمكن بالتأكيد استنتاج أنّ جميع هذه الاقسام لنزول الآيات من قبل الله، والروح وجبرائيل، ومساعديه من الملائكة، لم تكن كلّها من قبيل الوحى:

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ و على حَكِيمٌ * وَكَذَ لِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا [1] ... الآية.

فهذه الآية تعلن بصراحةٍ تامّة أنّ وحى الله غير نزول جبرائيل وإرسال رسالة ، لانّ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً الشامل لنزول جبرائيل و سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ وسائر مساعديه جُعل قسيماً مع إِلاَّ وَحْيًا.

لذا فإنّ التكلّم مع البشر سوف لن يتعدّى هذه الطرق الثلاثة، ومن المسلّم أنّه بالنسبة إلى رسول الله لم يكن مِن وَرَآءِ حِجَابٍ، فيجب أن يكون إمّا وحياً أو بواسطة جبرائيل وملائكته، وعلى هذا فإنّ من المؤكّد أن يكون كلام الله وحياً غير كلامه بإرسال جبرائيل والملائكة.

أمّا الامر المهمّ الذى يلقى الضوء على المسألة، ويمكن الاستعانة به لحلّ هذه المسألة وكثير غيرها من المسائل، نظير ما ورد من قبض أرواح الناس من قبل الله فى موضع ، ومن قبل ملك الموت فى موضع آخر، ومن

١ ـ الآيتان ٥١ و ٥٢ ، من السورة ٤٢ : الشورى.

قبـل ملائكـة المـوت وقبـض الارواح فى موضـع ثـالث، ومـا ورد مـن إرسـال المطـر مـن السـماء وهبـوب الريـاح مـن قبـل اللـه ، وبواسـطة الملائكـة ، وبالاسباب والعلل الطبيعيّة، ونظير شـفاء الامـراض مـن قبـل اللـه ، وبواسـطة الملائكة، وبالاسـباب والعلـل الطبيعيّـة والعلـوم الطبّيّـة وكثـير غيرهـا [1] هـو أن نقول:

تبعـاً للادلّـة الفلسـفيّة فى الحكمـة المتعإليـة، ووفقـاً للشـواهد الذوقيّـة والعرفانيّـة فى المشـاهدات السّـريّة والملكوتيّـة، وطبقـاً لصراحـة الآيـات القرآنيّـة الكريمـة وتواتـر آثـار المعصومـين وأخبـارهم ، فـإنّ اللـه عزّوجـلّ واحد فى الـذات ، وفى الاسـم والصفـة ، أى لا ذات غـير ذاتـه القدسـيّة فى عـالم الوجود ودائرتـه الواسـعة، ولا اسـم وصفـة غـير أسمائـه وصفاتـه، ولا فعـل إلاّ فعله هو.

وما يبدو بالنظر البدوىّ من اسـتقلالٍ فى الـذوات ، إنّمـا هـو ذاتـه هـو ، وما يُشاهد من الاسمـاء والصفـات ، كالعـالِم والعِلْـم، والقـادر والقـدرة ، والحـىّ والحياة ، إنّما هى أسماؤه وصفاتـه ، ومـا يُشـاهد مـن الأفعـال إنّمـا هـى جميعـاً بلا استثناء فعله هو.

كلّ مـا هنـالك ، أنّ نفـس ذاتـه ، أو اسمـه وصفتـه أو فعلـه ، حـين تريـد الظـهور فى عـالم الكـثرة فـإنّ عليـها العبـور مـن شـبكات ومرايـا نشـأت مـن نفـس تجلّيـه وظهـوره فـاتّخـذت عنـوان المـرآة واكتسـبت صـفة المـرآتيّـة ؛

١ـ يعـزو القـرآن الكـريم سَـوق السـحاب إلى الريـاح مـن جهـة أنّ الريـاح علّـة معـدّة، وحـين يعـزو ذلـك فى الحديـث إلى الملائكـة فباعتبـار الملـك علّـة فاعلـة، فـلا تنـافى فيمـا بينـها، وقـد جـاء عكـس ذلـك فى القـرآن والحديـث بشـأن شـفاء الامـراض، فيقـول فى القـرآن: وَإِذَا مَرِضْـتُ فَـهُوَ يَشْـفِينِ . (الآيـة ٨٠، مـن السـورة ٢٦ : الشـعراء) . و فى الحديـث أنّ اللـه خلـق لكـلّ داءٍ دواءً.

وستكتسب فى كلّ عبور كثرةً من تعيّنها، لتوجد وتكوّن فى عالم الكثرة بكلّ سعته وامتداده هذه الظهورات الجمّة، وهذه الكثرات التى لاتعدّ ولاتُحصى.

تكلّ من الملائكة المقرّبون اسم وصفة من الأسماء والصفات الكلّيّة الإلهيّة له تعيّن اسمى يمتاز به عن غيره ، ويمثّل كلٌّ منها نوعاً لا نظير له ، لكنّ كثرة هذا العالم أفراد متعدّدة لا تندرج تحت تلك الانواع ، و صحيح أنّ لكلّ من النوع والجنس الذى أفراد تندرج تحته ، وتتركّب من جنس وفصل ، لكنّ هذا من خصوصيّات عالم الطبع والمادّة . أمّا الأنواع المجرّدة ، فلا تنطبق عليها هذه المقولة .

فأُولئك الملائكة المقرّبون هم أوّل محلّ ظهوره وتجلّيه، ثمّ الملائكة الذين يلونهم رتبةً، وهكذا انخفاضاً حتّى يصل إلى هذا العالم ، حيث إنّ نور أحديّة الحقّ تعإلى بواسطة التجلّى والظهور، ومن ثمّ العبور من هذه المرايا والشبكات قدرارانا وأشهدنا هذه الكثرات فى عالم الوجود .

إنّ علم الحقّ تعإلى يتجلّى فى جبرائيل المَلَك المقرّب للّه والاعظم من جميع الملائكة، ويتجلّى ويظهر منه عن طريق الوحى إلى الملائكة الاصغر والاوطأ والاكثر عدداً، ثمّ يتجلّى ويظهر منهم إلى النبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . وليس لجبرائيل ولهؤلاء الملائكة وجود بأنفسهم، وليس لهم استقلال وعزّة، فما هو موجود وجود الله واستقلال وعزّ قدسه جلّ وتعإلى .

وكان الله يوحى دوماً وباستمرار إلى الرسول الاكرم بواسطة جبرائيل بواسطة سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ، وكان ذلك كلّه وحياً إلهيّاً، إذ لا شىء فى عالم الوجود إلاّ الله.

و كان يحصل أن يغرق النبى فى أنوار الذات الاحديّة للحدّ الذى

لم يكن جبرائيل لـيراه مـع سـعة وجـوده الملكـوتىّ فضـلاً عـن السـفرة الكـرام البررة، وكان النبىّ الاكرم صلّى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم يدهـش فى هـذه المواقـع ويسقط على الارض مغمىً عليه بلا حـسّ ولا حركـة وكأنـه شـخص متوفّـى ، وكان وجهه يصفّر ويشحب، وبدنه يثقل، فـإن كـان علـى ناقتـه أو بغلتـه ثقلـتْ وكادت تمسّ بجرانها الارض.

وفى سورة المـائدة وهـى آخـر سـورة نزلـت علـى رسـول اللـهفى سـفر حجّة الوداع عند عودته إلى المدينـة ، فحـين نـزول الآيـات كـانت حـال النـبىّ يتغـيّر وينقلـب ، وبدنـه المبـارك يثقـل حتّـى كـادت ناقتـه تـبرك ؛ فى هـذه المـوارد كـان تجلّـى اللـه ووحيـه بـلا واسـطة ، أى بعـدم إدراك ومشـاهدة الواسطة ، وما جـاء فى الاخبـار مـن أنّ حـال النبىّ كـانت تتغـيّر وينقلـب عنـد نزول الوحى كان من هذا القبيل .

وكان رسول اللـه صلّى اللـه عليه وآلـه وسـلّم يشـاهد جـبرائيل أحيانـاً بصورتـه الحقيقيّـة مالئـاً بوجـوده الملكـوتىّ شـرق العـالم وغربـه، لا تخلـو ذرّة فى العالم منه، وكان النبىّ يشـاهده فى هـذه الحـال فـلا يتغـيّر حالـه ولا ينقلـب ، إذ إنّ الوحـى الإلهـىّ المشـهود مـن قبـل الرسـول كـان يحصـل هنـا بواسـطة جبرائيل. ومع أنّ الكـرام الـبررة كـانوا يشـتركون فى ذلـك إلاّ أنـّهم لم يكونـوا مشاهدين مـن قبـل النـبىّ، أمّـا اللـه سـبحانه فكـان مشـاهداً لـه مـن خـلال جبرائيل ومرآة وجوده.

وكان القسم الثالث هـو رؤيـة رسـول اللـه السـفرة الكـرام الـبررة عنـد الوحـى، أى أن يشـاهد سـفراء الوحـى وملائكتـه العديديـن، وفى هـذه الحالـة فقد كان اللـه تعإلى وجبرائيل وهؤلاء أيضـاً، أى أنّ اللـه تعـإلى كـان مشـهوداً لرسول اللـه مـن خـلال جـبرائيل وكذلـك مـن خـلال السَّـفَرة، وكـان الثلاثـة جميعـاً مشـهودين فى هـذا القسـم بشـكل تجـلٍّ وظهـور فى شـىءٍ آخـر، أمّـا فى

القسم الثانى فقد كان اللـه سبحانه وجبرائيل بشـكل تجـلٍّ وظـهور للّـه سـبحانه فى جبرائيل، وأمّـا فى القسـم الاوّل فقـد كـان اللـه مشـهوداً لوحـده ، ولم يكـن جبرائيل والكرام البررة مشهودين مع وجودهم بشكل إلى ومرآتى ّ.

و فى رواية أن الإمام الصـادق عليـه السـلام سـئل : يـابن رسـول اللـه أكانت الغشـية الـتى تـأخذ النـبىّ صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم عنـد هبـوط جبرائيل ؟ فقال: لاَ، إِنّ جَبْرَائيلَ عليـهِ السَّـلاَمُ إِذَا أتَـى النَّبـىَّ صَلَّـى اللَـهُ عليـهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَدْخُلْ عليهِ حَتَّى يستأذنه ، فإذا دخل عليه قعَـد بـين يديـه قعـدة العبد ، و إنّما ذَلِكَ عِنْدَ مُخَاطَبَةِ ا للَهِ عَزَّوَجَلَّ إيَّاهُ بغَيْرِ تُرْجُمَانٍو وَاسِطَةٍ. [1]

هـذه الاقسـام جميعـاً هـى الرؤيـة والمشـاهَدة القلبيّـة للـنىّ، حيـث كـان يتّصـل بسـرّه وبباطن ذاتـه بعـالم الملكـوت، ولم يكـن للحـاضرين عنـده خـبر عمّا يجول فى باطنه ، فليس ثمّة من شىء ظاهر ومشاهد حضوريّاً .

وما ورد فى الروايات مـن أنّ جـبرائيل كـان يسـتأذن رسـول اللـه عنـد نزوله ويسلّم عليه فدالٌّ على جلالة مقام رسـول اللـه وعلـوّ مرتبتـه، وقـد مـرّ فى بعـض أبحـاث « معرفـة المعـاد » أنّ مقـام الإنسـانى أفضـل مـن الملائكـة، [2] ويمكن استنباط أفضليّـة آدم بتعليـم اللـه إيّـاه الاسمـاء كلّـها، ثمّ أمـره سـبحانه لملائكة بالسجود لآدم .

١ـ هـذه الروايـة منقولـة عـن الأُسـتاذ العلاّمـة آيـة اللـه الطباطبـائىّ قـدّس اللـه سـرّه، فى كتاب «مهرتابان» (=الشمس الساطعة) ص ٢٠٧ و ٢٠٨ من الترقيم السفلىّ للصفحات.

يقـول محـى الديـن بـن عـربى فى كتابـه « الـدر المكنـون و الجوهـر المصـون فى علـم الحروف» : القـرآن يـأتى يـوم القيامـة بكـرا لا يعلـم تأويلـه الا اللـه . و هـو كـلام ذو مضمـون عميـق الى حـد كبـير ، أى ان القـرآن سـيكون خـلال رجعتـه و معـاده الى اللـه تعـالى مجـردا و نورانيـا بلاحد ، بحيث لا يعلم تأويله الا الذات القدسية الاحدية.

٢ ـ «معرفة المعاد» ج ١، ص ٨ إلى ١٠، المجلس الاوّل .

أمّا ما كان مشهوداً لرسول الله عند نزول الوحى، فكلّ الاسرار والعلوم الباطنيّة ، والتجلّيات الربّانيّة ، والكشف السبحاتىّ، التى أودعتها يد الفطرة والقدرة للحقّ جلّ وعزّ فى وجوده الشريف. وهذه التجلّيات والمعجزات والكرامات والعلوم الغيبيّة التى لاتعدّ ولا تحصى قد انطوت كلّها فيه بإذن الخالق الودود، وكان الله سبحانه يظهر ويتجلّى له بواسطة الروح أو جبرائيل أو السفرة الكرام البررة.

وكان سير رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فى منازل ومراتب القرب من الحقّ تعإلى، وفى المعراج الربّانىّ، ومشاهدة آثار الجمال والجلال السبحانىّ ، والإحاطة بالأُمور الباطنيّة ، وكشف الاسرار والالغاز والعلوم البكر التى لم تنلها يدُ بشر؛ كلّه سيراً فى منازل النفس ومراحلها ، وعبوراً من الحجب النورانيّة، وخلقةً خلعها ربّ العزّة على رسوله إذ رأى قامته المديدة تناسب التشرّف بهذا اللباس والخلقة وتليق به .

إنّ وصول النبىّ لدرجة الفناء المطلق والعبوديّة المحضة ، التى هى نفسها مقام الولاية الكلّيّة، يستتبع السيطرة والإحاطة على جميع ما سواه ، حتّى الملائكة المقرّبين، وحملة العرش، وجميع روحانيّى عالم الملكوت ، والجنّ والإنس فى عالم المُلك، والهيمنة والتسلّط على جميع أصناف وأنواع الحيوانات والنباتات والجمادات ، فلو قيل ـ والحال هذه ـ إنّ جبرائيل وإسرافيل وعزرائيل كانوا خاضعين للأمر والحكم الإلهىّ والمكلوتىّ للنبى ّ لما دعا ذلك إلى التعجّب والدهشة، إذ إنّ النبىّ لايمتلك هنا الإحاطة العلميّة فقط ، بل الإحاظة الذاتيّة والوجوديّة ، فضلاً عن مقامٍ الأمريّة والمأموريّة، فحقيقة جبرائيل وسائر الملائكة هى فى الحقيقة تجلٍّ وجودىّ له صلّى الله عليه وآله وسلّم، لانتفاء الثنويّة والفاصلة بينه وبين الله سبحانه ؛ ولم يكن فى الامر اتّحاداً وحلولاً بين شيئين ، بل كان هناك

مقام العبوديّة المحضة والفناء.

وفى عالم العبوديّة المطلقة والفناء المطلق، لا وجود لرسول الله آنذاك، لا وجود لمحمّد ، لا اسم له ولا رسم ، ولا يمكن أن يكون له ذلك ، فهناك الله جلّ وعلا، هناك الله لا أحد معه ، ومعلوم أنّ الله حيث وُجد فلا شيء يمكن أن يوجد غير ذاته القدسيّة ، بل إنّ جميع الموجودات كلّها بلا استثناء موجودة بنوره ، وبظهوره وتجلّيه ، كلّ وجد فى عالمه الخاصّ بما يتناسب مع ماهيّته وسعته الوجوديّة .

وكم كان رائعاً وجميلاً وصف العارف الجليل المصرىّ المعروف : ابن الفارض، لهذه المراحل والمنازل :

وَأَطْلُبُهَا مِنِّى ، وَعِنْدِى َ لَمْ تَزَلْ
عَجِبْتُ لَهَا بى كَيْفَ عَنِّى اسْتَجَنَّتِ
وَمَازِلْتُ فِى نَفْسِى بهَا مُتَرَدِّداً
لِنَشْوَةِ حِسِّى ، وَالمَحَاسِنُ خَمْرَتِى
أُسَافِرُ عَنْ عِلْم إليقِين لِعَيْنِهِ
إلَى حَقِّهِ حَيْثُ الحَقِيقَةُ رِحْلَتِى [١]

١ ـ وكنتُ أطلب محبوبى ومعشوقى ـ أى ذاته القدسيّة ـ منّى مع أنّها لم تزل معى، فعجبتُ كيف استترت عنّى بى (لابشيءٍ غيرى منفصل عنّى، بل بمنيّتى وتعيّنى) .

٢ ـ وما زلتُ فى نفسى وباطنى متردّداً فى طلبها، وهذا التردّد كان بسكر حواسّى ، فخمر المحاسن والجمالات أسكرنى ومنعنى من إزاحة

---

١ ـ «ديوان ابن الفارض» ص ٩٤، طبعة بيروت ١٣٨٢ هجرىّ، من التائيّة الكبرى، الابيات ٥١٢ إلى البيت ٥١٤.

ستر الحسّ لاهتدى إلى محبوبى الازلىّ .

٣ ـ وسافرتُ أخيراً من علم إليقين ، أى من علمى العقلىّ والذهنىّ إليقينىّ ، إلى عين إليقين فشاهدته عياناً ، ثمّ سافرت من هناك إلى حقّ إليقين فاهتديت إلى الحقيقة الموجودة .[١]

ثمّ يقول بعد بيانٍ مفصّل لكيفيّة المنازل وآثارها الوجوديّة ولوازمها الضروريّة :

وَمَوْضِعُهَا فِى عَالَمِ المَلَكُوتِ مَا
خُصِصْتُ مِنَ الإسْرَا بِهِ دُونَ أُسْرَتِى(١)

مَدَارِسُ تَنْزِيلٍ ، مَحَارِسُ غِبْطَةٍ
مَغَارِسُ تَأْوِيلٍ ، فَوَارِسُ صِنْعَةِ(٢)

وَمَوْقِعُهَا مِنْ عَالَمِ الجَبَرُوتِ مِن
مَشَارِقِ فَتْحٍ ، لِلْبَصَائِرِ مُبْهِتِ (٣)

أَرَائِكُ تَوْحِيدٍ ، مَدَارِكُ زُلْفَةٍ
مَسَالِكُ تَمْجِيدٍ ، مَلاَئِكُ نُصْرَةِ(٤)

وَمَنْبَعُهَا بِالفَيْضِ، فِى كُلِّ عَالَمٍ
لِفَاقَةِ نَفْسٍ ، بِالإفَاقَةِ أَثْرَتِ (٥)

---

١ ـ يقول المولى عبدالرزّاق الكاشانىّ فى شرحه على التائيّة والمسمّى ب «كشف الوجوه الحرّ لمعانى نظم الدرّ» ص ٣٨٧ : علم اليقين عقدٌ ذهنىّ مطابق بلا اضطراب؛ وعين اليقين مشاهدةٌ بلا حجاب، وحقّ اليقين اتّحادٌ بعد اقتراب. وقال بعض الصوفيّد: علم اليقين حال التفرقة ، وعين اليقين حال الجمع ، وحقّ اليقين حال جمع الجمع بلسان التوحيد . وقيل أيضاً : لليقين اسمٌ ورسم ، وعلمٌ وعينٌ وحقّ ، فالاسم والرسم للعوامّ ، والعلم علم اليقين للاولياء ، وعين اليقين لخواصّ الاولياء ، وحقّ اليقين للانبياء ، وحقيقة حقّ اليقين اختصّ به نبيّنا محمّد صلّى الله عليه (وآله) وسلّم .

فَـوَائِـدُ إلْهَـامٍ ،ر وَائِـدُ نُعْمَـةٍ
عَـوَائِـدُ إنْعَـامٍ ، مَـوَائِـدُ نعْمَـةِ (٦)
وَيَجْـرى بمَـا تُعْطِـى الطَريقَةُ سَائِرى
علـى نَهْـج مَا مِنِّى الحَقِيقَةُ أعْطَتِ (٧)
وَلَمَّـا شَـعَبْتُ الصَّـدْعَ وَالتَـأَمَتْ فُطُو
رُ شَمْل بفَرْقِ الوَصْفِ غَيْر مُشْـتِّتِ (٨)
وَلَـمْ يَبْـقَ مَـا بَيْنـى وَبَيْـنَ تَـوْثِّقِـى
بإيْنَـاسِ وُدِّى ، مَـا يُؤدِّى لِوَحْشَهِ (٩)
تَحَقَّقْـتُ أنَّـا فِـى الحَقِيقَـةِ وَاحِـدٌ
وَأثْبَتَ صَحْـوُ الجَمْع مَحْوَ التَشَتُّتِ(١٠)
وَكُلِّـى لِسَـانٌ ، نَاظِـرٌ، مِسْـمَعٌ ، يَـدٌ
لِنُطْق، وَإدْرَاك، وَسَمْع ، وَبَطْشَـةِ (١١)

١ـ إنّ موضع ومحـلّ ورود الاسمـاء الإلهيّـة فى عـالم الملكـوت؛ أى عـالم الصفـات ؛ هـو المقـام الـذى خصصّـتُ بـه فى سـيرى مـن عـالم الغيـب والشـهادة إلى عـالم الصفـات والملكـوت ، ولم يكـن ذلـك لرفعـتى وقـواى الروحيّة وحواسّى الظاهرة والباطنة .

٢ ـ وقـد سـاقنى سـيرى إلى محـالّ درس القـرآن وتلاوتـه مـن قبـل فَالتَّـالِيـاتِ ذِكْـرًا، [١] والاماكن الـتى يُحـرس فيـها صاحبـها عـن الغبطـة أى الحسد ، فلا يغبط أحداً لعلوّ مكانه ؛ بل يرضـى بمـا أُعطـى مـن مقامـه . وذلـك المكان هو محلّ غـرس المعـانى ـ أى منبتـها ـ الـتى كـان تـأويل القـرآن يسـتمدّ منهـا ، وكان هنـاك أيضـاً مـوانـع وزواجـر تمنـع مـن أراد الوصـول والمسـاس

١ ـ الآية ٣ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

بحريم الذات أن يعبر منها ويجتازها، (إذ قليلٌ هم أُولئك الذين استطاعوا عبور عالم الصفات والوصول إلى عالم الذات) .

٣ ـ ومَن اجتاز عالم الصفات ونال عالم الجبروت الذى هو الذات ، فإنّ محلّ وقوع واستقرار تلك الصفات والاسماء فيه مشارقٌ تطلع فيها الذات القدسيّة، فيصل هناك إلى فتح وصول للذات، وهو حقّاً مكان يحيّر بصائر الارواح ونور القلوب الباطنىّ ويُبهتها ، إذ إنّ طلوع نور الذات وانكشافها لن يُبقى أىّ اسم وصفته، بل سيحرق الجميع ويحيّرهم ويبهتهم .

٤ ـ هناك أرائك التوحيد ومقاماته، ومحلّ إدراك حقيقة القرب إلى الله، ومحلّ سلوك وطىّ الطريق والسلوك المنزّه فى الذات (السير فى الله)، ومبادى التكوين النازلة من سماء الذات إلى أرض الكاينات لنصرة صاحبه رسول الله صلّى الله عل؟ه وآله وسلّم فى معركته مع المشركين .

٥ ـ وإنّ منبع ومحلّ إفاضة ماء رحمة الحقّ فى كلّ عالم، باعتبار احتياج وفاقة ذات الإنسان التى تحسّها بإفاقتها وصحوتها من المحو، بعد السكر من الفناء فى مقام البقاء بالحقّ، بعد الفناء فيه عن غيره ورجوعها إليه ، هو أشياء أربعة :

٦ ـ أ ـ العوائد والفوائد الناشئة بإلهام وإلقاء الحقّ تعإلى ، ليفرّق بها بين الفجور والتقوى، إذ إنّ النفس محتاجة للإذن والإشارة الملكوتيّة للحقّ جلّ وعزّ للتصرّف فى الاشياء.

ب ـ معارف آثار الاسماء اللائحة فى صفات الوجود، التى تقرّ عين العارف ، إذ إنّ من يفيق بعد السكر والإغماء فإنّ ناظريه يقرّ وتسعد بنور مشاهدة الحقّ فى كلّ موجود.

جـ ـ منافع إنعام الحقّ على عبده، من النعم الاُخرويّة فى عالم الغيب التى يدركها العبد.

د ـ الموائد المبسوطة من النعم الدنيويّة فى عالم الشهادة (وهذه الاشياء الاربعة نتيجة فيض اسم المُلْهِم والشَّهِيد والمُنْعِم وغيرها التى تحتاج لها نفس الإنسان لإصلاح دنياه وآخرته).

٧ ـ وتجرى أجزاء وجودى، من نفسٍ وروح وقلب وقالب ، بما تقتضيه أحكام الطريقة [١] من التزكية والتحليةً ، بذلك النهج الذى تعطنيه ذاتى وحقيقتى .

٨ ـ وحين انتقلت من عالم التفرقة والتجزئة إلى عالم الجمع، لم أُفرّق فى هذا الامر بين صفةٍ وصفة ، والتأم صدع التفرقة الناشى من الافتراق فى الوصف لا الذات .

٩ ـ ولم يبق هناك شىء يوحشنى بينى وبين اعتصامى المحكم الثابت برؤية محبّتى ومودّتى والاُنس بها .

١٠ ـ وتيقّنتُ إذ ذاك أنّا فى الحقيقة واحد ، فأثبت صحوى الناشى فى جمعى سكر التفرّق والتشتّت ، وعلمتُ أنّ المحبّ والمحبوب هما ذات واحدة .

١١ ـ فكان وجودى كلّه لساناً، وعيناً وأُذناً، ويداً، يتكلّم بها ويرى ويسمع ويبطش. (ولم تختصّ أفعالى إذ ذاك بموضع خاصّ، فكنت أتكلّم بعينى ، وأرى بلسانى، وأتحدّث بأُذنى، وأسمع بيدى) .

حتّى يصل إلى شمول العلم والقدرة والحياة إلى ما سواه فيقول :

١ـ قال المولى عبد الرزّاق فى شرح هذا البيت : الطريقة عند الصوفيّة هى طريقٌ موصل إلى الله كما أنّ الشريعة طريقٌ موصل إلى الجنّة. وهى أخصّ من الشريعة، لاشتما لها على أحكام الشريعة من الاعمال الصالحة البدنيّة ، والانتهاء عن المحارم والمكارم العامّة ؛ وعلى أحكام خاصّة من الاعمال القلبيّة والانتهاء عمّا سوى الله كلّه . («شرح التائيّة» ص ٤٢٠ ، الطبعة الحجريّة) .

فَـأَتْلُـو عُلُومَ العَـالَمِينَ بِلَفْـظَـةٍ
وَأَجْــلُو علـى العَالَمِـينَ بِلَحْــظَةٍ
وَأَسْـمَعُ أَصْــواتَ الدُّعَــاةِ وَسَا
ئِرَ اللَّغَـاتِ بِوَقْـتٍ دُونَ مِقْدَارِ لَمْحَةِ
وَأُحْضِـرُ مَـا قَـدْ عَزَّ لِلْعَبْدِ حَمْلُهُ
وَلَـمْ يَرْتَـدِدْ طَــرْفِى إِلَى بِغَمْضَـةِ
وَأَنْشَـقُ أَرْواحَ الجِنَانِ وَعَـرْفَ مَا
يُصَــافِحُ أَذْيَـالَ الرِّيَـاحِ بِنَسْــمَةِ
وَأَسْتَعْرِضُ الآفَاقَ نَحْوِى بَخَطْرَةٍ
وَأَخْتَـرِقُ السَّـبْعَ الطِّبَـاقِ بِخُطْـوَةِ
وَأَشْـبَاحُ مَـنْ لَـمْ تَبْـقَ فِيهِمْ بَقِيَّةٌ
لِجَمْـعِى كَـالأَرْوَاحِ حَفَّتْ فَخَفَّـتِ[1]

١ ـ فأنا إذ ذاك أتلو علـوم علمـاء العـالم بلفـظٍ واحـد، واسـتعرض جميـع العوالم بلمحةٍ واحدة.

٢ ـ وأسمع أصوات الداعين وجيمع اللغات فى أدنى من طرفة العين.

٣ ـ وأُخضر ما تعذّر حمله من المسافات البعيدة قبل أن يردتدّ إلى طرفى.

٤ ـ وأشمّ رائحة الجنــان وعبـير الريـاض الـتى تصافحـها أذيـال الريـاح بنسمةٍ واحدة.

٥ ـ واستعرض الآفاق نحــوى بمقـدار مـا يخطـر بـبال، وأخـرق حجـب السماوات السبع الطباق بخطوةٍ واحدة.

---

١ ـ « ديوان ابن الفارض » ص ١٠١ و ١٠٢، الابيات ٥٨٩ إلى ٥٩٤ .

٦ ـ وأشباح وأجسام من لم تبق فيهم من هوى النفس الامّارة بقيّة وأثر، تصير كأرواحهم بعد التزكية خفيفة لكونها محفوفة بمقام الجمع .[١]

ثمّ يذكر لإثبات هذا المطلب معجزاتٍ من أنبياءٍ عظام رشحت من نفوسهم إثر تزكيتها وطهارتها بإذن الله تعالى فيقول:

هِى النَّفْسُ إنْ أَلْقَتْ هَوَاهَا تَضَاعَفَتْ
قُوَاهَا ، وَأَعْطَتْ فِعْلَهَا كُلَّ ذَرَّةِ
وَنَاهَيْكَ جَمْعَاً ، لاَ بفَرْقِ مِسَاحَتَى
مَكَانٍ مَقِيس أَوْ زَمَانٍ مُوَقَّتِ
بِذَاكَ عَلاَ الطَّوفَانَ نُوحٌ وَقَد نَجَا
بِهِ مَنْ نَجَا مِنْ قَوْمِهِ فِى السَّفِينَةِ
وَغَاضَ لَهُ مَا فَاضَ عَنْهُ اسْتِجَادَةً
وَجَدَّ إلَى الجُودِى [٢] بهَا وَاسْتَقَرَّتِ

١ـ يقول المولى عبدالرزّاق فى شرح ذلك : إنّ كلّ من يطوى له المكان والزمان حتّى يحضر حيث يشاء ويأتى بما يشاء فى اقصر زمان ، ويدخل فى أى مكان كان عبداً خفّ جسمه ولطف ، لكونه محفوظاً بالجمع ، كالروح بعد كمال التزكية ، فالذى تزكّت روحه بحيث لم يبق فيها من الهوى بقيّة خفّ شبحه بنور الجمع كالروح فصار خفيفاً واندرجت ظلمته وكثافته فى نور الروح ولطافته اندراج الزجاجة فى لون الخمر كما قيل :

رَقّ الزجاجُ و رقّت الخمرُ و تَشابها فتشاكل الامرُ
فكأنّما خمرٌ ولا قَدَحٌ و كأنّما قَدَحٌ ولا خمرُ

وقيل أيضاً فى هذا الشأن:

ثقلت زُجاجات أتتنا فُرّغاً حتّى إذا مُلئت بصِرف الرَّاحِ
خفّت فكادت تستطير بما حوتْ وكذا الجسوم تخفّ بالارواح

(« شرح التائيه » ص ٤٢٥ و ٤٢٦)

٢- الجودى اسم جبل بالموصل رست عليه سفينه نوح عليه السلام .

وَسَـارَ وَمَتْـنُ الرِّيـح تَحْـتَ بسَـاطِهِ
سُـلَيْمَـانُ بالْجَيْشَـيْن فَـوْقَ البَسِـيطَةِ
وَقَبْـلَ لِرْتِـدَادِ الطَّرْفِ أُحْضِرَ مِن سَبَا
لَـهُ عَـرْشُ بلْقِـيس بغَيْـر مَشَـقَّةِ
وَأَخْـمَـدَ إبْـراهِيـمُ نَـارَ عَـدُوِّهِ
وَعَـنْ نُـورِهِ عَـادَتْ لَهُ رُوضُ جَنَّـةِ[1]
وَلَمَّـا دَعَـا الاَطْيَـارَ مِـنْ كُلِّ شَاهِق
وَقَـدْ ذُبحَـتْ ، جَـاءَتْـهُ غَيْـرُ عَصِـيَّةِ
وَمِـنْ يَـدِهِ مُـوسَى عَصَـاهُ تَـلَقَّفَـتْ
مِنَـالسِّـحْرِ أَهْـوَالاً على النَّفْس شُـقَّتِ
وَمِـنْ حَجَـرِ أَجْـرَى عُيُـونَاً بضَـرْبَةٍ
بهَـا دِيَمَـاً سَـقَّتْ وَلِلْبَـحْرِ شَـقَّتِ
وَيُوسُـفُ إذْ أَلْقَـى البَشِـيرُ قَمِيصَـهُ
علـى وَجْـهِ يَعْقُـوبٍ عليـهِ بَـأَوْبَـةِ
رَأَهُ بعَيْـن ، قَبْـلَ مَقْـدَمِـهِ بَـكَـى
عليـهِ بهَـا شَـوْقَـاً إلَيـهِ ، فَـكُفَّـتِ
وَفِـى آلِ إسْـرَائِيلَ مَـائِـدَةٌ مِنَ ال
سَّـمَاءِ لِعِيسَـى أُنْـزِلَـتْ مُـدَّتِ
وَمِـنْ أَكْمَـهٍ أَبْرَا ، وَمِنْ وَضَح عَدَا
شَـفَى ،وَ أَعَـادَ الطِّـينَ طَيْرَاً بَنَفْخَةِ[2]

١- الآيـة ٢٦٠، مـن السـورة ٢ : بقـره: فخـذ أربعـه مـن الطـير فصرهـن اليـك ثم اجعـل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا و اعلم أن اللـه عزيز حكيم .

٢ ـ «ديوان ابن الفارض» ص ١٠٢ و ١٠٣، الابيات ٦٠٠ إلى ٦١٣ .

١ ـ وخرق العادات هذا كلّه الحاصل بجمع نفس الإنسان يحدث فقط حين تلقى النفس هواها فتتضاعف قواها، فتمنح فعلها لكلّ ذرّة من ذرّاتها.

٢ ـ وحسبك لعظمة وجلالة هذا الجمع الذى لا يفرّق بين مكان معيّن وغيره، ولا بين زمان معيّن ومقدّر وغيره. (بل الامكنة كلّها والازمنة كلّها عنده سواء، لذا فإنّ خرق العادات الناشى من هذا الجمع لا يحصل إلاّ لمن تخلّص من محنة تفرقة الزمان والمكان موصلاً نفسه إلى فضاء الجمع الواسع، ولهذا فإنّ جميع معجزات الانبياء وكرامات الاولياء تستند على هذا الجمع كما سيعدّدها بنفس هذا الأُسلوب واحداً واحداً فى أبياته اللاحقة) .

٣ ـ فبذاك الجمع علا نوح فوق الطوفان وسلّطه على قومه ، وبذاك الجمع نجا الناجون من قومه فى السفنية .

٤ ـ وبذاك الجمع غاض ذلك الماء الكثير الطافح الذى تدفّق بطلبه أمطاراً منهمرةً مستمرّةً ، وأسرع نوح بسفنيته إلى جبل الجودى فرست عنده .

٥ ـ وبالجمع سار سليمان بجيوشه من الجنّ والإنس فوق الارض ، جالساً على بساطه وفراشه على متن الريح .

٦ ـ وبالجمع أُحضر لسليمان عرش بلقيس من مدينة سبأ بلا مشقّة وتعب قبل أن يرتدّ نور عينه إليها . [١]

---

١ ـ كانت عبارة الشعر « وقبل ارتداد الطرف أحضر من سبأ» ، وقد استخدمنا فى شرحها لفظ «قبل ارتداد نور عينه إليها» خلافاً لما يشيع على الالسن خطأً من أنّ ارتداد الطرف غمضها، وذلك لانّ الارتداد بمعنى الرجوع :

ارتدَّ يرتدُّ ارتداداً بمعنى رجع وعاد، وعليه فيكون معنى «قبل ارتداد الطرف» هو قبل عودة نور العين إليها بعد خروجه منها ، وذلك لانّ الإنسان يرى الاشياء بواسطة موج

٧ ـ وبه أخمد أبراهيم النار التى أجّجها عدوّه، وبذلك الجمع أو من نور إبراهى استحالت تلك النار له روضةً من رياض الجنّة .

٨ ـ وبالجمع دعا إبراهيم الاطيار التى ذبّحها وفرّقها على قمم الجبال، فجاءت جميعاً تلبّى دعوته بلا امتناع وإباء.

٩ ـ وبه ألقى موسى عصاه من يده فالتفقت سحر السحرة المدهش الموحش الذى شقّ تحمله على النفس.

١٠ ـ وبذاك الجمع ضرب موسى الحجر فانفجرت منه عيون سقت الماء كغيثٍ منهمرٍ مستمر، وبالجمع شقّ البحر (فعبر وقومه من الاسباط وغرق فرعون وجنده الاقباط جميعاً) .

١١ ـ وبالجمع ذاك جاء البشير إلى يعقوب ببشارة إياب يوسف ، وألقى قميص يوسف على وجه أبيه.

١٢ ـ فارتدّ بصيراً ، ونظرَ يوسفَ بعينٍ بكى عليه بها اشتياقاً قبل

يسقط من العين على ذلك الشيء ، فيعود إلى العين مصوّراً فيها صورة ذلك الشيء وشكله . وزمان عودة النور هذا قيصر لدرجة تفوق التصوّر، لانّ سرعة حركة الامواج الضوئيّة ثلاثمائة ألف كيلومتر فى الثانية ، لذا فإن نظرنا إلى شيء يبعد عنّا مائة وخمسين ألف كيلومتراً فإنّنا سنراه بعد ثانية ، واحدة .

فلاحظوا أنّ الاشياء التى تبعد عنّا كيلومتراً واحداً أو أقلّ سنُرى خ $\frac{١}{١١٥٠٠٠٠}$ ثانية أو أقلّ من ذلك، وفى هذه الحالة فإنّ معنى (قبل ارتداد الطرف»: قبل عودة نور العين إليها) أنّهم أحضروا لسليمان عليه السلام عرش بلقيس من مدينة سبأ فى مدّة قصيرة تقرب من الصفر الحقيقى، وهو زمن أقلّ بآلاف المرّات من فترة غَمض العين التى قد تزيد على ثانية واحدة. وهناك مصطلح آخر لإغماض من العين فى اللغة العربيّة كغمض العين ونحوه. وأمّا طرفةُ العين بدون اضافة الارتداد فهى كلمحة العين بمعنى الرؤية والإبصار بدون لحاظ معنى رجوع نور العين. وعليه فإنّ معنى ارتداد طرف العين يختلف عن معنى طرفة العين أو لمح العين.

مقدم البشير حتّى ابيضّت وعميت.

٣ ـ وبالجمع ذاك نزلت فى بنى إسرائيل (من ولد يعقوب) مائدة من السماء لعيسى ابن مريم ثمّ مدّت وبُسطت .

١٤ ـ وبذاك الجمع أبرأ عيسى ابن مريم الاكمه والابرص، وبنفخة واحدة منه فى الطين صيّره طيراً حيّاً يطير.

وبعد ثلاثة سطور يقول ثلاثة ابن الفارض فى بيان سرّ انفعالات الظواهر فى الباطن ، وبيان علّة نبوّة النبىّ الاكرم وفضيلته وكرامته :

فَعَالِمُنَا مِنْهُمْ نَبىّ ، وَمَنْ دَعَا
إلَى الحَقِّ مِنَّا قَامَ بالرُّسُلِيَّةِ
وَعَارفُنَا فِى وَقْتِنَا، الاْحْمَدِىّ مِنْ
أُولِى العَزْم مِنْهُمْ ، آخِذٌ بالعَزيمَةِ
وَمَا كانَ مِنْهُمْ مُعْجَزاً صَارَ بَعْدَهُ
كَرَامَةَ صِدِّيق لَهُ أَوْ خَلِيفَةِ
بعِتْرَتِهِ اسْتَغْنَتْ عَن الرُّسُل الوَرَى
وَ أَصْحَابَهُ وَالتَّابعِينَ الاْئِمَّةِ
كَرَامَاتُهُمْ مِنْ بَعْض مَا خَصَّهُمْ بهِ
بمَا حَصَّهُمْ مِنْ إرْث كُلِّ فَضِيلَةِ[1]

١ ـ ولهذا فإنّ عالِمنا (أى العالِم باللّه، والعالم بمبدعاته وكائناته وأوامره ونواهيه، والعالم بأحوال يوم القيامة) بمثابة نبىٍّ من السابقين كان ينبى الناس بهذه الاُمور، والداعى منّا إلى الحقّ (الذى يدعو الناس إلى اللّه ويدرجهم فى مدارج التزكية والتصفية والتحلية والتخلية) هو القائم بدور رُسل اللّه، وعلاوةً على الإنباء والإخبار فقد تعهّد بواجب التبليغ وأداء رسالة تربية الناس وتعليمهم.

٢ ـ وعارفنا الاحمدىّ فى وقتنا (أو عارفنا فى زمان أحمدنا) بمنزلة ومثابة الانبياء أولى العزم : أخذٌ بالعزيمة ، لايتبع غير العزائم ولا يبحث عن الرخص ، وهو ذلك العارف باللّه المطّلع على أسرار ملائكته و خزائنه

١ ـ «ديوان ابن الفارض» ص ١٠٤، الابيات ٦١٧ إلى ٦٢١

و دفائنه ، والمأذون بالتصّرف فيها .

٣ ـ فما تحقّق من الخوارق قبل النبيّ الاكرم صلّى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم بعنوان معجزات منأُولئك الانبياء، فقـد صـار بعـد النـبيّ الاكـرم بعنـوان كرامـة تصدر من صدّيقى الاُمّة أوخلفائها الحقيقيتين.

٤ ـ (ولانّ عترة رسول اللـه هـم بمثابـة رُسـل تـابعين لـه)، فـإنّ جميـع الناس قد استغنوا بعترته الائمّة عن مجيء الانبياء بعد رسول اللـه الخـاتم للنبـوّة، وكذلك بأصحابه وأتباعه .[1]

٥ ـ وما يصدر من عترة رسول اللـه من كرامات فإنّ بعضـها ممّـا خصّـهم به رسول اللـه بعنوان حصّتهم وسهمهم من ميراث الفضائل .

ثمّ يذكـر ابـن الفـارض أبياتـاً ثلاثـة تمثّـل فى ظاهرهـا منـاقب للخلفـاء الثلاثة، لكنّها تسـتبطن فى الحقيقـة عـين الـذمّ والانتفـاص، ومـن الواضـح أنـّه أوردها تقيّةً مُجبراً .

ثمّ يقول بشأن أميرالمؤمنين عليه السلام :

وَأَوْضَـحَ بالتَّأوِيـل مَا كَانَ مُشْـكِلاً
على بعِلْـم نَالَـهُ بالـوَصِـيَّةِ[2]

أى أنّ عليـاً عليه السـلام قد أوضـح بالعلـم الذى ناله بوصيّة رسول اللـه

---

١ ـ تبعـاً للحديـث المتواتـر، بـل الفـائق حـدّ التواتـر، الـذى نقلـه الفريقـان مـن الشـيعة والعامّة ، والذى لاشكّ وتردّد عن أحد فى صدوره عن رسول اللـه صلّى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم ، فقـد جعـل رسـول اللـه عترتـه فى حديـث الثقلـين عديـلاً لكتـاب اللـه ولم يقرنهـم بأصحابـه وأتباعـه : إنّـى تـاركٌ فيكـم الثَّقَلَـينِ: كتـاب اللـه وعِـترتى، وإنّـهما لـن يفترقـا حتّـى يَـرِدا علـى الحوض !.

وعلى هذا، فإنّ هـذا البيـت الـذى عطـف فيـه ابـن الفـارض الاصحـاب والتـابعين علـى العـترة بلا دليل يضمّ إشكالاً بيّناً وواضحاً.

٢ ـ «ديوان ابن الفارض» ص ١٠٥، البيت ٦٢٥ .

صلّى اللـه عليه وآلـه وسلّم لـه غوامـض معـانى القـرآن وأعادهـا إلى معانيـها الحقيقيّة، أى أنـّه أوضح تأويلها وبيّنه للأُمّة .

ثمّ يبحـث ابـن الفـارض مـن الا َن فصـاعداً بشـكلٍ مفصّـل فى التوحيـد الحقيقىّ للـذات ، وفى كيفيّـة نـزول التوحيـد مـن قلـب العـارف باللـه فى عـالم الإمكـان ، وفى شـبكات الـتركيب، وبيـان بطـلان التناسـخ والمسـخ والفسـخ والرسـخ ، [1] وذلك لرفـع العـجب فى ظهـور هـذه الغـرائـب والعجـائب من نفس

---

١ ـ يعتقـد جماعـة أنّ روح الإنسـان لايمكـن أن تقـوم بـه لوحـده، بـل يتوجّـب أن يكـون لهـا مظـهر جسـمىّ ، فـإذا تلاشـى ذلـك المظـهر الجسـمىّ فى لَىّ وقـت فلابـدّ مـن إعـداد مظـهر جسـمىّ آخـر لـه ، كالكتابـة الـتى تُستنسـخ مـن صحيفـة أُخـرى . وهـذه الجماعـة لم تنشـقّ مـن ريـاض القـدس وعبـق الـروح المنعـش، لانـّهم ينسـبون إلى روح الإنسـان ونفسـه الناطقـة الاحتيـاج إلى الجسـم والمـادّة وينفـون عنـها الاسـتقلال فى الوجـود . وهـذه الجماعـة تنقسـم إلى أربع مذاهب :

١ ـ مذهـب القـائلين بـأنّ الـروح بعـد مـوت البـدن يمكنـها فقـط أن تـرد فى مظـهر إنسـانىّ، ويسمّونه التناسخ.

٢ ـ مذهـب القـائلين إنّ الـروح يمكنـها بعـد فقـدان البـدن أن تـرد فى مظـهر حيـوانىّ ، ويسمّون هذا التماسخ .

٣ ـ مذهب القائلين إنّها يمكن أن ترد فى مظهر نباتىّ، ويدعون هذا بالتفاسخ .

٤ ـ مذهـب القـائلين بأنـّها يمكـن أن تظـهر فى مظـاهر الجمـادات كالمعدنيّـات، ويدعـون هذا بالتراسخ . وجميع هذه الاقسام باطلة .

قال المرحوم السبزوارىّ أعلى اللـه مقامه فى بيان هذه الاقسام:

نَسْـخٌ وَ مَ َسْخٌ رسخ فسخٌ قَسّما إنسـاً و حـيـوانـاً جمـاداً ونـما

نشر على ترتيب اللّف؛ وفى إبطال التناسخ قال:

لـزوم اجتمـاع نفسـيْنِ عـلى صـيْصـيةٍ تناسـخاً قـد أبْطَـلا

وكـان الدليـل الرئيـس والبرهـان القـاطع علـى إبطـال التناسـخ وإخوتـه هـو برهـان صـدر المتألّـهين ، وهـو : لَىّ النفـس باعتبـار تعلّقـها بـالبدن ، ولانّ الـتركيب بـين هذيـن الاثنـين طبيعـىّ واتّحـادىّ ومـوجـود فى كـلّ حـركة جـوهـريّـة ، فهـى علـى أثـر تعلّقهـا بالبـدن قد طوت

العارف باللـــه، وظـهورها مـن النفـوس الشـريفة للانبيـائ والائمّـة والاوليـاء ، فيبيّن الحقيقة فى إيضاحه للمطلب بهذه الابيات :

فَكُـنْ فَطِنَـاً ، وَانْظُرْ بحِسِّكَ مُنْصِفَاً
لِنَفْسِـكَ فِـى أَفْعَـالِكَ الاَثَـرِيَّـةِ
وَشَاهِدْ إذَا اسْتَجْلَيْتَ نَفْسَكَ مَاتَرَى
بغَيْـر مِـرَاءٍ ، فِـى المَـرَائِـى الصَّـقِيلَةِ
أَغَيْـرُكَ فِيهَـا لاَحَ ؟أَمْ أَنْـتَ نَاظِـرٌ
إلَيـكَ بهَـا ، عِنْـدَ انْعِـكَاسِ الأشِقَّةِ
وَاصْـغ لِرَجْع الصَّوْتِ، عِنْدَ انْقِطَاعِهِ
إلَيـكَ بأكْنَـافـق القُصُـورِ المَشِـيدَةِ
أَهـلَ كَـانَ مَنْ نَاجَاكَ، ثَمَّ سِوَاكَ أَمْ
سَـمِعْتَ خِطَـابَاً عَنْ صَدَاكَ المُصَوِّتِ
وَقُـلْ لِـى : مَـنْ أَلْقَـى إلَيكَ عُلُومَهُ
وَقَـدْ رَكَـدَتْ مِنْـكَ الحَـوَاسُ بغَفْوزةِ
وَمَا كُنْتَ تَدْرِى قَبْلَ نُوْمِكَ مَا جَرَى
بأَمْسِـكَ ، أَوْ مَا سَـوْفَ يَجْرى بغُدْوَةِ
فَأَصْـبَحْتَ ذَا عِلْم بأخْبَارِ مَنْ مَضَى
وَأَسْـرَارِ مَـنْ يَأتِـى ، مُدِلاً بخُبْرَةِ

مراحـل مـن الاسـتعداد ووصلـت إلى الفعليّـة. فـإن أرادت الحلـول فى قـالب جسـميّ آخـر توجّـب عليـها إعـادة طـيّ تلـك المراحـل مـن الاسـتعداد إلى الفعليّـة، وعـودة شـيء مـن الفعليّـة إلى مرحلـة القـوّة والاسـتعداد محـال. («المنظومـة» ص ٣١١ و ٣١٢، غُـرر فى أقسـام التناسـخ، وغُـرر فى إبطال التناسخ).

أَتَحْسَبُ مَنْ جَارَاكَ فِى سِنَةِ الكَرَى
سِــوَاكَ ، بأَنْــوَاعِ العُلُــومِ الجَلِيلَــةِ
وَمَا هِىَ إلاَّ النَّفْسُ ، عِنْدَ اشْـتَغَالِهَا
بعَـالَمِهــا ، عَـنْ مَظْهَـرِ البَشَـرِيَّـةِ[1]

١ ـ فانظر إذن بحواسّك الظاهريّـة ؛ بدرايـة وفطنـة وإنصـاف ؛ فى أفعـالك ذات الاثر الصادرة منك المتحقّقة فى الخارج .

٢ ـ وشاهد أنّك حين تحــاول النظـر إلى نفسـك فى مرائـى صقيلـة، وقـل بلا مراءٍ وجدال :

٣ ـ أشخصٌ غيرك يتجلّى فيــها ! أم أنّـك كنـتَ النـاظر إلى نفسـك عنـد انعكاس الاشقة من العين وإليها ؟

٤ ـ وأصغِ سمعك لرجعل صوتك الخارج منك والعائد إليــك بعـد ارتطامـه بأكناف القصور المَشيدة.

٥ ـ أكـان مَـن ناجـاك غـيرك ؟ أم أنّـك سمعـت صـدى صوتـك راجعـاً يخاطبك ؟

٦ ـ وقل لى إنّك إذا غفــوت فسـكنت حواسّـك، مـن الـذى ألقـى إليـك علومه ؟ (فلم يكن غيرك من أحد !)

٧ ـ وما كنــت تعلـم قبـل إغفـائك مـا كـان فى أمسـك، ومـا سـيصير فى غدك .

٨ ـ (فاطّلعت على هذا كلّه فى إغفائك)، فصــرت عنـد اسـتيقاظك عالمـاً بأخبار الماضين وأسرار الاَتين، مدّلاً مُباهياً بخبرتك التى حصلت عليها .

٩ ـ أفتحسـب أنّ مــن خـاطبك فى إغفـائك وتحـدّث معـك خطـوة بعد

---

١ ـ «ديوان ابن الفارض» ص ١٠٨، الابيات ٦٥٩ إلى ٦٦٨ .

خطوة فى تفضيل أنواع العلوم الجليلة العإلية محاوراً شخصاً غيرك ؟

١٠ ـ نعم، لم يكن غيرك شخص آخر لينسلخ ويتجرّد من مظاهر البشريّة (أى عالم المادّة والبدن) ويشتغل بعالمه (أى عالم الملكوت والتجرّد) فيُعطيك من أخبار الغيب هذه .

ثمّ يأتى ابن الفارض هنا بخمسة أبيات أُخرى لبيان وشرح نفس المطلب ، ثمّ يقول لرفع استبعاد تصديق هذه المطالب العإلية والنفائس العرفانيّة والمشاهدات الملكوتيّة ، ولئلاّ ترهق الإنسان المعقولات الخطابيّة والشعريّة والمنقولات الواهية التى لاتستند إلى القياس والبرهان ، ولئلاّ يظنّ هذه الحقائق عبثاً ومطالب شعريّة ووهميّة ليس إلاّ :

وَلاَ تَكُ مِمَّنْ طَيَّشَتْهُ [١] دُرُوسُهُ
بحَيْثُ استْتَقَلَّتْ عَقْلَهُ وَاسْتَفَرَّتِ
فَثَمَّ وَرَاءَ النَّقْلِ عِلْمٌ يَدِقُّ عَنْ
مَدَارِكِ غَايَاتِ العُقُولِ السَّلِيمَةِ [٢]

---

١ ـ قال فى «أقرب الموارد»: طاشَ الرجلُ يطيشُ طيشاً: نزقَ وخَفَّ، وطاشَ فلانٌ: ذهب عقله.

ولا تكُ من أُولئك الذين اغترّوا بعلومهم ودروسهم خطاشوا وهبطتْ إدراكاتُهم وانحدرتْ قوى تعقّلهم. فهناك فى عالم الغيب، وراء هذه الدروس و المنقولات علم يدّق عن غايه إدراك العقول المنزهه عن الهوى (فضلا عن العقول السقيمة، و الأحلام الشموبه بالآراء الفاسده و الأهواء الكاسده) .

٢ ـ يقول الشارع الفارسىّ :

جهان متّفق بر الهيّتش — فرو مانده در كُنه ماهيّتش
نه إدراك در كنه ذاتش رسد — نه فكرت به غور صفاتش رسد
نه بر أوج ذاتش پَرد مرغ وهم — نه درذيل وصفش رسد دست فهم
كه خاصان دراين‌ره فرس رانده‌اند — بلا أُحصى از تك فرومانده‌اند

يقول :« اجتمع العالم على إلوهيّته ، وغرقوا فى كُنه ماهيّته .

فلا نال الإدراك كنه ذاته ، ولا توصّل فكرك إلى غور صفاته .

ولا حلّق طائر الوهم على أوج ذاته ، ولا أدرك الفهم أذيال وصفه .

لقد جال الخواص من الفرسان فى هذا المضمار، لكنّهم تخلّفوا عاجزين عن العدّ والإحصاء».

* * *

مطلق كه بود زهر صفت باك هرگز نتوان نمود إدراك

زانرو كه به عقل چون در آيد البتّه به صورتى بر آيد

پس هر چه تو ميكنى خيالش باشد زمظاهر جمالش

يقول : « إنّ المطلق المنزّه عن كلّ صفة لايمكن إدراكه أبداً .

لكنه حين يأتى فى العقل والتصوّر فإنّه يأتى فى صورةٍ معيّنة .

فما خطر فى خيالك إذن ليس إلاّ من مظاهر جماله» .

* * *

تجلّى حُسن معشوقٍ لاحبابٍ وعشّاق بتنزيهٍ و تشبيهٍ و تقييدٍ و إطلاق

تبدّى وجهُه حُسناً تجلّى حسنُه وجهاً بأسماءٍ وأوصافٍ وأحكامٍ و أخلاق

فلا تلتفت إلى من يزعم أنّه قد وصل إلى كُنه الحقيقة المقدّسة، بل أحثُ التراب فى فيه ، فقد ضلّ وغوى، وكذب وافترى ؛ فإنّ الامر أرفع وأظهر من أن يتلّوث بخاطر البشر، وكلّما يصوّره العالم الراسخ ، فهو عن حرم الكبرياء بفراسخ ، وأقصى ما وصل إليه الفكر الدقيق ، فهو غاية مبلغه من التدقيق .

آنچه پيش تو غير از آن ره نيست غايت فهم تست الله نيست

الترجمة: «ليس أمامك إلاّ ذلك السبيل، وكلّ ما بلغه قصارى فهمك فهو غير الله».

گفتم همه ملك حسن، سرماية تست خورشيد فَلَك چو ذرّه در سايهٔ تست

گفتا غلطى ، ز ما نشان نتوان يافت از ما تو هر آنچه ديدهاى پايه تست

الترجمة : « قلتُ : ملكتَ جميع ثروة الحسن، وكانت شمس الافلاك كذرّة فى ظلّك .

قال : أخطأتَ ، فلا يمكن اكتشاف دلالتنا، وكلّ ما رأيتَه منا هو منك وفى مقامك .

فسُبحان من حارت لطائف الاوهام فى بيداء كبريائه و عظمته ! و سبحان من

و تَلَقَّيْتُـهُ مِنِّـى ، وَعَنِّـى أَخَـذْتُـهُ
وَنَفْسِى كَانَتْ مِـنْ عَطَـائِى مُمِدَّتِى[1]

كـانت جميـع هـذه المطـالب فى عـالم التوحيـد ومقـام الفنـاء فى اللـه ، نقلناهـا عـن ابـن الفـارض لإلقـاء ضـوء علـى الموضـوع ، كـى لايُنكـر أحـد مراتب معجزات الانبياء وكرامـات الائمّـة وأوليـاء اللـه، ويعلمـوا أنـّها جميعـاً مستمدّة من مقام التوحيد .

وفى الحقيقـة فـإنّ اللـه هـو الفـاعل لمـا يشـاء والحـاكم لمـا يريـد، ولم يكن هنا من بينونة وافـتراق ، فلـم يكـن العـارف باللـه قـد اتّخـذ موضعـاً مقابل اللـه تعإلى ، ولم يدّعِ الربوبيّة والاُلوهيّة ، بل صـار فانيـاً فيـه ، وهـو مقـام العبوديّة، وهذا المقـام يحصـل نتيجـة إطاعـة اللـه تعـإل؟ كمـا ورد فى الحديـث القدسىّ : عَبْـدِى أَطِعْنـى حَتَّـى أَجْعَلَـكَ مِثْلـى (أَوْ مَثَلِـى خ ل) أَقُـولُ لِلشَّـىْءِ: كُنْ ! فَيَكُونُ . تَقُولُ لِلشَّىءِ : كُنْ فَيَكُونُ ![2]

لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلاّ بالعجز عن معرفته».

كسى ندانسته كه منزلگه معشوق كجاست
اينقـدر هسـت كه بانگ جـرسـى مى‌آيد

يقول : «لا أحد يعلم أين منزل الحبيب، كلّ ما هنالك صوت جرسٍ يأتى!»

(«كلمـات مكنونـة» للمـولى محسـن الفيـض الكاشـانىّ أعلـى اللـه درجتـه، ص ٢١ و ٢٢، الطبعة الحجريّة،

١- «ديوان ابن الفارض» ص ١٠٩، الابيات ٦٧٤ إلى ٦٧٦.

تلقيّـتُ ذلـك العلـم مـن نفسـى ، وأخذتُتـه عنـها، ونفسـى كـانت معينـىّ وممّـدى فى هـذا العطاء الذى منحته لها.

٢- جـاء فى كتـاب «كلمـة اللـه» للسـيّد حسـن الشـيرازىّ، ص ١٤٠ برقـم ١٥٤، عـن كتـاب « عدة الداعـى » لاحمـد بـن فـهد الحلـىّ ، عـن كعـب الاخبـار، وعـن كتـاب « مشـارق أنـوار اليقـين » للحـافظ العلـىّ أنـّه يقـول : عبـدى ! أطعـنى أجعـلك مِثْلى ؛ أنـا حَـىٌّ لا أمـوت ، أجعـلك حيّـاً

ولهذا فسيظهر و يبين معنى العُبُودِيَّةُ جَوْهَرَةٌ كُنْهُهَا الرُّبُوبيَّةُ ، لأنّ النفس الإنسانيّة ستُصقل بالعبوديّة فيصبح لها قابليّة عكس الاشقة النوريّة للعام العلوىّ ، وكلّما زاد صفلها وزاد من تمثيلها ومرآتيّتها ، زاد تجلّى الذات الاحديّة فيها ، إلى الحدّ الذى تصل فيها الخلافة بالقوّة والاستعداد إلى مقام الفعلية المطلقة، فتصبح خليفة الله الفعلية فى جميع عالم الوجود وشؤون الحياة ومظاهرها .

ويجب العلم أنّ هذه ليست أُلوهيّة ، بل خلافة وتمثيل تظهر فيها عين آثار الأُلوهيّة، فخليفة الله لا يفعل فعل الله ، بل إنّ الله يُجرى فعله على يده، ويتجلّى من نافذة نفسه، ويُظهر أسماءه وصفاته، فالعارف بالله مرآة تامّة الإظهار لجمال وجلال الله الازلىّ الابدىّ.

لاتموت ؛ أنا غنىٌّ لا أفتقر، أجعلك غنيّاً لا تفتقر. أنا مهما أشاء يكون، أجعلك مهما تشاء يكون . وورود هذا الحديث عن كعب الاحبار أيضاً بهذه العبارة: يابن آدم ! أنا غنىٌّ لا أفتقر؛ أطعنى فيما أمرتك، أجعلك غنيّاً لا تفتقر ! يابن آدم ! أناحىٌّ لا أموت؛ أطعنى فيما أمرتك أجعلك حيّا لا يموت ! أنا أقول للشيء : كُن فيكون ، أطعنى فيما أمرتك، تقول للشيء : كُنْ فيكونُ .

وفى «تاريخ اليعقوبى» ج ٢، ص ٩٥ ضمن بيان مواعظ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، قال : ومن جملة كلامه أنّ الله عزّ وجلّ يقول : ابن آدم ! أنا الحىّ لا أموت ؛ فأطعنى أجعلك حيّاً لا تموت ! وأنا على كلّ شيءٍ قدير.

ابن آدم ! صِلْ رحمك أفْكُ عنك عُسْرَك؛ وأُيَسِّرُك ليُسْرِكَ !

وأورد الشيخ العارف الكبير محيى الدين بن عربى فى الباب ثلاثمائة وواحد وستّين من كتابه «الفتوحات المكّيّة» أنّه ورد فىالخبر فى أهل الجنة أن الملك يأتى إليهم فيقول لهم بعد أن يستأذن عليهم فى الدخول ، فإذا دخل ناولهم كتاباً من عند الله بعد أن يسلّم عليهم من الله ؛ وإذا فى الكتاب لكلّ إنسان يُخاطَب به : من الحىّ القيوم الذى لا يموت ، إلى الحىّ القيّوم الذى لا يموت ؛ أمّا بعد فإنّى أقول للشيء : كن فيكون ؛ وقد جعلتك اليوم تقول للشيء : كُن فيكون .

فيتّضح إذاً قولهم إذا قالوا : فى مقام الوحى الإلهىّ : إنّ الحقّ تعالى قد تجلّى بنفسه لنبيّه محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وإنّ رسول الله يأخذ عن الحضرة الاحديّة أحياناً بلا واسطة ؛ فلا عجب فى ذلك ، ولاجل ذلك كان الصبر على تحمّل هذه الجلوة الذاتيّة الاحديّة على رسول الله بالشكل الذى كان يدهش فيه ويحار .

ولنعلم أنّ جبرائيل الامين كان يظهر أحياناً لرسول الله أيّام بنوّته بصورة دحية الكلبىّ، فكان الناس يظنّونه دحية وقد تشرّف بحضوره عند الرسول ، والحال أنّه لم يكن دحية بل رسول الحقّ تعالى جبرائيل متمثّلاً بصورته وهيئته .

وقد كان دحية الكلبىّ رجلاً مسلماً صادقاً وسيماً حسن الهيئة ، يُحسن الخطّ والكتابة، وكان رسول الله يأمره بكتابه بعض رسائله ، ولم يكن الناس عند تمثّل جبرائيل حال الوحى على صورته ليفهمون أنّه جبرائيل ، بل كانوا يقولون إنّه دحية وقد تشرّف بالحضور عند الرسول الاكرم لتنفيذ ما يؤمر به .

ويجب العلم أنّ ظهوراً بهذه الكيفيّة تمثّل وتشبّه ليس إلاّ، أى أنّ جبرائيل قد ظهر فى هذا العالم على صورد دحية وهيئته ، لا أن يكون قد حلّ فى بدن دحية ، أو اكتسب ماهيّة إنسانيّة كدحية وصار عند نزوله بشراً ، فماهيّة الملائكة العلويّين غير ماهيّة الإنسان، وتغيّر الماهيّات وتبدّلها محال ؛ لا البشر يمكنه أن يصير مَلَكاً ، ولا يمكن للمَلَك أن يستحيل إنساناً ، أو ان يصبح له هيئة الإنسان وصورته .

نعم، هناك إمكان لظهور البشر وتمثّله بشكل الملك ، وكذا ظهور المَلَك بشكل إنسان ، فمعنى التمثّل وحقيقته هو الظهور بصورة وشكل يماثله بدون امتلاك أىٍّ من آثار ذلك فى نفسه .

وقد أشار ابن الفارض فى نَظْم السلوك لهذا الكيفيّة من التمثّل ، فقال: إنّنى لا أدّعى فى التوحيد الذى وصلته، وظهور الحقّ المتعال فىَّ الحلولَ، فالحلولُ كفرٌ وزندقة وإلحاد ، ولستُ كذلك أدّعى الاتّحاد فأقول إنّنى اتّحدت مع الله ، لانّ الاتّحاد يستلزم الثنائيّة والانفصال بين الشيئين المتّحدين ، وهو كفر أيضاً ، بل إنّ دعواى فقط تجلّى وظهور الحضرة الاحديّة ، فليس لى فى مقام الفناء المطلق وجود ليحلّ الله فيه أو يتّحد معه ، بل إنّى فنيتُ فيه فظهر فىَّ ، وطلعت وظهرتْ صفاته وأسماؤه فى وجودى . وظهور وتجلّى الحقّ هذا على صورةٍ إنسانيّة فى تمام الصدق والإمكان والواقعيّة .

ثمّ يُشير ابن الفارض لإثبات مدّعاه لقضيّة دحية الكلبىّ ، ويشبّه تمثّل وتجلّى الحقّ تعالى فى وجوده كتمثّل وظهور جبرائيل بصورة دحية :

وَهَا دِحْيَةُ [١] وَافَى الاَمِينَ نَبيَّنَا

بِصُورَتِهِ ، فِى بَدْءِ وَحْىِ النُّبُوَّةِ !

---

١ ـ أورد ابن حجر العسقلانىّ فى كتاب «الإصابة» أنّ دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرى القيس بن الخزرج صحابىّ مشهور، أوّل مشاهده الخندق، وقيل أُحد ، لم يشهد بدراً ، وكان يُضرب به المثل فى حسن صورته، وفى حديث أُمّ سلمة وعائشة وعبدالله بن عمر وأنس بن مالك أنّ جبرائيل كان ينزل على صورته.

وكان دحية رجلاً وسيماً قال العجلىّ فى تاريخه : كان أحسن الناس صورةً مَن كان جبرائيل ينزل على النبىّ على صورته . ويقول ابن قتيبة :

كان دحية إذا قدم المدينة لم تبق معصراً إلاّ خرجت تنظر إليه. وهو رسول النبىّ إلى قيصر الروم فالتقاه فى أوائل السنة السابعة أو أواخر السنة السادسة فى حِمص. وأرسله رسول الله بسريّة. وحضر غزوة اليرموك مع رسول الله. وكان فى كردوس. وجاء دمشق فسكن فى المزة وبقى حيّاً إلى خلافة معاوية. (ج ١، ص ٤٦٣ و ٤٦٤، رقم ٢٣٩٠) .

وأورد ابن عبدالبرّ فى « الاستيعاب » ج ٢ ، ص ٤٦١ فى الترجمة رقم ٧٠١ ؛ و ابن

أَجِبْرئِيلُ قُلْ لِى: كَانَ دِحْيَةُ إِذْ بَدَا
لِمَهْدِى الهُدَى ، فِى هَيْئَةٍ بَشَرِيَّةِ ؟
وَفِـى عِلْمِـهِ عَـنْ حَـاضِرِيهِ مَزِيَّةٌ
بِمَـاهِيَّـةِ المَـرْئِـىِّ مِـنْ غَيْرِ مِرْيَةِ
يـرَى مَـلَكَاً يُـوحِـى إِلَيهِ وَغَيْرُهُ
يَـرَى رَجُـلاً يُـدْعَى لَدَيْهِ بِصُحْبَةِ
وَلِى مِـنْ أَتَـمِّ الرُّؤيَتَيْـنِ إِشَـارَةٌ
تُنَـزِّهُ عَـنْ رَأْىِ الحُـلُولِ عَقِيدَتِى
وَفِى الذِّكْرِ ذِكْرُ اللَّبْسِ لَيْسَ بِمُنْكَرِ
وَلَمْ أَعْدُعَنْ حُكْمِى كِتَابٍ وَسُـنَّةِ[1]

١ ـ التفتْ : كيف كـان جـبرائيل الامـين فى بـدء أمـر النبـوّة يـوافى النـبىّ على صورة دحية الكلبىّ .

٢ ـ ثمّ قُل لى: أكـان جـبرائيل حينـذاك إذ يظـهر للنـبىّ الهـادى لصـراط الهداية على هيئةٍ بشريّة هو دحية حقّاً ؟ (أو أنّـه لم يكـن دحيـة ، بـل جـبرائيل علـى صـورة دحيـة ، متمثّـلاً بشـكله وشمـائله، ولربّمـا لم يكـن دحيـة آنـذاك

الاثـير الجـزرىّ أيضـاً فى « أسـدالغابة » ج ٢ ، ص ١٣٠ ترجمـة أحـوال دحيـة قريبـاً ممـا ذكـر فى «الإصابة» وأضافا: أنّ قيصر الـروم قـد آمـن برسـول اللـه عنـد لقائـه دحيـة ، لكـنّ بطارقتـه النصـارى امتنعوا عليه ، فأخبر دحية رسول اللـه بذلك فقال : اللـهمّ ثبّت ملكه .

وأورد آيـة اللـه المامقـانىّ فى «تنقيـح المقـال» ج ١، ص ٤١٧ ترجمـة أحوالـه بنحـو مختصر، وقـال : ورد فى أخبـار الفريقـين أن جـبرائيل كـان يـأتى أحيانـاً عنـد رسـول اللـه صلّـى اللـه عليه وآله علـى صـورة دحيـة، وهـذا دليـل علـى وثاقتـه. وقـد أرسـله رسـول اللـه زمـن الهدنـة سـنة ستّ إلى قيصر فآمن قيصر برسول اللـه .

١- ديوان ابن فارض ص ٧٣ ، التائيه الكبرى، الأبيات ٢٨٠ إلى ٢٨٥.

موجوداً فى المدينة) .

٣ ـ وكان لعلم رسول اللـه بحقيقة ذلك المُشـاهد (جـبرائيل علـى صـورة دحية) الفضل والشرف على علم الآخرين الظانّين أنـّه ليس إلاّ دحية .

٤ ـ فقد كان النبىّ يرى مَلَكاً يوحى إليه، وغيره يـرى رجـلاً دعـاه النـبىّ إليه ليُجالسه .

٥ ـ وعندى قـد كـان نمـط الرؤيـة الاتمّ والاكمـل والاقـرب إلى الواقـع ، أى رؤيـة النـبىّ الاكـرم ، إشـارة لى فى بـاب توحيـد الـذات وتجلّـىّ الحضـرة الاحديّة على صورة أحدٍ من أفراد البشر تنزّه عقيدتى عن مذهب الحلول .

٦ ـ ولا إنكـار فى بيـان آيـات القـرآن الكـريم لتجلّـى الحـقّ بصـورةٍ أو تجلّـى مَلَـك بصـورة بشـريّة ، فلـم أتخـطّ فى إراءة هـذا الـرأى حكـم القـرآن والسنّة .

ويدّعى ابن الفارض يدّعى هنا أنّ نظريّة قابليّة تمثّل وتصـور الحـقّ تعـإلى بصورةٍ بشريّة قد وردت فى كتاب اللـه وسنّة رسول اللـه صلّى اللـه عليـه وآلـه وسلّم.

أمّا فى كتاب اللـه مثل آية: وَلَـو جَعَلْنَـاهُ مَلَكًـا لَجَعَلْنَـاهُ رَجُـلاً وَلَلَبَسْـنَا عليهِمْ مَّا يَلْبسُونَ . [١]

وجاءَت هـذه الآيـة بعـد آيـة قـد نقلـت تسـاؤل المشـركين ، أن : لمـاذا لا ينزل بالوحى مَلَكٌ على محمّد ؟ :

وَقَـالُوا لَـوْ لآ أُنـزِلَ عليـهِ مَلَـكٌ وَلَـوْ أَنزَلْنَـا مَلَكًـا لَّقُضِيَـى الاْمْـرُ ثُـمَّ لاَ يُنظَرُونَ . [٢]

---

١ ـ الآية ٩ ، من السورة ٦ : الانعام.

٢ ـ الآية ٨ ، من السورة ٦ : الانعام.

وأمّا فى السنّة فقد ورد عـن طريـق العامّـة أنّ رسـول اللـه صلّـى اللـه عليه وآله قال : رأيتُ ربّى فى صورةِ كذا .[1]

وأمّـا عـن طريـق الخاصّـة فقـد ذكـر شـيخ الفقـهاء الاقدمـين وأُسـوة المحدّثـين الموثقـين الشـيخ الاكـبر الاعظـم أبوالقاسـم جعفـر بـن محمّـد بـن قولويه المتوفّى سـنة ٣٦٧ هجريّـة ، فى كتابـه « كـامل الزيـارات » المـعدود مـن أجلّ كتب الشـيعة وأوثقـها ، روايـةً جليلـة معتـبرة ، ولأهمّيّتـها فقـد ذكرهـا فى موضعين من الكتاب ،[2] نذكرهـا مـع مـتن سـندها وعـين عبارتهـا، ثمّ نشـرع فى بيانها وشرحها :

يروى ابن قولويه : جعفر بـن محمّـد ، عـن أبيـه رحمـه اللـه : محمّـد بـن جعفر بن موسى بن مسرور، عن سـعد بـن عبداللـه ، عـن محمّـد بـن عيسـى ، عن محمّد بن سنان ، عن أبى سعيد القَمَّاط ، عن ابن أبى يَعْفُور، عـن أبى عبداللـه صادق آل محمّد عليه السلام، أنـّه قال :

بَيْنَمَا رَسُولُ اللـه صَلَّى اللَهُ عليهِ وآلِهِ فِـى مَـنْزِلِ فَاطِمَـةَ، وَالْحُسَـيْنُ فِـى حِجْرِهِ، إذْ بَكَى وَخَرَّ سَاجِداً، ثُمَّ قَالَ : يَـا فَاطِمَـةُ ! يَـا بِنْـتَ مُحَمَّـدٍ ! إنَّ العلـى الأعْلَى تَرَائَى لِى فِى بَيْتِكَ هَـذَا فِـى سَـاعَتِى هَـذِهِ، فِـى أَحْسَـنِ صُـورَةٍ،و أَهْيَـأَ هَيْئَةٍ ، فَقَالَ لِى : يَا مُحَمَّدُ ! أتُحِبُّ الحُسَيْنَ ؟!

قُلْـتُ : يَا رَبِّ ! قُـرَّةُ عَيْنِـى ، وَرَيْحَـانَتِى ، وَثَمَـرَةُ فُؤَادِى ، وَجِلْدَةُ مَا بَيْنَ

١ ـ « شرح تائيّة المولى عبدالرزّاق » ص ٢٩٨ ، الطبعة الحجريّة .

٢ ـ الاوّل فى! ص ٦٦ و ٦٧ ، البـاب الحـادى عشـر: لعنـة اللـه تبـارك وتعـالى ولعنـة الانبيـاء علـى قـاتل الحسـين بـن علـىّ عليـهما السـلام ؛ والثـانى فى ص ٧٠ و ٧١ ، البـاب الثـانى عشـر: قـول رسول اللـه صلّى اللـه عليه وآلـه إنّ أُمّتـه تقتـل الحسـين عليـه السـلام بعـده . وسـبب تعـدّد ذكـر هـذه الروايـة تعـدّد الابـواب ، لا تعـدّد نفـس الروايـة ، لانـّها جـاءت متماثلـةً متنـاً وسـنداً فى الموضعين .

عَيْنى !

فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ! وَوَضَعَ يَدَهَ على رَأسِ الحُسَيْنِ عليهِ السَّلاَمُ: بُورِكَ مِنْ مولُودٍ ! عليهِ بَرَكَاتِى ، وَصَلَوَاتِى ، وَرَحْمَتِى ، وَرِضْوَانِى ! وَنقْمَتِى ، وَلَعْنَتِى، وَسَخَطِى، وَعَذَابِى، وَخِزْيِى، وَنَكَإلى على مَنْ قَتَلَهُ وَنَاصَبَهُ وَنَاوَاهُ وَنَازَعَهُ !

أَمَا إنَّهُ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ مِنْ الاْوَّلِينَ وَالا َخِرينَ فِى الدُّنْيَا وَالا َخِرَةِ، وَسَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنْ الخَلْقِ أَجْمَعِينَ . وَأَبُوهُ أَفْضَلُ مِنْهُ وَخَيْرٌ. فَاقْرَأَهُ السَّلاَمَ وَبَشِّرْهُ بأَنَّهُ رَايَةُ الهُدَى ، وَمَنَارُ أَوْلِيائِى ، وَحَفِيظِى، وَشَهيدِى على خَلْقِى، وَخَازِنُ عِلْمِى، وَحُجَّتِى على أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلِ الاْرْضِينَ وَالثَّقَلَيْنِ : الجِنَّ وَالإنْس ! [1]

ونلحظ فى هذه الرواية أنّ كلمة ترائى لى قد استعملت فيها، والترائى بمعنى الإراءة ووضع النفس فى معرض الرؤية والمشاهدة ، بالنحو الذى يترقّب المترائى ويترصّد أن يراه أحد؛ أى أنّ العلى الاعلى ، الخالق العظيم الاعظم، قد أرانى نفسه حتّى رأيته ؛ أو قال لى كذا وكذا .

ونلحظ ثانياً فى هذه الرواية عبارة يا ربّ التى قالها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعد رؤيته ربّه وسؤال الخالق إيّاه عن حبّه للحسين .

ونلحظ ثالثاً أنّ الله قد وضع يده على رأس الحسين ودعا له ؛ وكلّ هذه دلائل وشواهد بيّنة لاحتمال تجلّى الله تعالى بأحسن صورة وأهيأ هيئة ،

---

١ ـ «كامل الزيارة» الطبعة الحجريّة سنة ١٣٥٦ هجرية قمرية فى النجف الاشرف مع تصحيح وتعليق العلاّمة الشيخ عبدالحسين الاميني صاحب كتاب «الغدير»، وتعليق آية الله المحقّق الشيخ محمّد على الاردوبادىّ .

لكى يراه رسوله فى هذا الظهور والتجلّى . ولا إشكال فى هذا أيضاً .

وقد نقل المجلسىّ رضوان اللـه عليه فى « بحار الانوار » هذه الرواية بنفس هذا السند وعين عبارة المتن نقلاً عن «كامل الزيارات» باختلاف أنّ كلمة يا ربّ قد سقطت من نسخته، ثمّ يقول فى ذيل الرواية فى بيان الحديث : أمّا أن يكون المراد من العلى الاعلى هو رسول اللـه جبرائيل، أو أن يكون لفظ ترائى كناية عن الظهور العلمىّ، و حسن الصورة كناية عن ظهور صفاته الكمإلية، و وضع إليد كناية عن إفاضة الرحمة . [1]

ويفتقد تأويل المجلسىّ فى بيان معنى هذه الرواية ومفهومها الوجاهة :

فأوّلاً: إنّ لفظ العلى الاعلى له ظهورٌ، بل نصٌّ فى البارى تعإلى لا سواه، واستعماله فى جبرائيل غير معهود فى الاخبار والروايات .

وثانياً: جاءت فى الرواية عبارة يا ربّ، ومع وجودها يصبح من غير المعقول حمل لفظ العلى الاعلى على غير اللـه عزّ وجلّ ، إلاّ أن نقول إنّ هذا اللفظ لم يكن موجوداً أصلاً فى النسخ التى وصلت بيَدِ المجلسىّ .

وثالثاً : فإنّ حمل كلمة ترائى على الظهور العلمىّ لا العينىّ ؛ وحسن الصورة على ظهور الصفات الكمإلية ؛ ووضع إليد على إفاضة الرحمة هو خلاف الظاهر، إذ لا يمكن صرف لفظ عن معناه الحقيقىّ بدون نصب قرينة قطعيّة أو مقإليّة أو مقاميّة .

وأمثال هذه التأويلات والحمل على المعانى غير الظاهريّة كثير فى

---

١ ـ « بحار الانوار» ج ١٠ ، ص ١٥٤ و ١٥٥ طبعة الكمبانىّ ، وفى الطبعة الحديثة ج ٤٤ ، ص ٢٣٨ ، الرواية ٢٩، باب إخبار اللـه تعالى انبياء و نبيّنا صلى اللـه عليه و آله بشهادته .

بيانات « بحار الانوار » كما فى آيات لقاء الله، والنظر للّه، ورؤيته ومشاهدته سبحانه وتعإلى، وكذا فى تعبيرات الانبياء والائمّة عليهم السلام التى يدلّ ظاهرها على اللقاء الحقيقىّ والنظر والرؤية الحقيقيّة ، التى كانت تُحمل على لقاء آيات الجمال والجلال، ولقاء الموت ، وملاقاة الثواب والاجر الإلهىّ فى يوم الجزاء .

وعموماً فما كان يرد من كلام أينما اتّفق ، وفى أى رواية أو آية حول لقاء الله ومشاهدته ، فإنّها كانت تحمل بلا تردّد على خلاف الظاهر، وتُعزى إلى لقاء بعض مظاهر الله ، كلقاء الحور العين ، ورؤية القصور، وسماع النغمات ، وتناول الاغذية والاطعمة اللذيذة ، وجنّاتٍ تجرى من تحتها الانهار.

ونحن مجبرون ـ لإثبات بطلان مثل هذه التأويلات ـ على ذكر مقدّمة مختصرة، وهى أنّنا نمتلك نوعين من الاخبار والروايات فى هذا المقام :

المجموعة الأُولى: الروايات التى لها دلالة التنزيه المطلق الخالص للبارى تعإلى عن جميع مراتب الإدراك والمعرفة، وأنّ أعلى مراتب المعرفة ودرجاتها هو العجز عن الإدراك، والاعتراف والإقرار بالعجز عن نيل ذلك المقام الرفيع .

والمجموعة الثانية : هى الروايات التى لها دلالة على إمكان لقاءالله و معرفته ، والنظر إلى صفاته وأسمائه سبحانه وتعإلى ، ورؤية نور الاحديّة القاهر وأمثال ذلك .

وهذه المجموعة مكوّنة من رواياتٍ جمّة لاتعدّ ولاتُحصى ، خاصّة فى باب الادعية والزيارات والروايات الواردة فى باب التوحيد والعرفان .

ولعلماء الشيعة رضوان الله عليهم فى هذا الباب أذواق ومشارب

مختلفة، فبعضهم يقول بالتنزيه الصرف المحض واستحالة معرفة الحقّ تعإلى بأىّ وجه متصوّر، حتّى أنّهم صرّحوا بأنّ غاية معرفة الإنسان أن يعرف ـ أى الإنسان ـ بوجوب تنزيه الخالق تنزيهاً خالصاً، وأن لا سبيل هناك، ذهناً، وعقلاً، وفكراً، ورؤيةً، وشهوداً، وقلباً ووجداناً لمعرفة اللـه تعإلى، فمنتهى وغاية مقام العبد الإقرار بالعجز.

والبعض الآخر يفضّل الجمع بين أخبار التنزيه وأخبار التشبيه والاخبار التى لها ظهور فى إمكان الوصول والمعرفة بهذا النهج : حمل روايات التنزيه على تنزيهه سبحانه عن الرؤية بالعين الظاهرة، وعن المعرفة والإحاطة بذاته المقدّسة الإلهيّة ، وحمل أخبار إمكان المعرفة والوصول واللقاء على الرؤية بعين الباطن ، والمشاهدة القلبيّة والوجدانيّة ، والمعرفة الإجمإلية ، ومعرفة الاسماء والصفات وتجلّى مراتب ذات الحقّ تعإلى (لا كنه ذاته) بالمقدار الميسور لممكن الوجود، وهو أمر صحيح وممكن تماماً ، ولا يخلو فقط من الإشكالات العقليّة والشرعيّة، بل إنّ العقل والشرع يتّفقان بشأنه، لانّه هو المقصود من خلق العالم وإرسال الرسل وإنزال الكتب: أى أن يعرف البشر ربّه ويصل إليه ويشاهده ويراه .

وقد عبّروا عن هذا المقام بكشف الحُجب الظلمانيّة والنورانيّة، أى أنّ نور جمال وجلال الحقّ حين يتجلّى لعقل وسرّ ووجدان أولياء اللـه فإنّه يفنيهم عن أنفسهم ويبقيهم فى اللـه بالدرجة التى صاروا محواً فى جماله ، فيدبّر اللـه أُموره عبده بدل عبده، ويتصرّف فى أُموره، ويوصله فى النهاية إلى مقام الفناء المطلق، ثمّ إلى البقاء المطلق .

مقام الفناء هو العجز التامّ الكامل، والحدّ الاكمل من إدراك الذات والوصول إلى تلك الذورة ، بحيث يفنى فى العجز . وليس فقط عدم إمكانيّه

ورود أفكار العبد وآراؤه، بل وجوده أيضاً، فيحترق كالفراشة فى لهب الشخصة ، ويفنى ويمحّى، فلا يبقى له أثر وباقية .

هذه هى غاية معرفة أنّ العُبُودِيَّةُ جَوْهَرَةٌ كُنْهُهَا الرُّبُوبِيَّةُ ، [١] لا أن يحل ذلك بمجرّد القول والتلفظّ أن: يا إلهى نحن عاجزون عن معرفتك ! ثمّ ينتهى الامر إلى هذا الحدّ، فشتّان بين هذا وذاك ! كان ذاك مقام فناء العجز؛ والعجز الذى يجريه الناس على ألسنتهم عجزٌ أيضاً، وعجز الجدار هو الآخر عجز، وعجز رسول الله الذى قال : ما عرفناك حقّ معرفتك عجزٌ، وعجز الجالس فى مكتبته يُطالع ويخطّ عجزه على ورق أو فى كتاب هو عجزٌ أيضاً .

إنّ التنزيه الصرف للّه عن عالم الوجود هو فصله وعزله، وهو عين التقييد الذى يستلزم التعطيل؛ والتشبيه هو الاَخر مرجعه إلى تحديده وتقييده فى تلك الموارد التى شُبّه بها؛ والله سبحانه أعلى من كلّ هذا وأجلّ، مع أنّه مع كلّ موجود، وله معيّة ذاتيّة، لا ترقى الافكار التسامية والافهام المتعالية بقدر ذرّةٍ إلى ذروة ذاته الاحديّة، لكنّ مقام أحديّته ظاهر فى نفس الوقت فى أسمائه وصفاته ، مع كلّ بعوضة ، ومع كلّ نملة ، ومع كلّ ذرّة ، فهذه هى حقيقة التوحيد .

وكم كان رائعاً وبليغاً تعبير الحكيم المتألّه الحاجّ المولى هادى السبزوارىّ تغمّده الله برضوانه حين قال :

---

١ ـ فى «مصباح الشريعة» باب ١٠٠، فى حقيقة العبودية، قال: قال الصادق عليه السلام : العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة ، فما فقد من العبوديّة وجد فى الربوبيّة ، وما خفى عن الربوبيّة أُصيب فى العبوديّة.

قال الله تعالى: سُنُريهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى الاْفَاقِ وَفِى ٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ و عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ . أى موجود فى غيبتك وفى حضرتك .

موسى‌نيست كه دعوى أنا الحق شنود

ورنه‌اين‌زمزمه‌أندرشجرى‌نيست كه‌نيست[1]

ولانّ التنزيه الصرف شركٌ وتعطيل، والتشبيه شرك وتحديد، فكفى بالتوحيد حقّاً: اللـه لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الاْسْمَآءُ الْحُسْنَى.[2]

فإذا ما قلنا إنّ اللـه تعإلى ليس جسماً، وليس بمرئىّ، لا محلّ معيّن له ولا تركيب، ولا احتياج له ولا فقر ولا إمكان ؛ فما المانع أنّ إلهاً كهذا يتجلّى فى مظاهر وجود تعيّن أسمائه وصفاته ؟

فرسول اللـه نفسه هو تجلٍّ له، بل هو تجلّيه الاعظم، كما ورد فى الدعاء : اللَهُمَّ إنِّى أَسْأَلُكَ بالتَّجَلِّى الاَعْظَمِ .[3]

ظهور الخالق العلى الاعلى بأحسن صورة وأهيأ هيأة هو تجلٍّ تمثّلىّ ، ولم يكن تجلّياً فى صورة واحدة فقط ، بل إنّ جميع الموجودات العينيّة لعالم الإكان هى ظهوراته وتجلّياته فى صور عديدة ، لا تعدّ ولا تحصى .

ز هر رنگى كه خواهى جامه مى‌پوش

كه من آن قَدِّ رعنا مى‌شناسم[4]

---

١ ـ من بين خمسة أبيات غزل ذكرها العلاّمة دهخدا فى معجمه اللغوىّ «لغت نامه» (=معجم دهخدا) ص ٢٣٧ ، مجلّد حرف السين ، ضمن ترجمة أحوال الحكيم السبزوارىّ نقلاً عنه .

يقول : « لم يكن هناك موسى ليسمع نداء: أنا الحقّ، وإلاّ فلا توجد شجرة إلاّ وهى مترنّمة بهذه النغمة» .

٢ ـ الآية ٢ ، من السورة ٢٠ : طه

٣ ـ من دعاء رواه الكفعمىّ فى مصباحه، فى أعمال ليلة مبعث رسول اللـه صلّى اللـه عليه وآله وسلّم .

٤ ـ يقول: « مهما كان لون الرداء الذى ترتدى، فأنا أعرف تلك القامة الرشيدة » .

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلاَ تَخْفَى على أَحَدٍ إلاّ على أَكْمَهٍ لاَ يَعْرِفُ القَمَرَا [١]
فَإِنْ قُلْتَ بالتَّنْزِيهِ كُنْتَ مُقَيِّداً وَإِنْ قُلْتَ بالتَّشْبِيهِ كُنْ مُحَدِّدَا
وَإِنْ قُلْتَ بالاَمْرِين كُنْتَ مُسَدِّدَا وَكُنْتَ إِمَامَاً فِى المَعَارِفِ سَيِّدَا
فَمَنْ قَالَ بالإِشْفَاعِ كَانَ مُشرِكَاً وَمَنْ قَالَ بالإِفْرَادِ كَانَ مُوَحِّدَا
فَإِيَّاكَ وَالتَّشْبِيهِ إِنْ كُنْتَ ثَانِياً وَإِيَّاكَ وَالتَّنْزِيهِ إِنْ كُنْتَ مُفْرِدَا
فَمَا أَنْتَ هُوَ ! بَلْ أَنْتَ هُو وَتَرَاهُ فِى عَيْنِ الأُمُورِ مُسَرِّحَاً وَ مُقَيِّدَا [٢]

١- أورد هذا البيت وبيتاً آخر السيّد حيد الا َملىّ فى موضعين من «جامع الاسرار»، الاوّل فى ص ١٦٥ يقول فيه : وقولهم :

ظهرتَ فلا تخفى على أحدٍ إلاّ على أكمهٍ لا يعرف القمرا
لكنْ بَطَنْتَ بما أظهرتَ مُحتجباً فكيف يُعرف مَنْ بالعُرف مستترا

أورد بعده هذه الابيات؛ وقولهم:

والخلق كلّهم أستار طلعتها والامر أجمعهم كانوا لها نقبا
ما فى الستّر فى الاكوان من عجبٍ بل كونها عينها فيما ترى عجبا

وكقولهم:

سُبحان من أظهر ناسوته سرَّ سنا لاهوته الثَّاقب
ثمّ بدا فى خَلقه ظاهراً فى صورة الا كل والشاربِ

وكقولهم:

توهمّتُ قِدْماً أنّ ليلى بترقعتْ وإنّ لثاماً دونها يمنعُ اللّثما
فلاحتْ فلا والله ! ما كان حَجْبُها سِوىأنّ طرفىكانعن حُسْنهاأعمى

والثانى فى ص ٦٦٦ ، يقول بعد أن جاء بالبيت الا َخر : وكذلك فى قولهم :

مظاهر الحقّ لا تُعدُّ والحقّ فينا لا تحدّوا
إن أبطنَ العبدَ كان ربٌّ أو أظهر الربّ كان عبدُ

٢ – هذه الأبيات لشيخ العرفاء محيى الدين بن عربى فى «فصوص الحكم» الفصّ الثالث ، و هو الفصّ النوحىّ ؛ و لانّنا أوردناها من « شرح الفصوص القيصريّة» الطبعة الحجريّة الخالية من ترقيم الصفحات فنكتفى فى الإشارة إليها بهذا القدر. و أورد هذه الاشعار السيّد حيد الاملىّ أيضاً كشاهد فى «جامع الاسرار» ص ٦٦٢ إلى ٦٦٤.

و نقل البيتين الاوّلين الحكيم السبزوارىّ فى التعليقة على شرح منظومته ص ٢٢٩، طبعة ناصرى، عن عارف.

و شرح الابيات باختصار هو:

١ ـ فإن كنتَ قائلاً بالتنزيه ، أى أنّك تعتبر اللـه بمعزل عن عالم الوجود ، فإنّك تكون قد قيّدته بموجود خارج الموجودات ، و هو خطأ؛ و إن قلتَ بالتشبيه ، أى اعتبرتَ اللـه محدوداً بعالم الموجودات ، فقد حدّدت ذاته بحدود هذا الوجود ، و هو خطأ أيضاً .

٢ ـ أمّا إذا قلتَ بالامرين معاً: التنزيه و التشبيه، أى أن اعتبرت اللـه بلحاظ الذات بسيطاً و منزّهاً عن جميع الاسماء و الصفات و الموجودات و التعيّنات، و بلحاظ الظهور و الواحديّة فهو فى جميع الموجودات ، فقد رأيتَ صواباً و صرت فى المعارف الإلهيّة إماماً و سيّداً .

٣ ـ و لهذا فإن قال قائل إنّ اللـه له قابليّة الافتراق عن الموجودات، و نزع إلى التنزيه الخالص ؛ أو إذا نظر إليه فى الموجودات فقط و صرف نظره عن مقام أحديّة الذات و التزم بالتشبيه المحض، فقد أشرك باللـه و جعل غيره (أى الموجودات) شريكاً له.

٤ ـ فاحذر إذَن من تشبيه اللـه بشىء إن كنتَ قائلاً بالاثنينيّة لئلاّ تشبّه به غيره من الاشياء الحادثة و الفائضة من ناحيته، و تجعلها شبيهةً له فى الصفات التى تلزم الوجود، و تعتبر الظلال المستعارة كالسراب وجوداً حقيقيّاً. واحذر إن كنتَ قائلاً بوحدانيّته من التنزيه الخالص و التفريق بينه و بين عالم الاَثار و التعيّنات ، لانّ توحيده يغاير افتراق حقيقته و ذاته عن عالم الاَثار و التعيّنات الخارجيّة و من عالم أسمائه و صفاته .

٥ ـ و لهذا فإنّك لستَ تلك الذات المتعالية ، لانّك محتاج و ممكن الوجود ، و ذو تقيّد و تعيّن ، و من جهة أُخرى فأنت هو تلك الذات ، لانّك فى الحقيقة عينها و هويّتها الظاهرة فى صفاتها ، و فى مرتبةٍ من مراتب وجودها، و ذاتك و صفاتك تعود إليها .

و فى هذه الحالة فإنّك تجد الحقّ فى عين الاشياء حين تضع وجوده فى عين التعيّنات المطلقة و لا تقيّده فى مراتب الظهورات . انتهى إيضاح أشعار الشيخ محيى الدين بن عربى .

و قد أورد المرحوم المحقّق الفيض القاسانى فى شأن البيت الاخير (فما أنت هو، بل أنت هو) فى كلماته المكنونة الطبعة الحجريّة ص ١٠١، ضمن الكلمة ٥١ أنّه: روى عن الصادق عليه السلام أنّه قال: لنا حالاتٌ مع اللـه، هو فيها نحن، و نحن فيها هو؛ و مع ذلك هو هو، و نحن نحن.

جاء فی رسالة آية اللـه بحر العلوم أنـّه : [١]

إن لم نستطع بسبب قصورنا، « الوصول ومشـاهدة اللـه سـبحانه تعـإلى» إذاً علـى أسـاس الحديـث رأيـت ربّـى نورانيّـاً... بصفـة النـور اللامتنـاهى المساوى للبصيرة « الرؤية بعين الباطن والمشاهدة القلبيّة لتجلّياته » .

وروى فی رسالة « جامع الاسرار » عن رسول اللـه قولـه :رَأَيْتُ رَبِّى بِعَيْنِ رَبِّى .[٢]

وروى فی هذه الرسـالة أيضـاً، عـن عبدالرحمـن بـن عـوف، عـن عائشـة أنـّها قالت: قال رسول اللـه صلّى اللـه عليـه وآلـه وسـلّم:رَأَيْتُ رَبِّـى تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى لَيْلَـةَ المِعْـرَاجِ فِـى أَحْسَـنِ صُـورَةٍ ، فَقَـالَ : بِـمَ يَخْتَصِـمُ المَـلاَ الأعلـى يَا مُحَمَّدُ ؟!

قُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ، أَى رَبِّ ! مَرَّتَيْن.

قَالَ: فَوَضَعَ اللَهُ تَعَـالَى كَفَّـهُ بَيْـنَ كَتِفِـى ؛ فَوَجَـدْتُ بَرْدَهَـا بَيْـنَ ثَدْيَـى ، فَعَلمـتُ مَـا فِـى السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِـى الأَرْضِ، ثُـمَّ تَـلاَ هَـذِهِ الا َيَـةَ: وَكَذِلِـكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ .[٣]

ومـن المناسـب أن نـورد هـنا مطـالب مـن كتـاب المحقّـق الفيـض

مائيـم كز خدا چو خدائى جدانيئم از وى جـدا نيئم وليكن خدا نيئم
دربحرعشق كشتى فانى ما شكست تا اوشديم اوست، كەمائيم وما نيئم

و إلى الامرين ثمّ إلى الفناء ثمّ إلى التوحيد الصرف أشرتُ فيما أشرتُ .

با مـن بـودى ، منـت نمى‌دانسـتم يا مـن بـودى ، منـت نمى‌دانسـتم
رفتم چو از من ميان ، ترا دانسـتم تا مـن بـودى ، منـت نمى‌دانسـتم

١ ـ «شرح الرسالة المنسوبة إلى بحرالعلوم» مع تعليق وشرح المؤلّف الحقير، ص ١٨١.
٢- «جامع الاسرار» ص ٢٩٩ و ٣٠٠ .
٣- «جامع الاسرار» ص ٤٦٢ و ٤٦٣ .

القاسانىّ «كلمات مكنونة» :

روى عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّهُ قال: نَزَّلُونَا عَن الرُّبُوبيَّةِ ثُمَّ قُولُوا فِى فَضْلِنَا مَا اسْتَطَعْتُمْ ، فَإنَّ البَحْرَ لاَ يُنْزَفُ، وَسِرُّ الغَيْبِ لاَ يُعْرَفُ ، وَكَلِمَةُ اللَهِ لاَ تُوصَفُ .

وروى كذلك من أميرالمؤمنين عليه السلام قوله : نَحْنُ أَسْرَارُ اللَهِ المُودَعَةُ فِى هَيَاكِلِ البَشَرِيَّةِ .

وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: اجْعَلُوا لَنَا رَبّاً نَوْبُ إلَيهِ؛ ثُمَّ قُولُوا فِى فَضْلِنَا مَا شِئْتُمْ !

وورد عن الصادق عليه السلام أيضاً قوله :

إنَّ الصُّورَةَ الإنسَانيَّةَ أَكْبَرُ حُجَّةِ اللَهِ على خَلْقِهِ . وَهِىَ الكِتَابُ الَّذِى كَتَبَهُ بيَدِهِ. وَهِىَ الهَيْكَلُ الَّذِى بَنَاهُ بحِكْمَتِهِ. وَهِىَ مَجْمُوعُ صُوَرِ العَالَمِينَ . وَهِىَ المُخْتَصَرُ مِنْ العلوم فى اللَّوْحِ المَحْفوظِ . وَهِىَ الشَّاهِدُ على كُلِّ غَائِب. وَهِىَ الحُجَّةُ على كُلِّ جَاحِدٍ. وَهِىَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ إلَى كُلِّ خَيْرٍ. وَهِىَ الصِّرَاطُ المَمْدُودُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ .[1]

وفى الحديث النبوىّ المشهور :إنَّ اللَهَ خَلَقَ آدَمَ على صُورَتِهِ .[2] وفى رواية على صُورَةِ الرَّحْمَنِ.

---

١ ـ أورد جميع هذه الفقرات العارف الجليل السيّد حيدر الاملىّ فى «جامع الاسرار» بهذه العبارة : وإلى مثل هذا الإنسان ومرتبته أشار مولانا جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام فى قوله : ثمّ يذكر الحديث إلى آخره . (ص ٣٨٣، رقم ٧٦٥) .

٢ ـ أورد الشيخ نجم الدين الرازىّ فى كتاب «مرصاد العباد» ص ٣ طبعة بنگاه ترجمة ونشر كتاب (= دار ترجمة و نشر الكتب) هذه الرواية بهذا الترتيب : خلق الله آدم على صورته ؛ وفى ص ٦٥٠ التى ذكر فيها مصدرها قال المعلّق : رواية نُقلتْ صورها المختلفة فى أحاديث «مثنوى» ص ١١٤ و ٢١٣ .

قيل : أى أنّه خلق آدم على صفته هو : حىٌّ، عالمٌ، مريدٌ، قادرٌ، سميعٌ، بصيرٌ ومتكلّم .

ولانّ حقيقة كلّ شىء تتحقّق فى الخارج مع صورته ، فإنّ لفظ الصورة يُطلق مجازاً على الاسماء والصفات، لانّ الحقّ سبحانه بها يظهر ويتجلّى فى الخارج ، ومثل هذا التعبير المجازىّ متداول معهود عند أهل الظاهر. أمّا عند المحقّقين فَالصُّورَةُ عِبَارَةٌ عَمَّا لاَ يُعْقَلُ مِنَ الحَقَائِقِ المُجَرَّدَةِ الغَيْبِيَّةِ ، وَلاَ تَظْهَرُ إلاَّ بهَا .

وَالصُّورَةُ الإلَهِيَّةُ هُوَ الوُجُودُ المُتَعَيَّنُ بِسَايِرِ التَّعَيُّنَاتِ الَّتِى بِهَا يَكُونُ مَصْدَراً لِجَمِيعِ الاَفْعَالِ الكَمَالِيةِ وَالاثَارِ الفِعليةِ .

فإن سأل سائل: كيف أمكن إطلاق لفظ الصورة على الله تعالى ؟

نجيب: حسب قول أهل الظاهر كان ذلك مجازاً لاحقيقة، فإنّ إطلاق اسم الصورة عندهم على المحسوسات حقيقة وعلى المعقولات مجاز.

أمّا عند هذه الطائفة، فلانّ العالم بكلّ أجزائه الروحانيّة والجسمانيّة والجوهريّة والعرضيّة هو الصورة التفصيليّة للحضرد الإلهيّة، والإنسان الكامل صورته جمعاً، فإنّ إضافة الصورة إلى الحقّ تعالى حقيقة؛ ولسواه مجاز، إذ لاَ وُجُودَ عِنْدَهُمْ لِلسِّوى؛ كما قال قائلهم :

ياری‌دارم‌كه جسم وجان صورت اوست

چه جسم‌وچه جان،هردو جهان‌صورت‌اوست

هر معنى خوب و صورت پاكيزه

كاندر نظر تو آيد ، آن صورت اوست[1]

١- «كلمات مكنونة» ص ١١ و ١٢١٢، ضمن الكلمة ٥٩ ، الطبعة الحجريّة .

يقول : «لى حبيبٌ، الجسم و الروح صورته، كلا العالمين جسمٌ و روح صورته .

وكـم كـان بيـان المـولى الرومـىّ لهـذه الحقيقـة جميـلاً فى عـدّة أبيـات فى « المثنوى » :

گر تـو آدم زادهای ، چـون او نشـين
جمـلـة ذرّات را در خـود ببـين
چيسـت انـدر خـم كه اندر نهر نيست
چيسـت انـدر خانه ، كاندر شهر نيست
اين‌جهان خُمّ است،ودل‌چون جوى آب
اين‌جهان خانه‌است، و دل شهر عُجاب[1]

أجل ، فقد كـان الكـلام فى أنّ الرسـول الاكـرم صلّـى اللـه عليـه وآلـه وسلّم قد تلقّى القرآن من لدن حكيم عليـم ذى جنـاب ومقـام عزيـز، كمـا قـال تعإلى فى سورة غافر :

حَم * تَنزِيلُ الْكِتَـٰبِ مِنَ اللَهِ الْعَزِيزِ الْعليمِ .[2]

ومـن المعلـوم أنّ كتابـاً مثلـه نـزل مـن جـانب العلـم المطلـق والحكمـة المطلقـة والعـزّة المطلقـة هـو عـين الحـقّ والاصالـة والواقعيّـة ، ولا يمكـن أن يكون غير ذلك والحال أنّه نزل مـن جـانب الخـالق الحـقّ مـن جميـع جهاتـه ، ذاتاً وصفّةً واسماً وفعلاً ؛ كما يقول تعإلى :

كلّ معنىً بديع و صورة منزّهة، يلحظها بصرك فهى صورته».

١- يقـول: «إن كنـتَ ابـن آدم حقّـاً فـاجلس كمـا فعـل وانظـر إلى الـذّارت فى نفسـك و وجودك ـ أى اعرف العالم الكبير فى العالم الصغير و هو نفسك ـ .

فما الشـىء الـذى حـواه الـدنّ و لم يحـوه النـهر ؟ و مـا الشـى الـذى حـواه البيـت و خلـت منـه المدينة ؟

هذا العالم كالدنّ و القلب كساقية ماء، و هذا العالم كالبيت و القلب كالمدينة العجيبة».

٢ ـ الآيتان١و٢، من السورة ٤٠ : غافر.

إِنَّهُ و لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بالْهَزْلِ . [١]

وقال تعالى : الم * ذَ لِكَ الْكِتَـٰبُ لاَ رَيْبَ فِيهِ . [٢]

ذَلِكَ بأَنَّ اللَـهَ نَـزَّلَ الْكِتَـٰبَ بِـالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِيـنَ اخْتَلَفُـوا فِـى الْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ . [٣]

نَزَّلَ عليـكَ الْكِتَـٰبَ بِـالْحَقِّ مُصَدِّقًـا لِّمَـا بَيْـنَ يَدَيْـهِ و أَنـزَلَ التَّوْرَىٰـةَ وَالإِنْجيلَ . [٤]

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيكَ الْكِتَـٰبَ بالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ اللَهُ . [٥]

وَأَنزَلَ عليكَ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ . [٦]

وكمـا هـو مشـهود فى هـذه الا َيـة، فـإنّ نـزول الكتـاب قُـرن بـنزول الحكمـة ، أى أنّ كتـاب اللـه لا ينفصـل عـن الحكمـة ولا ينفـكّ أبـداً ، فالحكمة هى العلم بالحقائق والواقعيّـات علـى مـا هـى عليـه، ولهـذا فقـد كـان نـزول القـرآن مقارنـاً للإتقـان والإحكـام والحقّانيّـة، لا يعتريـه بطـلان ولا يتطرّق إليه الخلل .

وقـد وردت فى القـرآن الكـريم نظـير هـذه الا َيـة آيـات جمّـة قرنـت القرآن بالحكمة، غير الا َيات التى نعتت القرآن صراحة بصفة الحكمة مثل: الر تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْحَكِيمِ . [٧]

---

١ ـ الآيتان ١٣ و ١٤، من السورة ٨٦ : الطارق .

٢- الآيتان ١ و ٢، من السورة ٢ : البقرة .

٣- الآية ١٧٦، من السورة ٢ : البقرة .

٤ ـ الآية ٣، من السورة ٣ : آل عمران .

٥ ـ الآية ١٠٥، من السورة ٤ : النساء .

٦ ـ الآية ١١٣، من السورة ٤ : النساء .

٧ ـ الآية ١، من السورة ١٠ : يونس .

و: الر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُ و ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ. [1]

وهناك آيات قرآنيّة بهذا المفهوم تصرّح بأنّ القرآن كتاب علم ، وضعت آياته وفصّلت على أساس العلم ، ولابدّ لمثل هذا الكتاب من أن يخلو من الجهل والشكّ والفرضيّات غير القائمة على محور العلم والبرهان والنظريّات غير المستندة إلى الحقّ وإليقين والاصالة الراسخة .

يقول فى سورة الاعراف : وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُمْ بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ على عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . [2]

ويقول فى سورة الكهف : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ على' عَبْدِهِ الْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ و عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا . [3]

حتّى أنّه يصل بعد هذا إلى إنذار أُولئك الذين يعتمدون على الظنّ والخيال كأساس فى أُمورهم ، ويتكلّمون بما لم يحرزوا علمه ويقينه ، ويرسّخون على ذلك عقائدهم ، فيقول فى ذلك :

وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِاٰبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَهِهِمْ إن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . [4]

والملاحظ هنا أنّ القرآن ينفدّ بشدّة قولهم باتّخاذ الله ولداً ، لانّه لايستند إلى علم ولا يعتمد على برهان ، فيدعوه لهذا السبب وحده بالكذب ، وينسب إليهم القول السيّى والقُبح الكبير الذى يخرج من

---

١ ـ الآية ١، من السورة ١١: هود .

٢ ـ الآية ٥٢ ، من السورة ٧ : الاعراف. ـ

٣- الآيات ١ إلى ٣ : من السورة ١٨: الكهف.

٤ ـ الآيتان ٤ و ٥ ، من السورة ١٨: الكهف.

أفواههم، وخاصّةً باستعماله تعبير تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَهِهِمْ بدل تعبير يعلمون ويعتقدون وأمثالهما ، فهو يدين قبح ورداءة ودناءة العَقائد الظّنيّة والوهميّة الواهية ، ويدين بشكل عامّ جميع الأُمور غير إليقينيّة.

وتعد مسألة محاربة القرآن ليس فقط للجهل والتخلّف، بل لجميع المسائل غير العلميئة، تعدّ مسألةً مهمّة جدّاً، بل من أهم المسائل ، حيث دحض القرآن بشدّة آراء وأفكار الذين يعتمدون على الفرضيّات غير العلميّة وفندّها ، فهو تارةً يقول :

وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّأُ ولَـئكَ كَانَ عَنْهُ مَسؤُلاً. [١]

ويقول تارةً فى سورة النجم: إِنْ هِىَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى'. [٢]

ثمّ يقول بعد آياتٍ ثلاث من نفس السورة:

إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالاْخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَـئكَةَ تَسْمِيَةَ الاْنثَى' * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . [٣]

ثمّ يأمر الله نبيّه فى سياق هذا الموضوع أن يُعرض عمّن تولّى عن ذكر الله فانحصر هدفه فى الحياة المادّيّة والحيوانيّة والشهوات الدنيويّة ، فكان هذا مبلغه من العلم لم يتعدّاه إلى سواه ، فكانت ثروته هؤلاء الافراد العلميّة محدودة بالحياة الدنيا ، لم يتوجّهوا إلى الباطن والحياة العلويّة فبقوا

١ ـ الآية ٣٦ ، من السورة ١٧ : الإسراء.

٢ ـ الآية ٢٣، من السورة ٥٣ : النجم.

٣ ـ الآيتان ٢٧ و ٢٨، من السورة ٥٣ : النجم.

جيسى سجن الطبيعة وأسوارها: فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى' عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَو'ةَ الدُّنْيَا * ذَ لِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ. [1]

ومن العجب أنّ هذا القرآن الذى استُخلِص من العلم يأمر فى تعاليمه بالعلم أيضاً، ويذمّ أُولئك الذين يتّبعون الظنّ ، وبشكل عامّ أُولئك الذين يتّبعون الأُمور غير العلميّة، فيقول فى مواضع ثلاثة من القرآن الكريم :

إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِن هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ . [2]

إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِن أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ . [3]

وَمَا لَهُم بِذَ لِكَ مِنْ عِلْم إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ . [4]

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِن عِلْم إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . [5]

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ على اللَهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَـ'مَةِ . [6]

يَـ'أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ . [7]

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَهَ عليمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَمَا كَانَ هَـ'ذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَهِ وَلَـ'كِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَـ'بِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَـ'لَمِينَ . [8]

١- الآيتان ٢٩ و٣٠، من السورة ٥٣ : النجم.

٢ ـ وردت فى موضعين من القرآن ، الاوّل : الآية ١١٦ ، من السورة ٦ : الانعام ، الثانى : الآية ٦٦، من السورة ١٠ : يونس .

٣ ـ الآية ١٤٨ : من السورة ٦ : الأنعام.

٤ ـ الآية ٢٤، من السورة ٤٥ : الجاثية.

٥ ـ الآية ١٥٧، من السورة ٤: النساء.

٦ ـ الآية ٦٠، من السورة ١٠: يونس.

٧ ـ الآية ١٢، من السورة ٤٩: الحجرات.

٨ ـ الآيتان ٣٦ و ٣٧، من السورة ١٠: يونس.

وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَـٰهِلِيَّةِ . [١]

لقد دعا القرآن الكريم على الدوام ناظريه إلى موضوع حقّانيّته، وأبان فى الكثير من الموارد عن حقيقته وواقعيّته ، ودعا الناس إلى متابعة نهجه فى آرائهم وأفكارهم ومسائلهم، وأن يلوموا أنفسهم فى موارد الشكّ والشبهة، لانّ ما خطر بذهنهم ممّا يخالف حقيقة القرآن وحقّانيّة وواقعيّته ليس إلاّ باطل وهراء .

فيقول بشأن جماعة المنافقين الذين يقرأون القرآن ويفتقدون مع ذلك الإيمان الحقيقىّ :

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ على اللَهِ وَكَفَى' باللَهِ وَكِيلاً * أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا . [٢]

إنّ هذا القرآن بانسجام مضامينه وبيانه وخلّوها من الاختلاف والتناقض لم يستطع أحد رغم كرّ الدهور ومرور الاجيال، وتعاقب الطوائف والاتّجاهات من عدو وصديق أن ينتقده أدنى انتقاد، أو يجد فيه أدنى اختلاف وتناقض ، أو يُظهر مغايرة أُصوله العامّة ومعارفه الحقّة الإلهيّة ، أو حكاياته وقصصه للتأريخ القطعىّ الصحيح، أو أن يطعن بقوانينه وأحكامها ويثبت مخالفتها للعلم .

كلّ هذه دلائل وآيات على أنّ هذا الكتاب قد أُخذ من الحقّ ، ونُقل من الحقّ، ونزل بالحقّ، وفى هذه الحال معلوم أن :

---

١ ـ مقطع من الآية ١٥٤، من السورة ٣: آل عمران.

٢ ـ الآيتان ٨١ و ٨٢، من السورة ٤: النساء.

فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .[1]

ولدينا آية قرآنيّة كريمة تظهر صراحةً أنّ جميع العلوم الحقّة والمعارف الصحيحة فى أىٍّ من الفروع والاختصاصات ؛ من تأريخ وجغرافية وطبّ ، وعلوم الفيزياء والكيمياء والرياضيّات ، والهيئة والنجوم والجيولوجيا (علم طبقات الارض) ، والعلوم الاجتماعيّة وعلم الاجتماع ، والفرضيّات والنظريّات العلميّة الصحيحة ، ونظائر هذه العلوم التى تصعب على الحصر؛ لا يمكن لاىّ منها أن يقدح فى أبسط مورد من بيانات القرآن ، أو أن يورد نقضاً ورداً على أصل من أُصوله أو فرعٍ من فروعه ، أو أن يورد خدشاً وتشكيكاً فى مسألة حقّانيّته ، وبعبارة أُخرى فإنّ القرآن كتابٌ لا يأتيه الباطل من أىّ أمر وأىّ جهة .

والقرآن بالنسبة للعلوم المكتشفة من زمن آدم إلى زمن نزوله ، ومن زمن نزوله إى يوم القيامة ، بشكلٍ لا يتغيّر ولا يتبدّل ، هو القدوة فى جميع هذه

---

١ – الآية ٣٢، من السورة ١٠ : يونس.

يروى المجلسى فى « بحارالانوار » ج ٩٢ ص٢٦ و ٢٧ ، الطبعة الحرفيّة ، طهران ، عن « تفسير العياشى» عن الصادق عليه السلام انه قال : و ما عدل احد عن القرآن الا الى النار . (« تفسير العياشى» ج١ص٥) .

كما أورد عن المحاسن للبرقىّ ، ضمن حديث عن الامام الباقر عليه السلام : فمن زعم ان كتاب الله مبهم فقد هلك و اهلك . (« بحار الانوار ج ٩٢ ص٩٠ ؛ و المحاسن ص ٢٧٠) .

كما أورد عن المحاسن بسنده عن الامام الصادق عليه السلام ، قال : ما من أمر يختلف فيه اثنان الا و له اصل فى كتاب الله ، لكن لا تبلغه عقول الرجال . (« بحار الانوار» ج٩٢،ص١٠٠ ؛ و المحاسن ص ٢٦٧).

و قال أمير المؤمنين عليه السلام فى شأن القرآن : و اتهموا عليه آراءكم . («نهج البلاغه» الخطبة ١٧٤ و فى طبعة مصر ف تعليق محمد عبده : ج ١ص٣٢٧) .

المراحل باعتماده على الحقائق والواقعيّات، وهو المتفوّق والحاكم والمهمين على جميع الآراء والافكار والثروات العلميّة والعلوم التجربيّة والعقليّة . وتلك الآية هى :

وَإِنَّهُ و لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ * لاَّ يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِن بَيْنَ يَدَيْهِ وَلاَ مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّن حَكِيمٌ حَمِيدٍ .[١]

قال الأُستاذ آية الله العظمى العلاّمة الطباطبائىّ قدّ سالله تربته المنيفة فى بيانه لتفسير هذه الآية المباركة:

وقوله: وَإِنَّهُ و لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ، الضمير للذكر وهو القرآن، والعزيز عديم النظير أو المنيع الممتنع من أن يُغْلَب، والمعنى الثانى أنسب لما يتعقّبه من قوله: لاَّ يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِن بَيْن يَدَيْهِ وَلاَ مِن خَلْفِهِ؛ ومعنى : لاَّ يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِن بَيْن يَدَيْهِ وَلاَ مِن خَلْفِهِ، إِيتان الباطل إليه وورود فيه وصيرورة بعض أجزائه أو جميعها باطلاً، بأن يصير ما فيه من المعارف الحقّة أو بعضها غير حقّة، أو ما فيه من الاحكام والشرائع وما يلحقها من الاخلاق أو بعضها لغواً لا ينبغى العمل به .

وعليه فالمراد بقوله : مِن بَيْن يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ زمانا الحال والاستقبال ، أى زمان النزول وما بعده إلَى يوم القيامة .

وقيل : المراد بما بين يديه وما خلفه جميع الجهات ، كالصباح والمساء كناية عن الزمان كلّه، فهو مصون من البطلان من جميع الجهات ، وهذا العموم على الوجه الاوّل مستفاد من إطلاق النفى فى قوله : لاَ يَأْتِيهِ .

والمدلول على أىّ حال أنّه لا تناقض فى بياناته، ولا كذب فى أخباره ، ولا بطلان يتطرّق إلى معارفه و حكمه و شرائعه ، ولا يعارض

١ ـ آخر الآية ٤١ والآية ٤٢، من السورة ٤١ : حم السجدة .

ولا يغيّر ما ليس منه فيه ، أو بتحريف آية من وجه إلى وجه ، فالآية تجرى مجرى قوله : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ و لَحَـٰفِظُونَ . [1]

وقوله: تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ مَّجِيدٍ. بمنزلة التعليل لكونه كتاباً عزيزاً لا يأتيه الباطل إلَى آخره ، أى كيف لَا يكون كذلك وهو منزل من حكيم متقن فى فعله لايشوب فعله وهن ، وهو محمود على الإطلاق ؟ [2]

ويجب البحث والتفحّص لمعرفة سرّ أبديّة أحكام القرآن المنطبقة على الحقّ وخلود معارفه وعقائده وأخلاقيّاته وشرائعه وأحكامه .

إنّ من بديهيّات الدين الإسلامىّ أنّه دين ثابت دائم إلى يوم القيامة ، وأنّ النبىّ الاكرم محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وآله وسلّم خاتم الانبياء والمرسلين ، وأنّ الكتاب السماوىّ : القرآن الكريم هو برنامج العمل لجميع المجتمعات البشريّة إلى يوم الجزاء .

ولإيضاح الامر نقول إنّ الاحكام والتعليمات بحدث مرّةً أن تكون راجعة لافراد خاصّين، وبشأن موضوعات مشخّصة ومعيّنة، كأن يصف الطبيب الفلانىّ للمريض الفلانىّ دواءً فيأمره أن يتناول منه صبح يومٍ معيّن مقداراً محدّداً .

وبالطبع فإنّ هذا الدواء الخاصّ الوارد لموضوع خاصّ لا يمكن استعماله لموارد أُخرى لها مغايرة من جهة الموضوع .

وقد تكون الأحكام والتعليمات غير راجعة لافراد خاصّين ، بل تكون عامّة صالحة للأنواع والاجناس والاصناف والطبائع الكلّيّة ، كأن يقول الطبيب : إنّ من لديه مرض الصفراء فعليه أن يتناول من شراب

---

١ ـ الآية ٩٤، من السورة ١٥: الحجر.

٢ ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٧، ص ٤٢٤ و ٤٢٥.

السكنجبين ،[١] أو أن يقول : إنّ شراب السكنجبين رافعٌ للصفراء؛ فالحكم فى هذا المثال كلّىّ ينطبق على جميع الافراد المنضوين تحت هذا العنوان ، وأنّ على جميع مرضى الصفراء مهما اختلفت خصائصهم؛ رجالاً ونساءً، بيضاً وسوداً، صغاراً وكباراً، أحراراً وعبيداً، مؤمنين وكافرين، طوالاً وقصاراً، شرقيّين وغربيّين؛ أن يستعلموا هذا الدواء .

ولا دخل لخصائص الافراد هنا فى تأثير الدواء، فإنّ فائدته بالنسبة لجميع الافراد على حدٍّ سواء، لانّ العامل التوحيد المؤثّر هو وجود مرض الصفراء فى مزاج الافراد بغضّ النظر عن الشرائط المحيطيّة والزمانيّة والمكانيّة .

إنّ الإنسان يمتلك طبعاً وفطرةً ماديّة وجسمانيّة، ويمتلك أيضاً فطرةً معنويّة وروحانيّة، وينبغى أن تتصاعد قابليّة الإنسان إثر مرور السنين وتدرّج العمر بالحركة الجوهريّة إلى مقام الكمال، بل إلى مقامه الاكمل ، فيصير إنساناً كاملاً ويرقى إلى درجة الفعلية المحضة، أى أن تصبح جميع جهات استعداده وقابليّاته فعلية .

وهذا الامر يتحقّق فقط عندما تتساوق مسيرة الإنسان وحركته وتنجسم مع مسير الفطرة وخطّها، وإلاّ فإنّ الانحراف عن مسار الفطرة سيؤدّى إلى اهدار القابليّة الذاتيّة بنفس نسمبة الانحراف ، وسيستحيل لذلك تحقّق الفعلية ، وبتعبير القرآن الكريم فإنّ الضلال، أى التيه والضياع والموت والفناء فى المراتب المتديّنة، سيعترضه قبل بلوغ المقصد الاقصى والاسمى :

وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ .[٢]

---

١ ـ وهو نوعٌ من الشراب يتّخذ من الخلّ والسكر.

٢ ـ الآية ١٠٨، من السورة ٢ : البقرة .

وَمَن يُشْرِكْ بِاللَهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلاً بَعِيدًا . [1]

وَمَن يَكْفُـرْ بِاللَـهِ وَمَلَـٰئكَتِـهِ وكُتُبِـهِ وَرُسُـلِهِ وَاليـوْمِ الاْخِـرِ فَقَـدْ ضَـلَّ ضَلَـٰلاً بَعِيدًا . [2]

وَمَن يَعْصِ اللَهَ وَرَسُولَهُ و فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلاً مُّبِينًا . [3]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى. [4]

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى. [5]

فـإنّ الشـرك باللـه، والكفـر، وعـدم الإيمـان بملائكـة المـلا الاعلـى، ورسل اللـه وكتبه السـماويّة، وموقـف القيامـة، وعصيـان اللـه ورسـوله، تمثّـل انحرافـاً عـن خـطّ الفطـرة ؛ وضدّهـا الطاعـة وقبـول هـذه الحقـائق يوافـق الفطرة والغريـزة الاوّليّـة المودعـة مـن قبـل البـارى ، والديـن الإسـلامىّ يؤيّـد ويسـدّد هـذا الامـر الفطـرىّ الإلهـىّ المـودع ، ويحصـل هـذا الإمضـا ودلالتـه بـالوعى والإدراك البـاطنىّ ونـور البصـيرة الخـإلى مـن شـوائب الهواجـس النفسـيّة والآراء والاهـواء الشـيطانيّة ، الـذىأُودع فى كيـان الإنسـان واختفـى فيه ، واختمرت به النفس الإنسانيّة وامتزجت .

وعموماً فـإنّ جميـع أحكـام الإسـلام ـ الـتى تشـكلّ بمجموعـها الديـن ـ قد صيغت على أسـاس الرغبـات الفطريّـة والاحتياجـات الخفيّـة المودعـة الـتى يحتاجها الإنسان ويتطلّبـها فى مسـيرته نحـم الكمـال، وقضـاء العمـر مـع حركـة الزمان والمكان ، والوصول لاعلى مدارج ومعارج البشر.

---

١ ـ الآية ١١٦، من السورة ٤: النساء.

٢ ـ الآية ١٣٦، من السورة ٤: النساء.

٣ ـ الآية ٣٦، من السورة ٣٣: الاحزاب.

٤ ـ الآية ٣٠، من السورة ٥٣: النجم.

٥ ـ الآية ١٢٣، من السورة ٢٠: طه.

وجاء الدين الإسلامىّ بتعإليمه وأحكامه ومطالبه ـ طبقاً لكتاب القرآن السماوىّ ـ منتزعةً من الفطرة ، وشرّعت أحكامه وقنّنت قوانينه متماشية ومنسجمة مع الاحتياجات الباطنيّة فى الخِلقة التى يجب أن يتمتّع بها الإنسان فى مسيرته .

فأحكام القرآن منتزعة من الطبائع الاوّليّة للإنسان والغرائز التى خلقها الله مع البشر، ولان الغرض من هذه الاحكام هو رُشد هذه الغرائز وتكميلها، فقد كانت على الدوام ثابتة لا تتغيّر، إلاّ إذا فقد الإنسان غرائزه ، فتحوّل عندئذٍ عن إنسانيّته وبشريّته، وهو افتراض تبدّل الماهيّة وتغيّرها ، وهو محال . فما دام الإنسان إنساناً ، فهذه الاحكام سارية ، و هى له كالغذاء إذ لابدّ لها من أن تسدّ احتياجاته كلأكل والشرب . والإنسان هو الإنسان أبداً .

والسبب العامّ لهذه الفلسفة الكلّيّة هو أنّ الخصائص والميزات الفرديّة لا علاقة لها ولا دخل فى هذه الاحكام، فكلّ حكم قد جُعل لموضوعٍ معيّن ، كان وجود ذلك الموضوع الكلّىّ العلّة التامّة لاستجلاب ذلك الحكم بدون تدخّل الخصوصيّة الفرديّة .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينَ حَنيفًا فِطْرَتَ اللَهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عليهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَهِ ذَ لِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنيبينَ إلَيهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .[١]

تبيّن هذه الآية أنّ أساس الدين قائم على أساس الفطرة الإنسانيّة الثابتة ، وباعتبار انتفاء أىّ تغيير وتبدّل فى خلقة الإنسان وبنائه الروحىّ والنفسىّ والجسمىّ ، فإنّ هذا الدين ثابتٌ وراسخ لا يتغيّر.

١ ـ الآيات ٣٠ إلى ٣٢، من السورة ٣٠: الروم.

وتُظهر هذه الآية جـهل أكـثر النـاس بهـذه الحقيقـة، وتبيّـن أنّ عموميّـة الاحكـام تسـتند علـى الإنابـة والرجـوع إليـه والتقـوى وإقامـة الصـلاة ونفـى الشـرك، وتظـهر أنّ السـير الحقيقـىّ والتكـاملىّ للبشـر ينبغـى أن يرتكـز علـى طـهارة النفـس والانقطـاع للـربّ الـودود، فالمـال والولـد والتجـارة والزراعـة والصناعة تعدّ كلّها أُموراً ثانويّة ومقدّمة لحصول الكمال الروحىّ والصلاح الحقيقىّ للإنسان، فينبغى النظر لهـا علـى أنـّها توابـع ولواحـق لا أُصـول ومبـادى، وأن تقيمّـم باعتبارهـا مقدّمـة ليـس إلاّ، وقـد دوّن الإسـلام القوانـين وأحكـام المعاملات والمكاسب على هذا الاساس .

إنّ الاهتمـام بـالعلوم الاقتصاديّـة بالشـكل الـذى يعيـق الإنسـان عـن الاعمـال الروحيّـة والكمـال المعنـوىّ سـتكون عاقبتـه الإضـرار بـالمجتمع والفرد، ومعاكسة للاتّجاه الواقعىّ للمسـيرة الإنسـانيّة علـى طريـق الفطـرة بحثـاً عن الجوهرة المفقودة المنشودة .

وكم هو جميلٌ ذلـك التعليـم الخـالد للقـرآن الكـريم حـين يبيّـن لنـا هـذا المعنى :

أَيَحْسَبُونَ أَنـَّمَّا نُمِدُّهُمْ بهِ مِـن مَّـالٍ وَبَنـِينَ * نُسَـارِعُ لَـهُمْ فِـى الْخَـيْرَ تِ بَـل لاَّ يَشْـعُرُونَ *إِنَّ الَّذِيـنَ هُـم مِّـنْ خَشْـيَةِ رَبِّـهِمْ مُّشْـفِقُونَ * وَالَّذِيـنَ هُـم بـَايـ'ت رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِيـنَ هُـم برَبِّـهِمْ لاَ يُشْـرِكُونَ * وَالَّذِيـنَ يُؤْتُـونَ مَـآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنـَّهُمْ إِلَـى' رَبِّـهِمْ رَ جِعُـونَ *أُولَـ'ئِـكَ يُسَـ'رِعُـونَ فِـى الْخَيْرَتِ وَهُمْ لَهَا سَـ'بِقُونَ .[1]

إنّ طريق الفطرة و مسـيرتها هـو الصـراط المسـتقيم الـذى جـرى البحـث عنـه مفصّـلاً فيمـا مضـى ، وقـد وضـع الشـارع المقـدّس تعـاليمـه وفـق هـذا

١ ـ الآيات ٥٥ إلى ٦١ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

الأُسلوب أيضاً، ومن الواضح أن لا منافاة بين حكم العقل وحكم الفطرة ، كُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ العَقْلُ حَكَمَ بِهِ الشَّرْعُ، وَكُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ الشَّرْعُ حَكَمَ بِهِ العَقْلُ . صادق لكلا الطرفين .

لاحظوا كيف أبان القرآن الكريم فى الآيات اللاحقة عن أحكامه الواضحة البيّنة التى يقرّها العقل وتختارها وتحكم بها الفطرة السليمة والعقل القويم ، ثمّ يقول فى آخرها : إنّ هذا هو الصراط المستقيم الذى ينبغى أن تتّبعوه ولا تتّبعوا السبل الأُخرى فتفرّق بكم عن طريق الله وسبيله ، لانّ نهجها وأُسلوبها لا ينسجم مع حكم الفطرة ، بل يعاكسه ويعارضه .

قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عليكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَ لِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَ لِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ إليتِيم إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُو و أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَهِأُوْفُوا ذَ لِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *و أَنَّ هَاذَا صِرَ طِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبَعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَ لِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .[1]

لاحظوا كيف بنى القرآن فى هذه الآيات القرآن تعاليمه وأوامره على أساس الوعظ وبيان العلّة والهدف منها ! وكيف يذكر بصراحة ووضوح هذه التعاليم التى يقرّها العقل القويم والفطرد السليمة بعنوان تلاوة وتوصية الخالق المربّى ، ثمّ يعلن أنّ هذا هو صراطه المستقيم ، و ما عداه غشّ

١ ـ الآيات ١٥١ إلى ١٥٣، من السورة ٦ : الانعام .

وكدورة ولوث وانحراف ، رشح من النفوس الخبيثة والكيانات الدنسة توطئة للظلم والعدوان ، وحركة نشأت على أساس الاعتداء والتفرقة ونجمت من القبائح والمنكرات الظاهريّة والباطنيّة .

وكأنّ لهذه الآيات محاورة وكلام مع باطن الإنسان وأعماقه ، وهذا هو معنى خلود الآيات المستند على أساس راسخ وقاعدة أصيلة، وهذا هو البرنامج العملىّ الذى لا يتغيّر إلى يوم القيامة لكلّ فرد ، وفى أىّ مجتمع ، وفى أىّ زمان ومكان ، بلا استثناء ولا حدود ، والذى يحدّثنا به النبىّ العظيم الشأن ، تلاوةً وقراءة ، عن الله الربّ الرحيم .

فذلك النبىّ الذى كان أحد جنبيه تجاه عالم الغيب ، وجنبه الآخر نحو عالم الشهادة ، كان يتلّقى من هناك ، فينقله ويعكسه هنا ، يتلّقى من هناك : وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عليمٍ ، [1] وهو هنا أشبه بأمواج النور المعنوىّ والملكوتىّ يسدّ أُفق المُلكِ ، وتنبثق نبراته من حنجرته المباركة فتصل إلى القطبين ، وتسخّر الخافقين ، وتترك أرواح العشّاق والواهين للوصول ولقاء جمال الحقّ مترنّمة إلى يوم القيامة بهذه الأُنشودة .

يروى العيّاشىّ فى تفسيره، بإسناده، عن فضيل بن يسار أنّه قال : سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليهِ السَّلاَمُ عَنْ هَـذِهِ الرِّوَايَـةِ : مَا مِنْ القُـرْءَانِ آيـةٌ إلاَّ وَلَـهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ ؛ وَمَّا فِيهِ حَرْفٌ إلاَّ وَلَهُ حَدٌّ، وَلِكُـلِّ حَـدٍّ مُطَّلَـعٌ ؛ [2] مَـا يَعْنِـى بِقَوْلِـهِ : لَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ ؟

---

١ ـ الآية ٦، من السورة ٢٧ : النمل ، وهى الآية التى أوردناها فى مطلع البحث .

٢ ـ المطلع أمّا بتشديد الطاء وفتح اللام بمعنى مكان الاطّلاع من علوّ، أو على وزن المَصْعَد وله نفس معنى المصعد، أى المكان الذى يُذهب إليه لتحصيل العلم والاطّلاع ، وحاصله قريب من المعنى الاوّل ؛ وهو معنى التأويل والباطن كما أنّ معنى الحدّ قريب من معنى الظاهر والتنزيل .

قَالَ عليهِ السَّلاَمُ : ظَهْرُهُ تَنْزيلُـهُ ؛ وَبَطْنُـهُ تَأْويلُـهُ؛ وَمِنْـهُ مَـالَمْ يَكُـنْ بَعْـدُ . يَجْرى كَمَا يَجْرى الشَّـمْسُ وَالقَمَـرُ. كُلَّمَـا جَـاءَ شَـىْءٌ وَقَـعَ . قَـالَ اللَـهُ تَعَـالَى : «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ و إِلاَّ اللَهُ وَالرَّ سِخُونَ فِى الْعِلْمِ» . [١] نَحْنُ نَعْلَمُهُ . [٢]

ويستفاد من هذه الروايـات أنّ الا َيـات تمتلـك معـانٍ عامـة وكلّيّـة ، وأنّ آيات القـرآن شـاملة لكـلّ الطوائـف ، مـا كـان منـها ومـا سـيأتى ، كالشـمس والقمـر فى حركتـهما الدائمـة الدائبـة فى السـماء فـهما ينـيران كـلّ نقطـة يصلانهـا ، ولا اختصـاص لهمـا بمكـان دون مكـان ، والقـرآن كذلـك ، فـهو كالشمس والقمر كلّما واجه أحداً ، فى لُىّ زمـان ومكـان (مـن زمـن القـرآن أو قبله إلى يوم القيامة ، ولكلّ نقطة مـن الكـرة الارضيّـة : شمـالاً وجنوبـاً ، شـرقاً وغرباً أو استواءً ، قديم القـارّات وجديدهـا ؛ رجـالاً ونسـاءً ، بيضـاً وسـوداً) أعطاه حكماً ونوراً ، ثمّ يتعـدّاه إلى الآخريـن الذيـن يـأتون فيمـا بعـد فيعطيـهم حكمه ونوره ، وهكذا .

وبهـذا المعـنى قـد جـاءت قصـص القـرآن الكـريم ، فحـين يحكى القرآن

---

١ ـ مقطع من الآية ٧، من السورة ٣: آل عمران.

٢ – تفسـير الصـافى ج ١ص١٧و ١٨ ، الطبعـة المصـورة بالاوفيسـت . و يقـول المستشـار عبـد الحلكـم الجنـدى فى كتـاب « الامـام جعفـر الصـادق » ص ٢٦٧ : يـروى الشـيعه عـن النـبى انـه قـال : ان للقـرآن ظـاهرا و باطنـا ، و لبطنـه بطـن الى سـبعة ابطـن . و يـروون عـن علـى انـه قـال : مـامن آيـة قرآنيـة الا و لهـا و ظـاهر و بـاطن و حـد و مطلـع . يـروى هـذا البيـان عـن سـهل التسترى مـن المفسـرين الصوفـين . و انـه اضـاف : فالظـاهر التـلاوة و البـاطن الفـهم و الحـد حلالها و حرامـها ، و المطلـع اشـراف القلـب علـى المـراد بـه فقـها عـن اللـه عزوجـل قيـل لـه : مـا الباطن ؟ قال : فهمه .

و يـروون عـن الامـام الصـادق انـه قـال : ان فى كتـاب اللـه امـورا اربعـة : العبـارات و الاشـارات و الحقـائق و اللطـائف . فالعبـارات للعـوام و الاشـارات للخـواص و اللطـائف للأولياء و الحقائق لأنبياء اللـه .

حال نبيّ أو حال أُمّته فلا اختصاص فى ذلك بهم ، بل يتعدّاهم ويشمل من كان قبل ذلك النبيّ ومن جاء بعده [1].

ولتوضيح ذلك ، لابدّ لنا من بيان أمر مهمّ لما فيه من ضرورة ، و هو : نعلم أنّ الكثير من القصص قد وردت فى القرآن الكريم : كقصّة آدم وحوّاء والشيطان ، والخروج من الجنّة ، وتوبة آدم ، ووعظ الله آدم ، وسجود الملائكة وتمرّد الشيطان ، وقصّة نوح ونصحه قومه ومخالفتهم إيّاه ، ونصحه ولده وعصيان ولده ، والطوفان ، وغرق الجميع إلاّ نوحاً ومن تبعه، وقصّة لوط ومعصية قومه ، وقصّة شعيب ، وصالح ، وقصّة موسى وعيسى وإبراهيم ، وكذلك القصص المختلفة الأُخرى ، كقصّة أبرهة والابابيل، وذى القرنين، وسليمان وبلقيس، وداود والتحاكم عنده، وقصّة يوسف وزليخا ويعقوب ومملكة مصر وسجود إخوته، وقصّة إسماعيل والإقامة فى مكّة بعد الهجرة من الارض المقدّسة ، وكثيرٌمن القصص الأخرى التى يطول الامر بذكرها جميعاً .

ونحن مأمورون بقراءة هذه الآيات والقصص والحكايات وتلاوتها ، ونقرأها فى الصلاة فلا تُقبل صلاتنا إلاّ بقراءة قدرٍ من القرآن ، وهذه القصص من جملتها .

---

١ يقول المستشار عبد الحلكم الجندى فى كتابه « الامام جعفر الصادق » ص١٧٣ ، فى ابدية القرآن و خلوده ، عن الامام الصادق عليه السلام :

و من تعبيره (الامام الصادق عليه السلام) عن حجية القرآن ابدا ، يسأله السائل : لم صار الشعر و الخطب يمل ما اعيد منها و القرآن لا يمل؟ فيجيب: لان القرآن حجة على اهل العصر الثانى كما هو حجة على اهل العصر الاول فكل طائفة تراه عصرا جديدا و لان كل امرى فى نفسه ، متى اعاده و فكر فيه تلقى منه فى كل مدة علوما غضة . و ليس هذا كله فى الشعر و الخطب .

ونجد علاوةً على ذلك أنّ اللـه تعالى ينبّهنا دوماً بذكر: إِذْ قَـالَ، إِذْ قَـالَ، إذ قال عيسى كذا، وإذ قال موسى كذا، أو بعبارة اذْكُرْ، كقوله تعالى :

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. [١]

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَـٰبِ إِبْرَ هِيمَ إِنَّهُ و كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا. [٢]

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَـٰبِ مُوسَىٰ إِنَّهُ و كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا. [٣]

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُ و كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ . [٤]

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ و كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا . [٥]

وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ و إِنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . [٦]

وَاذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَ هِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَـٰرِ . [٧]

وَاذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِليسَعَ وَذَاالْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ . [٨]

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ و بِالْأَحْقَافِ . [٩]

فَلِمَ نزلتْ هذه الآيات التى ورد الكثير منها فى سورة مريم ، وسورة ص ، وورد بعضها فى سورة الاحقاف ، والتى نقرأها بعنوان التعبّد ، بل لانّ

١ ـ الآية ١٦، من السورة ١٩: مريم.

٢ ـ الآية ٤١ ، من السورة ١٩: مريم.

٣ ـ الآية ٥١ ، من السورة ١٩: مريم.

٤ ـ الآية ٥٤ ، من السورة ١٩: مريم.

٥ ـ الآية ٥٦ ، من السورة ١٩: مريم.

٦ ـ الآية ٤١ ، من السورة ٣٨ : ص.

٧ ـ الآية ٤٥، من السورة ٣٨ : ص.

٨ ـ الآية ٤٨ ، من السورة ٣٨ : ص.

٩ ـ الآية ٢١، من السورة ٤٦ : الاحقاف.

تلاوة كلام الخالق أفضل العبادات ؟

أفكان القصد من ذلك العلم بسيرة الاوّلين ؟ وعلى هذا الفرض ، فما فرقة عن سماع القصّاصين ، فالقصّاصون يروون حكايات يسمعها الناس بدون أن يترتّب على ذلك أثر ونتيجة .

كلاّ، فالامر مختلف عن ذلك ، بل إنّ القصد والهدف أكبر من مجرّد بيان أحوال وسيرة الأُمم السالفة كما يفعل علم التأريخ وعلم الرجال والتراجم ، وهو أن نقرأ هذه القصص بعنوان التقرّب إلى الله ، الذى هو مخّ وأساس العبادة ، نقرأها صباحاً ومساءً فى البيوت علاوة على أوقات الصلاة ، لا يوماً أو يومين بل ما بقى الدهر، ونتلوها ونتدبّر فى معاينها ومغزاها ونتائجها .

و يعود ذلك إلى أنّ هذه القصص فى الحقيقة منتزعة من أعمالنا نحن، وصفاتنا، وعقائدنا، كلّ ما فى الامر أنّها حكاية عن أُناس جاءوا وذهبوا كانوا يشبهوننا فى جميع الجوانب، وعلينا أن نقرأ هذه القصص للتدبّر والاعتبار والاتّعاظ، فنلحظ نقاط الضعف والقبح فى نفوسهم ونبحث عن أشباهها فى نفوسنا فنصلحها ونقوّمها، ونلحظ نقاط القوّة والفضل فيهم فنقوّيها أو نوجدها فى نفوسنا.

وبعبارة أُخرى فإنّ فى نفوسنا فرعون وموسى، وحواريو ابن مريم، والاقباط وبنى إسرائيل الاسباط، وإل؟هود وعيسى ابن مريم، وفى نفوسنا نمرود وإبراهيم، آدم وحوّاء، هابيل وقابيل، قوم عاد وهود، قوم ثمود وصالح، أبرهة وأفياله الحربيّة وعبد المطّلب، وأخيراً محمّد وعلى والمنافقون والمشركون والكافرون الذين نقرأ سيرتهم وحياتهم فى السور القرآنيّة الكريمة .

فحين نقرأ فى قصّة موسى وبنى إسرائيل عن تباطئهم وفتورهم

واعتراضاتهم وإشكالاتهم التى كانوا يبدونها بلاداع، انتهاءً بعبادة العجل وضياعهم فى التَّيْه، فعلينا أن نعى جيّداً أنّ هذه الاعتراضات والاسئلة والتباطؤ والفتور والاهتمام بالأُمور النفسيّة وعبادة الآثار والميل للشرك موجودة فينا نحن أيضاً. وإذا ما غفلنا ـ نحن المسلمون ـ عن أنفسنا لحظة واتّجهنا نحو عبادة المادّة والزخارف الدنيويّة، فإنّ تلك الاخلاق السيّئة والصفات الرذيلة والاعمال المنحطّة ستنتقل جميعها إلينا، فيصبح موسى فى وجودنا ضعيفاً وحيداً مخذولاً لا ناصر له ولا معين .

أمّا إذا كان لدينا نحن أيضا الإيمان والثبات وإليقين باللّه الذى كان يمتلكه موسى، فسنكون من المُخلَصين ومن العبيد التامّين فى عبادة اللّه المطيعين له ، ولن يمكن للنفس الامّارة أن تُردينا فى الهلكات .

نعم، حين نقرأ فى القرآن: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـئكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ .[1]

إلى آخر الآية الثامنة والثلاثين لتلك السورة، التى تحدّثت بأجمعها عن آدم وتعليمه الاسماء كلّها، ثمّ عرضه على الملائكة وإظهارهم عجزهم عن العلم بالاسماء ، وسجود الملائكة وتمرّد إبليس ، وخطاب الحقّ تعالى لآدم أن يسكنا الجنّة ولا يقربا هذه الشجرة ، ثمّ إغواء الشيطان لهما وأمر اللّه لهما بالهبوط إلى الارض ، ثمّ تلقّى آدم كلماتٍ من ربّه وقبوله توبته ، ونصح اللّه ووعظه لهما أن لايخافا ولايحزنا إن تبعا هدى اله ؛ فهى كلّها ترجع إينا جميعاً واحداً واحداً .

فنحن أيضاً كنّا فى أعماقنا مُخاطَبين لامر اللّه ونهيه ، ومخلوقين

١ ـ الآية ٣٠، من السورة ٢: البقرة.

ومُعَلّمين الاسماء ومأمورين فى نفس الوقت بالسجود، وسيحلّ علينا عند تمرّدنا غضب الله ولعنته، وكنّا مأمورين بالسكنى فى الجنّة وعدم الاكل من الشجرة، ثمّ المخالفة الناجمة عن الجهل والغفلة، ثمّ الهبوط إلى عالم الارض وإلقاء التوبة وقبولها عند المتابعة، وغير ذلك من الوقائع حذو النعل بالنعل.

أى أنّ فى نفوسنا آدم وحوّاء، وشيطان وملك، وكأنّ الله حين يقول: يَـٰادَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ، [1] فقد كان يخاطبنا نحن ب: أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئهِمْ؛ فالامر والنهى ، والتمرّد والطاعة ، والتجرّى والانقياد ، والوصول إلى مقام اللقاء والفناء والبقاء وأعلى عليين وسدرة المنتهى وغيرها، أو السقوط فى حضيض النكبات ودركات الجحيم وغيرها، كلّها كانت لنا نحن.

ولا أريد القول أنّ خطاب القرآن لآدم نوعىّ وراجع إلى الجنس لا إلى شخص آدم، لانّ هذا القول خلاف الظهور، بل خلاف نصّ القرآن الكريم الذى خاطب شخص آدم وحوّاء؛ بل إنّ ما أريد قوله هو إنّ الخطاب إلى شخص آدم وحوّاء هو من جهة الملاك بعينه خطاب لنا نحن، ولانّ الملاك تامّ وكامل فينا فليس من فارق يفصلنا عن آدم من جهة النتيجة والاثر والوصول إلى الجنّة والنار، أو السعادة والشقاء .

وعلى هذا فإنّ جميع هذه القصص موجّهة لنا نحن ، تمثّل برنامج العمل والموعظة والنصيحة، ولهذا الامر فقد كان البارىّ عزّ وجلّ ينبّه فى خاتمه هذه القضايا؛ كقصّة نوح والطوفان مثلاً، وقصّد صالح وعقر الناقة وقوم ثمود، وقصّة هود وقوم عاد وعذابهم فى سبع ليال وثمانية أيّام بريح السموم وغيرها؛ ويقول إنّها تذكرة وعبرة للمتذكّرين والمعتبرين .

---

١ ـ مقطع من الآية ٣٣ ، من السورة ٢ : البقرة.

ففى خاتمة القصّة الطويلة المفصّلة ليوسف على نبيّنا وآله وعليه السلام يقول : لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لاّولِى الالْبَـبِ . [١]

وحين بذكر بَلْعَمْ بَاعُورَاء الذى انحرف بعد العبادات الطويلة فتبع الشيطان وهوى نفسه الامّارة وانسلخ عن آيات التى وصلت إليه من قبل ، وأخلد إلى ركوب الشهوات الدنيويّة، يضرب الله مثله بالكلب ، ثمّ يقول :

ذَّ لِكَ مَثَلُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِايَـ'تِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . [٢]

وفى سورة غافر يقول:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عليكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عليكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِايَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَه فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ اللَهِ قُضِىَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ . [٣]

ثمّ يقول بعد آيات ثلاث: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الاْرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـ'قِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وءَاثَارًا فِى الاْرْضِ فَمَآ أَغْنَى' عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . [٤]

لقد ثبت فى علم الحكمة المتعالية والفلسفة الإلهىّ أنّ النفس الإنسانيّة هيولائى، أى أنّ لها القابليّة المحضة لاىّ تعليم وتربية، وصولاً إلى أعلى درجات الكمال ، أو سقوطاً فى أدنى مراتب الخذلان .

فالنفس الإنسانيّة لوعُلّمت ومرّنت فى أىّ مجال وتخصّص لتمرّست

١ ـ الآية ١١١، من السورة ١٢: يوسف.

٢ ـ الآية ١٧٦، من السورة ٧ الاعراف.

٣ ـ الآية ٧٨، من السورة ٤٠: غافر.

٤ ـ الآية ٨٢، من السورة ٤٠: غافر.

وصارت قدوةً فى ذلك المجال ، فلو عُلِّمتَ الطبّ لصارت طبيباً حاذقاً ، ولو عُلّمت تلك النفس فى مجال الادب لتمخّضت عن أديب خطيب وشاعر بارع ، ولو تمرّنت فى مجال الرياضيّات التى تقابل الادبيّاتً (حيث تحتاج الاخيرة لقدرة حفظ أكثر فى حين تستلزم الأُولى قوّة الفكر والمنطق) لصارت عالماً فى الحساب والرياضيّات ؛ ولو اتّجه هذا الشخص نفسه فى حقل التجارة لصار نجّاراً ماهراً ، أو فى الحدادة لنشأ حدّاداً يُشار إليه بالبنان ، أو فى مجال حفر الآبار لتخصّص فى ذلك وتعلّم أسراره .

نعم ، إنّ هذا الشخص المذكور ذا النفس الإنسانيّة لو اتّجه للبحث عن الاسرار الإلهيّة والمعارف إل؟قينيّة لصار حكيماً وفيلسوفاً وعارفاً جليل المنزلة ، أو اشتغل بعلم الحديث فقط لصار محدّثاً خبيراً ، أو انهمك فى علم التفسير لنشأ مفسّراً ذا مقام مرموق، أو فى الفقه لتكشّف عن فقيهٍ كبير .

وعلى العكس من ذلك ، فلو لم يكن فى مقام تحصيل علمٍ من العلوم ، فإنّ قابليّاته ستقف وتتحدّد فى هذا الإطار والموضع، فإذا تبع قواه الشهويّة صار السبّاق إلى ركوب الشهوات المبرّز فيها، أو تبع قواه الغضبيّة لنشأ سفّاكاً عجيباً وسفّاحاً للدماء لا نظير له ، ولانهمك فى تقوية قواه الوهميّة لصار شيطاناً كبيراً ومحتالاً ظالماً يسعى بأنواع المكر والحيل والمكائد وإراقة دماء الكثيرين على وجه الارض لسلب راحة الناس وزعزعة الهدوء والاستقرار العامّ، ثمّ يخلد إلى فراشه يرقبَ ويتفرّج .

وخلاصة القول فى معنى هيولائيّة النفس إنّها لو عُلّمت وذُرّبت فى علم معين، أو أُدخلت عالَماً معيّناً، فإنّها ستتمرّس وتكتسب الخبرة، وإلاّ فإنّ هذه القابليّة لن تصل بنفسها إلى مرحلة الفعلية ولو مرّ عليها مائة ألف عامّ ، بل ستبقى كما هى مُبهمة بسيطة بكراً .

فلو فرضنا مثلاً أنّ فتاة وفتىً قد وُضعا فى جزيرة معزولة لا يتّصل بهما أحد من البشر، ولم يكن لأىّ منهما قد قرأ كتاباً أو سمع خطبة ، ووصلا إلى مرحلة البلوغ، فإنّهما لن يفهما أو يدركا معنى الزواج والجماع أبداً ، ولو قُدّر أن يبقيا على تلك الجزيرة حتّى يهرما ويشيبا لبقيا يعيشان كأخوين أو كأُختين .

لَذا فإنّ الزَواج والنكاح يحتاج حتماً إلى إشارة ودلالة، وهكذا بالنسبة للغضب وبروز قوّته ، ولو لم يُعلِّم الغراب طريق القتل والدفن لقابيل لما كان له خبر وعلم عن قتل أخيه هابيل ودفنه، فلا دليل له إلى هذا الموضوع.

ونحن إذا ما رغّبنا النفس الإنسانيّة بأمر معيِّن لمالت إليه ورغبت فيه؛ فلو امتدحنا كنز المال وجمعه لمالت إلى ذلك وشغفت به، ولو عكسنا الامر فرغّبناها بالبذل والإنفاق لانفقت أموالها جميعاً ثمّ جلست فى زاويةٍ عاريةً ليس لديها حتّى ما يستر عورتها .

ولو تحدّثتَ معها عن الدنيا ومباهجها ، وعن النشاطات الاقتصاديّة، والاعتماد على النفس، وفوائد الجاه وحبّ الرياسة، وجمع المال وكنزه ، ومصاحبة الغوانى، والترنّم بالاغانى، لوجدتَ أمامك بشراً شهويّاً وغولاً مهيباً ماديّاً .

ولو بيّنت لهذا الشخص نفسه ـ لا بغيره ـ فناء الدنيا واعتباريّتها، وأنّ السعى يجب ألاّ يكون إلاّ فى سبيل الله ، وعن مساوى الرئاسة، وكنز الذهب والتزوير والاحتيال، لصار أمامك بشراً ملكوتيّاً وملَكاً سماويّاً.

فحينا يذهب إلى سجِّين وأسفَل السَّافِلِينَ، وحيناً يرقى إثر التربية إلى أعلى عليينَ .

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إذَا رَغَّبْتَهَا وَإذَا تُـرَدّ إلَى قَلِيلِ تَقْنَـعُ [1]

وهـذا البيـت مـن جملـة أبيـات لخويلـد بـن خـال: أبى ذؤيـب الهـذلىّ، حين مات أبنـاؤه الخمسـة (أو العشـرة) فى يـومٍ واحـد بالطـاعون، فـهو يذكـر فى هذا البيت ثباته أمام المصاعب ؛ ويقول فى البيت الذى يسبقه :

وَتَجَلُّدِى لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ أنِّى لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَأَتَضَعْضَعُ [2]

١ـ لامـيرالمؤمنين عليـه السـلام فى الخطبـة ١٧٤مـن نهـج البلاغـة عبـارة بهـذا الشـكل : فَرَحِمَ اللَهُ رَجُلاً نَـزَعَ عَـنْ شَـهوَتِهِ ؛ وَقَمَـعَ هَـوَى نَفْسِـهِ . فَـإنَّ هَـذِهِ النَّفْـسُ أبْعَـدُ شَـىْءٍ مَنْزِعَـاً ؛ وَإنَّـهَا لاَ تَزَالُ تَنْزِعُ إلَى مَعوصِيَةٍ فِى هَوَىً .

قال ابـن أبى الحديـد فى شـرح عبـارة «أبعـد شـىء منزعـاً» فى ج ١٠، ص ١٧ و ١٨: منزعـاً أى مذهباً ، قال أبو ذؤيب :

وَالنَّفـسُ رَاغبـةٌ إذا رغّبتـهـا وإذا تُـرَدُّ إلى قـلـيـلٍ تَقْنَـعُ

ومن الكلام المروىّ عنه عليه السلام (ويروى أيضاً عن غيره) :

يا أيـّها الناس إنّ هذه النفوس طلعة فإلاّ تقدعوها تنزع بكم إلى شرّ غايةٍ . وقال الشاعر :

وما النَّفـسُ إلاّ حيـثُ يجعلها الفتى فإن أُطمعتْ تاقت وإلاّ تسلّتِ

ومن جملة أبيات قصيدة البردة التى أنشدها البوصيرىّ فى أحوال وعظمة رسول اللـه :

والنَّفْسُ كالطفلِ إنْ تُهمله شبَّ على حُبِّ الرضاع وإنّ تَفطِمْهُ ينْفَطِـمُ

٢ ـ «جامع الشواهد» باب الواو بعده الالف واللاّم ؛ ويقول بعد البيت الثانى :

كَمْ مِن جَمِيـلِ الشَّمل مُلتَئم القُوَى كَانُـوا بعَيـش قَبلَنَـا فَتَصَـدَّعُ

وَالدّهـرُ لاَ يَبْقِـى عَلَـى حَدَثَانِهِ مُستَشـعِرٌ خَلَـقَ الجَـدِيدِ مُقَنَّـعُ

وقـال يـاقوت الحمـوىّ فى «معجـم الادبـاء» ج ١١، ص ٨٣ إلى ٨٩ فى ترجمـة أحـوال هـذا الشـاعر : وقيـل إنّـه كـان مـن المخضرمـين ، أدرك الجاهليّـة والإسـلام ، ورد المدينـة عنـد وفـاة رسول اللـه وأسلم وحسـن إسـلامه . روى عـن أبى عمـرو بـن العـلاء أنّ حسّـان بـن ثـابت سُـئل : أىّ الشعراء أفضـل ؟ قـال : بـين الاحيـاء هُذَيـل أبوذؤيـب . وقـال ابـن شَـبّة : وفـاقَ أبـو ذؤيـب بقصيدتـه العينيّة التى أنشدها فى رثاء أولاده الشعراء ، ومطلعها :

أمـن المنـون وريبـه تتـوجّعُ والدهـر ليـس بمعتـبٍ مَن يجزع

ورأينا أنّ ابن الفارض يقول بشأن هذا الإنسان الذى ينال مقامات سامية لا يرقى إليها الخيال ، ويرد فى حرم العزّ وحريم الامن الإلهىّ ، وتصدر منه المعجزات والكرامات وخرق العادات :

هِيَ النَّفْسُ إن أَلْقَتْ هَوَاهَاتَضَاعَفَتْ

قُوَاهَا ،و أَعْطَتْ فِعْلَهَا كُلَّ ذَرَّةِ

ويقول كذك بشأن العلوم الغيبية التى تفاض على الإنسان فى النوم:

وَمَا هِيَ إلاَّ النَّفْسُ عِنْدَ اشْتِغَالِهَا بعَالَمِهَا ، عَنْ مَظْهَرِ الْبَشَرِيَّةِ

وقد كان المراد من تعليم الاسماء الذى ذكره الله تعإلى فى سورة البقرة أن: وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا [1] هى جميع حقائق الاشياء ، وطريق الوصول إلى كلّ ما سوى الله تعإلى ، الذى اختصّ به آدم وحُرمت منه

قالت أُميمةُ ما لجسمک شاحباً منذ ابتذلت ومثل مالك ينفعُ ؟!

أم مالجسمك لا يلائم مضجعاً إلاّ أَقَضَّ عليك ذاك المضجعُ

فأجبتُها أمّا لجسمى إنّه أوْدى بنىّ من البلاد فودّعوا

أودى بنىّ فأعقبونى حسرةً بعد السرور وعَبرةً ما تُقلِعُ

ومن هذه القصيدة :

ولقد حَرصتُ بأن أدافع عنهمُ وإذا المنيّة أقبلتْ لا تُدفعُ

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

وتجلّدى للشامتين أُريهُمُ أنّى لريب الدهر لا أتضعضعُ

لابُدّ من تلفٍ مُقيمٍ فانتظر أبأرضِ قومَك أمْ بأُخَرى المضجعُ

وهذه القصيدة تقرب من سبعين بيتاً . وقال الشيخ عبدالخالق فى تعليقتها :

عادَ جمع من بنى هاشم معاوية فى مرضه الذى قضى به ، فلم يأذن لهم بالدخول حتّى أُجلس على وسادة لئلاّ يروا ضعفه ، وحين انصرفوا من عنده تمثّل بهذا البيت :

«وتجلّدى للشامتين أريهم» ـ الخ . وأورد أبو الفرج الإصفهانىّ أيضاً فى «الاغانى» ج ٦ ، ص٥٦ إلى ٦١ ترجمة أحوال أبى ذؤيب وذكر من قصيدته العينيّة أربعة أبيات .

١ ـ الآية ٣١، من السورة٢ : البقرة .

الملائكة فلم يكن لها منه نصيب .

فهذه القابليّة المحضة ينبغى أن توضع فى طريق التربيد والتعليم الصحيح فتصل إلى الفعليد التامّة ويصبح الإنسان خليفة الله العفلىّ فى عالم الوجود ، ومرآةً تامّة لظهور صفات وأسماء ذاته القدسيّة .

ويسهل فى هذه الحالة التحكّم بالنفس الإنسانيّة عن طريق نوافذ الحواسّ الخمس الظاهرة، ومنعها من الجموح كحصان هائج بلا عنان ، لتنساق إلى لىّ مزبلة وتهوى وتتردّى . فالافلام الشهويّة والغضبيّة والوهميّة تؤدّى إلى ضياع النفس، والموسيقى غناء الشيطان تسلب العقل ، أشبه بالشرابِ الذى يُخرج الإنسان عن طوره، ويحصل أن تأخذه نشوة السكرمع لحن ما فيترنّح مخموراً نشواناً يطير فرحاً ، ويحدث أن يسمع لحناً ما فيغتمّ ويحزن ، فترتفع آهاته حرّى ، وتتساقط دموعه غريزة لا يملك حبسها وكفّها .

إنّ على الإنسان ـ كى يصل للهدف الاسمى الذى رسمه القرآن الكريم ـ أن ينظّم حواسّه البشريّة بسائر جهاتها، البصريّة والسمعيّة وغيرها من الحواسّ، ليفسح المجال لتفّتح برعم روضة الإمكان، ولكى تعطى أغراس الإنسانيّة الثمار الحلوة، وإلاّت فإنّها ستضيع وتندثر فى المزابل المتعفّنة للجهل والشهوة والغضب .

ولقد جاءت قصص وحكايات القرآن الكريم لهنه الميزة والغاية الكبرى ، أى أنّ الإنسان بمقارنة تلك القضايا والتواريخ والسير سيرجع إلى نفسه ويتذكّر ويعتبر، فلا يسلك طريق جهنّم، بل سيضع خطواته على طريق السعادة والجنّة ، متابعاً فى حركته رجال الحرام الإلهىّ الشجعان الصدّيقين ، أى الانبياء الإلهيّون وخصوصاً خاتم الانبياء والمرسلين الجامع لكلّ كمالاتهم ، والوارث لجميع فضائلهم ومناقبهم ، ثمّ يصل بالاستفادة

القصوى من تلك المتابعة إلى السعادة الابديّة المطلقة .[١]

إن اتّحاد النفوس فىالنيّات والقصد من القوّة والمتانة للحدّ الذى يمكن اعتبار القوم الراضين بعمل قومٍ آخرين شركاء معهم فى ذلك العمل، يشملهم المدح والذّم ، مع أنّهم لم يشتركوا معهم فى إنجاز ذلك العمل .

ويعتبر السبب لورود سيرة موسى على نبيّنا وآله وعليه السلام وأُمّته فى القرآن الكريم أكثر من قصص الباقين وسيرهم ، حتّى من سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام، مع أنّ إبراهيم كان أفضل منه بلاشكّ ؛ فى أنّ أُمّة موسى لها مماثلة ومشابهة لهذه الأُمّة فى كثير من الأُمور، بل فى جميعها .

فالله سبحانه يريد ببيان تلك الحوادث والوقائع تنبيه هذه الأُمّة ونصحها ووعظها بترك التلوّن والتردّد والشكّ والريب، والإشكالات غير المنطقيّة والاسئلة غير المستاغد ، والضعف والذلّ ، والكسل والوهن ، وضعف العزم والإرادة ، والميل والاهتمام بالزينات المؤقتة ، وعدم التسليم والطاعة الخالصة لرسول الله ؛ وإلاّ فإنّ عاقبة أمرهم ستكون عبادة العجل تلك، ومتابعة سامرىّ الأُمّة، والضياع والتيه فى صحراء بيت المقدس أربعين سند، وكتابة الذلّة والمسكنة عليهم.

فحين يخاطب القرآن الكريم بنىإسرائيل فى زمن النبىّ، ويوبّخهم بأفعال آبائهم وأجدادهم وأسلافهم التى مرّ عليها ما يقرب من ألفين وخمسمائة عام ، كإنجادهم من الغرق فى نهر النيل ، وطلبهم من موسى

١- روى المجلسى فى بحار الانوار ج ٩٢ ص ١٥ الصبعة الحروفية طهران عن « عيون اخبار الرضا» بسنده المتصل عن الامام الرضا عن ابيه عليهما السلام ان رجلا سأل اباعبدالله عليه السلام : ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس الا غضاضة ؟ فقال : لان الله تبارك و تعالى ام يجعله لزمان دون زمان و لا لناس دون ناس ، فهو فى كل زمان جديد و عند كل قوم غض الى يوم القيامة.

رويـة اللـه جـهرةً وابتلائـهم بالصاعقـة ، وكعـدم صـبرهم علـى طعـامٍ واحـد وطلبـهم الثـوم والبصـل والعـدس ، وكمؤاخذتهـم علـى قتلـهم رجـلاً منـهم ثمّ كتمان قتله حتّى عُرف القاتل بقضية ذبح البقرة الصفراء وما جرى بعده :

وَإِذْ فَرَقْنَا بكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَـكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعُونَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ. [1]

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّـٰعِقَـةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ . [2]

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَى لَن نَّصْبرَ على طَعَامٍ وَ حِدٍ . [3]

وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَادَّ رَءْتُمْ فِيهَا وَاللَهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . [4]

والكثير من الآيات الأُخرى الجارية على هذا النهج .

ونلحظ فى هذه الآيات أنّ اللـه سبحانه يخاطب يـهود زمـن رسـول اللـه صلّى اللـه عليه وآله وسلّم فيقول: أنتـم الذيـن قلتـم لموسـى كـذا، أنتـم الذيـن قتلتم ذلك الرجل وأخفيتـم قاتلـه ، وأثـرتم ذلـك الجـدال والمنازعـة فى تعيينـه ، وذلك لانّ يهود عصـر رسـول اللـه كـانوا يـهود عصـر النـبىّ موسـى بعينـهم ، وكـانوا شـركاءهم فى النوايـا والاعمـال ، ينتمـون إلى شـجرتهم ويتّصفـون بصفاتهم ويمتلكـون روحيّـاتهم تلـك بـدون أدنى اختـلاف ، وكـان مـن الواضـح أنّ ذنوبهم وخطاب اللـه سـبحانه وتعـإلى لهـم اسـتندت إلى ملكتـهم الباطنيّـة ونفسهم الفعلية .

وهـكذا فإينمـا وجـدت تلك المـلكة الباطنيّـة ، والنفـس بتحقّقهـا الفعـلى

---

١ ـ الآية ٥٠، من السورة ٢: البقرة.

٢ ـ الآية ٥٥، من السورة ٢: البقرة.

٣ ـ الآية ٦١، من السورة ٢: البقرة.

٤ ـ الآية ٧٢، من السورة ٢: البقرة.

ذاك ، فنفس ذلك الخطاب نفسه سيوجّه لها ، بل ولغيرها من شركائها فى العقيدة والصفة والعمل، ولو مرّ على زمن الخطاب الصورىّ الاوّل آلاف السنين ، وتغيّرت الازمان والامكنه والمحيطات والاشكال والالوان ، وجميع الآداب والتقاليد [١] .

يروى العيّاشىّ عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام حديثاً يصل فيه إلى قول الإمام عليه السلام : وَلَوْأَ نَّ الآيَةَ إذَا نَزَلَتْ فِى قَوْمٍ ثُمَ مَاتَأُولَئِكَ القَوْمُ ، مَاتَت الآيَةُ ؛ لَمَا بَقِىَ مِنَ القُرْآنِ شَىءٌ . وَلَكِنَّ القُرْآنَ يَجْرِىأَ وَّلُهُ علىٰ آخِرِهِ مَادَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالاْرضُ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ آيَةٌ يَتْلُونَهَا هُمْ مِنْهَا

١ – يروى الشيخ الحر العالمى فى « وسائل الشيعة » ج٢ ص ٥١٠ ، كتاب الامر بالمعروف ، باب وجوب البرائة من اهل البدع و سبهم و تحذير الناس منهم و ترك تعظيمهم مع عدم الخوف ، طبعة امير بهادر :

العياشى فى تفسيره عن محمد بن هاشم عمن حدثه عن ابى عبد الله عليه السلام ، قال : نزلت هده الآية : قل قد جاءكم رسل من قبلى بالب؟نت و بالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صدقين ، وقد علم انهم قالوا: و الله ما قتلنا و لا شهدنا ، قال : و انما قيل لهم : ابرؤوا من قتلهم فأبوا .

عن سماعة ، قال : سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول فى قول الله : قد جاءكم رسل من قبلى بالبينت و بالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صدقين ، و قد علم ان هؤلاء (اى جماعة اليهود) لم يقتلوا ، ولكن كان هو اهم مع الذين قتلوا فسماهم الله قاتلين لمتابعة هو اهم و رضاهم بذلك الفعل .

و عن معمر بن عمر ، قال : قال ابو عبد الله عليه السلام : لعن الله القدرية لعن الله الحرورية لعن الله المرجئة لعن الله المرجئة . قلت : كيف لعنت هؤلاء مرة و لعنت هؤلاء مرتين ؟ فقال : ان هؤلاءزعموا ان الذين قبلونا كانوا مؤمنين فثيابهم ملطخة بدمائنا الى يوم القيامة ، اما تسمع لقول الله : الذين قالوا ان الله عهد الينا ، الى قوله : فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين ؛ قال : و كان بين الذين خوطبوا بهذا القول و بين القائلين خمسمائة عام ، فسماهم الله قاتلين برضاهم بما صنع اولئك .

فِى خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.[1]

ونتيجة هذا الكلام هو عدم تخصيص شأن نزول الآيات ومواردها، وهو مطلب جليل حقّاً أشار له الإمام ودلّ عليه؛ لانّ القرآن إن اختصّ بالطائفة التى نزل بشأنها فبديهىّ أنّ تلك الآية أو تلك السورة ستموت بموت تلك الطائفة ، لانّ حياة أىّ كلام يرجع لشخص معيّن وجوداً وعدماً يتبع حياة ذلك الشخص نفسه، (فأمر السطلان لقائد جيشه فى الحرب تابع لحياته، وبموت السلطان لن يكون هناك أمر)، وهكذا بموت جميع الطوائف التى نزل القرآن بشأنها سيموت القرآن ويندثر.

ولانّ القرآن حىّ، وسيبقى حيّاً إلى الابد ، فإنّ شأن نزوله وموارده فى زمن رسول الله عموماً ، أى أنّها لا تخصِّص المورد .

لاحظوا أنّ الآيات التى خاطبت رسول الله نفسه ، وكان الامر والتكليف فيها من جهة لحن الكلام موجّهاً له، كيف أنّ عموميّتها لكلّ المؤمنين فى غاية الوضوح والبيان ، كآية :

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ .[2]

فالخطاب فى هذه الآيات كان مختصّاً برسول الله، لكنّ الحكم كان فيها عامّاً، خاصّة إذا التفتنا إلى أنّ مخاطبى الخطابات القرآنيّة هم فى الحقيقة أفراد الناس، وكان رسول الله لسعة نفسه وإحاطة وجوده فى حكم آية ونافذة لتحقّق الخطاب إليهم، وهذه الحقيقة تشير إليها الآية التالية :

---

١ ـ «تفسير الصافى» ج ١، ص ١٤: طبعة الأُوفسيت.

٢ ـ الآية ١٤٥، من السورة ٢ : البقرة.

وَأَنزَلْنَآ إِلَيكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِمْ .[١]

وعلى هذا فإنّ طراوة القرآن ونظارته لن تفقد فى أىّ وقت ، بل سيبقى على الدوام حيّاً معطّراً خالداً ، وسيأتى آلاف الافراد والقبائل ويذهبون فى دوران الزمان فيمنحهم القرآن واحداً واحداً حصّتهم واستفادتهم ، لكنّه فى نفس الوقت يبقى بعد موتهم جميعاً حيّاً وخالداً .

ويجب الإشارة هنا إلى مسألتين:

الأولى : أنّه يُشاهد فىالكثير من تفاسير أهل السنّة، خاصّة الحنابلة، تحديداً للآيات وحبسها بموارد محدّدة ، وهو أمر محظوء ، وبالاخصّ من قبل ابن تيميّة الذى يناصر هذا المذهب ويشايعه، فابن تيميّة الذى نشأت منه أفكار الوهّابيّين وآراؤهم ، يناصر بقوّة هذا النحو من التفسير، وقد أحال الذين بطريقته هذه إلى مايشبه قطعة من البلاستيك المتيبّس المتهرّى التى فقدت كلّ ليونتها ومرونتها .

الثانية : أنّ هناك الكثير من الافراد لا يتعدّون ظواهر الآيات استناداً للفهم العامّىّ لها، كبعض أخباريينا الذين يحبسون تلك الحقائق الجليلة الساميّة فى إطار الالفاظ بمعانيها المحدودة المقيّدة ، فيُحرمون من فهم القرآن وإدراك معاينه العميقه ولطائفه وظرائفه[٢] .

إنّ للالفاظ عموميّة وقد وضعت للمعانى الكلّيّة ، و روح القرآن

---

١ ـ الآية ٤٤، من السورة ١٦: النحل.

٢ – و ما اروع ما انظم الحكيم السنائى فى قوله :

عجب نبود گر از ايمان نصيبت نيست جز نقشى

كه از خورشيد جز گرمى نبيند چشم نابينا

يقول : لا عجب حين لم تحظ من الايمان الا خيال ، لان عين الاعمى لا تدرك من الشمس غير حرارتها .

وحياته فى تلك الاسرار والبواطن والمعانى الكلّيّة التى يستعصى الوصول إلى غايتها بدون حصول الطهارة الحقيقيّة .

فالوهّابيّون الذين جمدوا على الظاهر وعلى هذا الاساس اعتبروا الله جسماً له يد ورِجل وعين وأُذن وحركة وتردّد، قد ساروا حتّى خلاف هذه الظواهر، فأهلكوا أنفسهم فى تحديدات الشرك وفقدان البصيرة ، بحيث عجز بعض من أراد هذه الايّام تغطية فضائح مذهبهم وعقائدهم السخيفة المظلمة وتبرير وتوجيه آراء ابن تيميّة الجامدة المتصلّبة، بل زاد ذلك فى فضيحتهم، لانّ هؤلاء ببيانهم لتلك الآراء قد نفخوا فى بوق الجهل والظُلمة ودقّوا طبلها الاجوف .

وبقى الوهّابيّون وتلك الجماعة من الاخباريّين محبوسين فى قيد الجهل ، محرومين من نيل المعارف القرآنيّة السامية ، فالوهّابيّون مثلاً يقولون فى الآية القرآنيّة يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ [1] إنّ المراد من إليد هى نفس إليد المعهودة، غاية الامر أنّها كبيرة جدّاً وذات قدرة تتناسب مع وجود الله نفسه، وتقول مجموعة الاخباريّين هذه فى هذه الآية إنّ المراد بإليد هو القدرة ، لكنّ إليد استعملت مجازاً فى معنى القدرة .

لذا فهم كثيراً ما يعجزون فى بحثهم فى الموارد عن قرينة على المجاز، ممّا أدّى بهم إلى الجمود على المعنى الظاهرىّ للالفاظ ، كما فى لفظ الصراط، والميزان ، وتجرّد عالم الروح، والنفس ، والملائكة وغيرها ، وهم ينتهون إلى نفس النتائج التى تمخّضت عنهاالوهّابيّة .

والمنهج الحقّ الصائب هو أنّ الالفاظ قد وضعت للمعانىّ الكلّيّة

---

١ ـ الآية ١٠، من السورة ٤٨: الفتح.إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَهَ يَدُاللَهَ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .

العامّة، وقد كان استعمال لفظ إليد فى هذه الآية المباركة لموجود معنوىّ يدبّر الأُمور ضمن الولاية الكلّيّد الإلهيّة، وهذا الاستعمال حقيقىّ لامجازىّ . لاحظوا فاصلة الاختلاف... مِنْ أيْن... وإلى أيْن ؟!

والمسألة المهمّة الأُخرى التى ينبغى التذكير بها هى أنّ بعض العلماء القريبين من عصرنا حاولوا تطبيق الآيات القرآنيّة على العلوم المادّيّة الطبيعيّة ، من هيئة وطبّ وعلوم طبيعيّة وغيرها، يخيّل إليهم أنّهم قد قدّموا خدمة إلى القرآن حيث بيّنوا للافهام أنّ محتوياته تساير العلم وتنسجم مع تقدّمه ، وأنّ العلم لا يمكنه نسخها أبداً ، غافلين عن أنّ خدمتهم هذه تصبّ فى الاتّجاه المعاكس وتساهم فى تخريب وتضيع القرآن ، إذلم تكن علوم القرآن لم يوماً محدودةً بعلم خاصّ، بل إنّ دائرتها أوسع من ذلك بكثير .

فإنّ مقارنة القرآنً مع علم معيّن بكثير من التكلّف والتعسّف يمثل تحديداً للمعانى القرآنيّة ، وقد تقدّم أنّ معانى الآيات غير محدودة . يُضاف إلى ذلك أنّ العلوم المادّيّة والطبيعيّة فى حالة تغيير دائمىّ ، فمع كلّ يوم يمز ثمة فرضيّة جديدة تأتى فتبطل الفرضيّة التى سبقتها .

أفلم يظنّ هؤلاء العلماء أنّ بالإمكان أن تأتى غداً فرضيّة جديدة لتبطل فرضيّد إليوم، وأنّ إصرار هؤلاء السادة على مقارنة الا َيات وتطبيقها على هذه الفرضيّة سيُبطل مرةً واحدة جميع الآيات ؟!

ونعود إلى موضوعنا الاصلىّ، وهو كلّيّة وعموميّة وأبديّة آيات القرآن ، وأنّ فى القرآن بيان لكلّ ما هو موجود، وأنّ الوارد على القرآن والناظر إليه بمنظار المعانى الكلّيّة والتأويل سيجد أنّ جميع المسائل المبهمة والغوامض المستعصية ستحلّ له .

إنّ خطابات القرآن الكريم لا اختصاص لها بالمخاطبين الموجودين فى زمن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . فجيمع خطاباته من قبيل :

يَـأَيـُّهَا النَّاسُ ، و : يَـأَيـُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُـوا شـاملة لجميـع أفـراد النـاس ولجيمـع الافراد المؤمنين إلى يوم القيامـة ، فـالجميع مخـاطب بنفـس هـذا الخطـاب ، ولـو لم يكونـوا حـاضرين فى ذلـك الزمـان عنـد رسـول اللـه ، أو لم يكونـوا موجودين أصلاً آنذاك .

فمن اتّخذ لنفسه عنـوان مُسْـلِم، مُؤمِـن، مُشْـرك، كَـافِر، مُنَـافِق وغيرهـا مـن العنـاوين الـتى وردت فى القـرآن الكـريم ، ولـو بعَـد ألـف سـنة مـن زمـن نزوله ، فإنّ ذلك العنوان منطبق عليه . [1]

وبغضّ النظر عن هذا الكلام فإنّه لاشكّ ولا تردّد فى ثبوت عموميّة الآيات وكلّيّتهـا بالإجمـاع القطعـىّ ، ولم يـدعْ تنقيـح المـلاك والمنـاط الكلّـىّ

١ ـ وكـم كـان خطـأ صـاحب «المعـالم» فادحـاً حـين قـال إنّ مـا وضـع لخطـاب المشـافهة لا يعـمّ بصيغتـه مَـن تـأخّر عـن زمـن الخطـاب ، وإنّمـا يثبـت حكمـه لهـم بدليـلٍ آخـر، وهـو قـول أصحابنا الإماميّة وأكثر أهل الخلاف ـ انتهى .

ومعـنى ومدلـول كلامـه أنّ كلمـات القـرآن وخطاباتـه وحقائقـه ترجـع كلّـها إلى زمـن نزولـه ، وإلى المخـاطبين فى ذلـك الزمـن، وأنـّنا لا نتملـك الحـقّ فى فـهم الاَيـات والتعمّـق فيـها ، بـل إنّ عينـا أن نـرى مـا الـذى فهمـه الحـاضرون آنـذاك كأمثـال عمّـار والمقـداد ، ثمّ نعمـل بالإجمـاع حسـب فهمـهم . وهـذه المقولـة خطـأ كبـير بـدر منـه، وأهـمّ مـن ذلـك أنـّه نسـبها إلى علمـاء الشـيعة الإماميّة .

يقـول المـولى صـالح المـازندرانىّ فى «شـرح المعـالم»: وهـذا القـول علـى مذهـب الفئـة الناجيـة بعيـد ، وممّـا يـدلّ عليـه مـا رواه فى «الكـافى» فى تفسـير قولـه تعـالى وَ أُوْحِـىَ إِلَـىَّ هَـذَا الْقُـرْءَانُ لاِنذِرَكُـم بـهِ وَمَـن بَلَـغَ (الآيـة ١٩، مـن السـورة ٦ : الانعـام) وورود فىالتفسـير أنّ المـراد بمن بلغ : الائمّة الطاهرين عليهم السلام .

والمعـنى: وينذركـم بـه مَـن بلـغ؛ وهـذه الاَيـة تـدلّ علـى أنّ المخـاطبين ليسـوا خصـوص الافـراد المواجـهين بالمشـافهة ، بـل أعـمّ منـهم ، والمعدومـين الذيـن سـيأتون فيمـا بعـد الذيـن سـيقوم الائمّـة المعصومـون بـإنذارهم وتحذيرهـم . («معـالم الأُصـول» بحـث العلـوم والخصوص، ص ١١٢ و ١١٣، طبعة عبدالرحيم) .

لإفادة هذه العموميّة مجالَ شبهةٍ لأحد .

فالقرآن الكريم وفق هذا الميزان والمعيار الكلّىّ كتاب مفتوح وموجود فى صدور أصحاب العلم والدراية .

وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ و بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُو بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا الظَّـٰلِمُونَ . [١]

وقد روى عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه سُئل:

هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ رَسُولِ اللّه صَلَّى اللَهُ عليهِ وَآلِهِ شَىءٌ مِنَ الوَحِى سِوَى القُرْآنِ ؟!

قَالَ: لاَ، وَالَّذِى خَلَقَ الجَنَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إلاَّت أَنْ يُعْطِى عَبْداً فَهْمَاً فِى كِتَابِهِ . [٢]

يُوضّح لنا أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذه العبارات أنّ منهم القرآن بحلّ كلّ المشكلات ويرفع كلّ الجهالات وفى حكم النورانيّة والوحى الذى يتحقّق فى سائر الأُمور بواسطة جبرائيل .

وقال أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً : مَنْ فَهِمَ القُرآنَ، فَسَّرَ جُمَلَ الْعِلْمِ . [٣]

ويروى فى «تفسير النعمانىّ» بإسناده، عن إسماعيل بن جابر أنّه قال: سمعتُ أَبَا عَبْداللَهِ جَعْفَرَ بْن مُحَمَّدٍ الصَّادِق عليهما السلام يقول:

إنَّ اللَهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّداً فَخَتَمَ بِهِ الأنْبِيَاءَ . فَلاَ نَبِىَّ بَعْدَهُ

١ ـ الآيتان ٤٨ و ٤٩، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

٢ ـ «تفسير الصافى» ج ١، ص ١٩.

٣ ـ «تفسير الصافى» ج ١، ص ٢٢.

وَأَنْزَلَ عليهِ كِتَابَاً فَخَتَمَ بِهِ الكُتُبَ. فَلاَ كِتَابَ بَعْدَهُ. أَحَلَّ فِيهِ حَلاَلاً وَحَرَّمَ حَرَامَاً. فَحَلاَلُهُ حَلاَلٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَحَرَامُهُ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فِيهِ شَرْعُكُمْ، وَخَبَرُ مَنْ قَبْلَكُمْ وَبَعْدَكُمْ وَجَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَهُ عليهِ وَآلِهِ عِلْمَاً بَاقِيَاً فِي أَوْصِيَائِهِ . [1]

ومن الادلّة الأُخرى على عموميّة القرآن هى الامثال الواردة فى القرآن الكريم، فالمثال ولو كان مثالاً لكنّه يتضمّن بيان حقيقة كلّيئد، لذا فقد كان يأمر غالباً بعد الامثال بالتذكّر والتأمّل والاعتبار والاتّعاظ: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَل لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . [2]

ولبيان أكثر لمسألة عموميّة وكلّيّد الآيات القرآنيّة نورد الحديث الشريف المبارك الوارد فى « علل الشرايع » والراجع بقسمة الجنّة والنار على يد الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، والذى تستخلص وتستفاد منه مسائل كثيرة ، من جملتها عموميّة مطالب وآيات وأحكام القرآن الكريم ، نأتى بتمام متنه لنفاسته وجلالته :

يروى المرحوم الشيخ الصدوق محمّد بن على بن بابويه، بإسناده ، عن المفضّل بن عمر أنّه قال : قلتُ لابى عبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام:

بِمَا صَارَ على بْنُ أَبى طَالِب عليهِ السَّلاَمُ قَسِيمُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ؟!

قَالَ: لاِنَّ حُبَّهُ إِيمَانٌ وَبُغْضَهُ كُفْرٌ ! وَإِنَّمَا خُلِقَتِ الجَنَّةُ لاِهْلِ الإِيمَانِ وَخُلِقَتِ النَّارُ لاِهْلِ الْكُفْرِ. فَهُوَ عليهِ السَّلاَمُ قَسِيمُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ لِهَذِهِ العِلَّةِ . وَالْجَنَّةُ لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ أَهْلُ مَحَبَّتِهِ. وَالنَّارُ لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ أَهْلُ بُغْضِهِ .

---

١ ـ «تفسير الصافى» ج ١، ص ٢٣.

٢ ـ الآية ٢٧، من السورة ٣٩ : الزمر.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَقُلْتُ: يَابْنَ رَسُولِ اللَّهِ فَالاَنْبِيَآءُ وَالاُوصِيَآءُ هَلْ كَانُوا يُحِبُّونَهُ،و أَعْدَاؤُهُمْ يُبْغِضُونَهُ ؟!

فَقَالَ: نَعَمْ.

قَلْتُ : فَكَيْفَ ذَلِكَ ؟!

قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَهُ عليهِ وَآلِهِ قَالَ يَوْمَ خَيبر: لاَعْطِينَّ الرَّايَةَ غَدَاً رَجُلاً يُحِبُّ اللَهَ وَرَسُولَهُ؛ وَيُحِبُّهُ اللَهُ وَرَسُولُهُ . مَا يَرْجِعُ حَتَّى يَفْتَحَ اللَهُ على يَدِهِ ؟! [1]

قُلْتُ: بَلَى.

قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عليهِ وَآلِهِ لَمَّا أُوتِى بالطَّائِرِ المَشْوِىّ ؛ قَالَ: اللَهُمَّ ائْتِنِى بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إِلَيكَ يَأْكُلُ مَعِى هَذَا الطَّيْرَ، وَعَنَى بِهِ علياً ؟!

قُلْتُ: نَعَمْ

قَالَ: يَجُوزُ أَنْ لاَ يُحِبُّ أَنْبِيَاءُ اللَهِ وَرُسُلِهِو أَوْصِيَاؤُهُمْ عليهِمُ السَّلاَمُ رَجُلاً يُحِبُّهُ اللَهُ وَرَسُولُهُ؛ وَيُحِبُّ اللَهَ وَرَسُولَهُ ؟!

فَقُلْتُ: لاَ.

قَالَ: فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَمٍ لاَ يُحِبِّونَ حَبِيبَ اللَهِ وَحَبِيبَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَهُ عليهِ وَآلِهِ، وَأَنْبِيَائِهِ ؟!

قُلْتُ: لاَ.

قَالَ : فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ جَمِيعَ أَنْبِيَاءِ اللَهِ وَرُسُلِهِ ، وَجَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا

---

١ ـ روى الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن سهل بن سعد، عن أبيه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال يوم خيبر: لاعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ؛ ويحبّه الله ورسوله، لا يرجع حتّى يفتح الله عليه. («ينابيع المودّة» ص ٢٣١، طبعة إسلامبول) .

لِعلى بْن أَبى طَـالِبٍ مُحِبِّـينَ. وَثَبَـتَ أَنَّ الْمُخَـالِفِينَ لَـهُمْ كَـانُوا لَـهُ وَلِجَمِيـعِ أَهـلِ مَحَبَّتِهِ مُبْغِضِينَ .

قُلْتُ: نَعَمْ .

قَالَ: فَلاَ يَدْخُلُ الجَنَّـةَ إلاَّ مَـنْ أَحَبَّـهُ مِـنَ الاْوَّلِـينَ وَالاخِرِيـنَ. فَـهُوَ إذَنْ قَسِيمُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.

قَالَ الْمُفَضَّلُ بْنُ عُمَر: فَقُلْـتُ لَـهُ: يَـابْنَ رَسُـولِ اللَـهِ ! فَرَّجْـتَ عَنِّـى فَـرَّجَ اللَهُ عَنْكَ ! فَزِدْنى مِمَّا عَلَّمَكَ اللَهُ تَعَالَى !

قَالَ: سَلْ يَا مُفَضَّل !

فَقُلْتُ لَه: يَابْنَ رَسُولِ اللَهِ ! فَعلـى بْـنُ أَبـى طَـالِبٍ عليـهِ السَّـلاَمُ يُدْخِـلُ مُحِبَّهُ الجَنَّةَ وَمُبْغِضَهُ النَّارَ، أَوْ رِضْوَانٌ وَمَالِكٌ ؟

قَالَ: يَا مُفَضَّلُ ! أَمَا عَلِمْـتَ أَنَّ اللَـهَ تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى بَعَـثَ رَسُـولَهُ، وَهُـوَ رُوحٌ إلَى الاْنْبِيَآءِ وَ هُمْ أَرْواحٌ قَبْلَ خَلْقِ الخَلْقِ بِأَلْفَى عَامٍ ؟!

قُلْتُ: بَلَى.

قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنـَّهُ دَعَـاهُمْ إلَـى تَوْحِيـدِ اللَـهِ وَطَاعَتِـهِ وَاتِّبَـاعِ أَمْـرِهِ ، وَوَعَدَهُمْ الجَنَّةَ على ذلِكَ؛ وَأَوْعَدَ مَنْ خَالَفَ مَا أَجَابُوا إلَيهِ وَأَنْكَرَهُ النَّارَ ؟!

فَقُلْتُ: بَلَى.

قَالَ: أَفَلَيْسَ النَّبِىُّ صَلَّى اللَهُ عل؟ه وَآلِـهِ ضَامِنُـاً لِمَـا وَعَـدَ، وَأَوْعَـدَ عَـنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟!

قَلْتُ: بَلَى.

قَالَ: أَوَلَيْسَ على بْنُ أَبى طَالِبٍ عليهِ السَّلاَمُ خَلِفَتَهُ وَإمَامَ أُمَّتِهِ ؟!

قُلْتُ: بَلَى.

قَالَ: أَوَلَيْسَ رِضْوَانٌ وَمَالِكٌ مِنْ جُمْلَةِ المَلاَئِكَةِ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ لِشِيعَتِهِ النَّـاجِينَ بِمَحَبَّتِهِ ؟!

قُلْتُ: بَلَى.

قَالَ: فَعلى بْنُ أَبى طَالِبٌ إِذَنْ قَسِيمُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ عَنْ رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عليهِ وَآلِهِ، وَرِضْوانٌ وَمَالِكٌ صَادِرَانِ عَنْ أَمْرِه، بِأَمْرِ اللَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. يَا مُفَضَّلُ ! خُذْ هَذَا ! فَإِنَّهُ مِنْمَخْزُونِ العِلْمِ وَمَكْنُونِهِ، لاَ تُخْرِجْهُ إلاَّ إِلَى أَهْلِهِ . [1]

إذا تأمّلنا وتمْعننا بدقّة فى هذا الحديث سيفتح لنا ليس باباً واحداً بل أبواباً من العلم، ويجعلنا نفهم كيفيّة وطريقة استدلال صادق آل محمّد عليهم السلام على عموميّة وكلّيّة تقسيم أميرالمؤمنين عليه السلام الجنّة والنار بالنسبة لمحبّيه ومبغضيه جميعاً، ولو كانوا من الانبياء السابقين وأعدائهم وأُممهم السالفة. وسيمكننا الاستدلال بهذا النهج من الاستدلال على عموميّة القرآن الكريم وشموله .

لذا فإنّ الواجب على كلّ مسلم أن يوصل نفسه إلى مرحلة إدراك الكلّيّات للوصول إلى حقيقة الآيات القرآنيّة، ثمّ يحصل بتهذيب الاخلاق وتطهير النفس على قابليّة نيل تأويلات القرآن؛ وأن لا يكتفى بالقرءاة المحضة، والحفظ المحض، وإلاّ فإنّ الكثير من الحكّام الجائرين والظَّلَمة على مرّ التأريخ كانوا يقرأون التأريخ ويستدلّون به لمنافعهم وأغراضهم.

يقسّم القرآن الناس إلى فرقتين : أصحاب الجنّة وأصحاب النار، ولقد كان أميرالمؤمنين عليه السلام حقيقة القرآن، لذا فقد كان وجوده العينىّ والخارجىّ، أى مقام الولاية، يقسّم الناس ـ كما يفعل القرآن ـ إلى فرقتين : فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ. [2]

١ ـ «تفسير الصافى» ج ١، ص ١٦.

٢ ـ الآية ٧، من السورة ٤٢ : الشورى.

إِنَّا هَدَيْنَـاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُوراً. [1]

ولقد كان أهَل الكوفة يقرأون القرآن، ويحملونه فى حمائلهم، لكنّهم سلّوا السيف الذى وضعه القرآن فى أيديهم، فجعلهم ذوى عزّة ومنعة، وأنجاهم من ذلّ العبوديّة والهمجيّة وإطاعة عبيد مثلهم؛ فقتلوا به إمام الزمان، أى حقيقة القرآن ووجوده التكوينى ّوالعينىّ والخارجىّ ، ثمّ استدلّوا بنفس القرآن على وجوب قتله !!

قرآن كُنند حِرْز، و به طه كِشند تيغ

فرقان كنند حِفظ، و إمام زمان كُشند [2]

روى الشيخ محمّد بن يعقوب الكلينىّ، بسنده، عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله :

أنا أوّل وافذ على العزيز الجبّار يوم القيامة، وكتابه، وأهل بيتى؛ ثمّ أُمّتى؛ ثمّ أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتى ؟! [3]

وفى الحديث المروى عن الصادق عليه السلام قال: تاسوعا يومٌ حوصر فيه الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه بكربلاء، واجتمع عليه خيلٌ أهل الشام وأناخوا عليه، وفرح ابن مرجانة وعمر بن سعد بتوافر الخيل وكثرتها، واستضعفوا فيه الحسين عليه السلام وأصحابه وأيقنوا أنّه لايأتى الحسين عليه السلام ناصر ولا يمدّه أهلُ العراق . بِأَبِى المُسْتَضْعَفُ الغَرِيبُ . [4]

---

١ ـ الآية ٣ ، من السورة ٧٦ : الدهر.

٢ ـ يقول: «يتّخذون القرآن تميمة وحرزاً ويسلّون السيف بوجه طه؛ ويحفظون الفرقان ويقتلون إمام الزمان» !!

٣ ـ «أُصول الكافى» ج ٢، ص ٦٠٠ ، طبعة المطبعة الحيدريّة .

٤ ـ «نفس المهموم» ص ١٣٧.

فلمّا نادى عمر بن سعد أصحابه بالركوب، ركب أصحابه واقتربوا نحو خيم الحسين ، والحسين جالس أمام خيمته واضعاً رأسه على ركبته محتبياً بسيفه، إذ خفق برأسه على رُكبتيه فرأى رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول له : إِنَّكَ صَائِرٌ تَرُوحُ إِلَينَا عَنْ قَرِيب .[1]

وسمعت أُخته زينب الضجّة فدنت مِنَ أخيها فقالت : يا أخى ! أما تسمع الاصوات قد اقتربت ؟ فقال الإمام الحسين عليه السلام لأخيه العبّاس :

لِرْكَبْ ـ بنَفْسِى أَنْتَ ـ حَتَّى تَلْقَاهُمْ وَاسْأَلْهُمْ عَمَّا جَاءَهُمْ ؟! وَمَا الَّذِىيُرِيدُونَ ؟! فأتاهم العبّاس فى نحو من عشرين فارساً فيهم زهير بن القين و حبيب بن مظاهر فسألهم عمّا يريدون، قالوا: جاء أمر الامير عبيدالله بن زياد أن نعرض عل؟كم أن تنزلوا على حكمه أو نناجزكم . فانصرف العبّاس راجعاً إلى الحسين عليه السلام يخبره الخبر ووقف أصحابه يخاطبون القوم ويعظونهم.

فقال لهم حبيب بن مظاهر: أما واللَهِ لبئس القوم عندالله غداً قومٌ يقدمون عليه قد قتلوا ذرّيئد نبيّه وعترته وأهل بيته وعبّاد أهل هذا المصر، المتهجّدين بالاسحار والذاكرين الله كثيراً .

فقال له عزرة بن قيس ، إنّك لتزكّى نفسك ما استعطت .

فقال له زهير: يا عزرة ! إنّ الله قد زكّاها وهداها ، أنشدك الله يا عزرة أن تكون ممّن يعين الضلالة على قتل النفوس الزكيّة .

---

١ ـ «الإرشاد» للمفيد، ص ٢٤٩، الطبعة الحجريّة، و«تاريخ الطبرىّ»، ج ٤، ص ٣١٥، طبعة مطبعة الاستقامة، سنة ١٣٥٨؛ و«الكامل فى التأريخ» لابن الاثير، ج ٣، ص ٢٨٤، الطبعة الأُولى؛ و«مقتل المقرّم» ص ٢٣٠.

قال عزرة: يا زهير ! ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت، إنّما كنتَ على غير رأيهم .

قَالَ زُهَيْرُ: أَفَلَسْتَ تَسْتَدِلُّ بِمَوْقِفِي هَذَا أَنِّي مِنْهُمْ ؟! أما والله ما كتبتُ إليه كتاباً قطّ، ولا أرسلتُ إلَيه رسولاً قطّ، ولا وعدته نُصرتى قطّ ، ولكنّ الطريق جمع بينى وبينه، فلمّا رأيته ذكرتُ به رسول الله صلّى الله عليه وآله ومكانه منه، وعرفتُ ما يقدم عليه عدوّه فرأيت أن أنصره، وأن أكون من حزبه، وأجعل نفسى دون نفسه لما ضيّعتم من حقّ رسوله.

ورجع العبّاس إلى أخيه الحسين عليه السلام فأخبره بما قال الوم ، فقال عليه السلام : ارْجِعْ إِلَيهِمْ وَاسْتَمهلْهُمْ هَذِهِ العَشِيَّةِ إِلَى غَدٍ؛ لَعَلَّنَا نُصَلِّي لِرَبِّنَا اللَّيْلَةَ، وَنَدْعُوهُ ، وَنَسْتَغْفِرُهُ ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ الصَّلاَةَ لَهُ وَتِلاَوَةَ كِتَابِهِ، وَكَثْرَةَ الدُّعَاءِ وَالاستِغْفَارِ.

فرجع العبّاس واستمهلهم، وجاء رسول من قبل عمر بن سعد، فقام حيث يسمع الصوت فقال : إنئا قد أجّلناكم إلى غدٍ، فان استسلمتم سرّحنا بكم إلى أميرنا عبيدالله بن زياد، وإن أبيتم فلسنا تاركيكم . [1]

وجمع الحسين عليه السلام أصحابه فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ أثنى على أصحابه المخلصين، ثمّ قال: وقد أخبرنى جدّى رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّى سَأُسَاقُ إِلَى العِرَاقِ فَأُنْزِلُ أَرْضاً يُقَالُ لَهَا عَمُورٌ، أَوْ كَرْبَلاَ؛ وَفِيهَا أَسْتَشْهِدُ، وَقَدْ قَرُبَ المَوْعِدُ . [2]

١ـ «الإرشاد» للمفيد، ص ٢٤٩ ؛ و«تاريخ الطبرىّ» ج ٤، ص ٣١٥ الى ٣١٧ ؛ و«الكامل» ج ٣، ص ٢٨٥؛ و«البداية والنهاية» لابن كثيرج ٨ ص ١٧٦ و ١٧٧، و اغلام الورى ، ص ٢٣٤ .

٢ ـ «مقتل المقرّم» ص ٢٣٣، عن «إثبات الرجعة» للفضل بن شاذان.

وأنّى قد أُنتُ لكم فانطلقوا جميعاً فى حلّ ليس عليكم منّى ذمام ، وهذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً، وليأخذ كلّ رجل منكم بيَدِ رجل من أهل بيتى، فجزاكم الله جميعاً خيراً، وتفرّقوا فى سوادكم ومدائنكم فَإنَّ القَوْمَ إنَّمَا يَطْلِبُونَنى؛ ولَوْ أصَابُونى لَذَهَلُوا عَن طَلَب غَيْرى !

فقال له إخوته وأنباؤه وبنو أخيه وأبناء عبدالله بن جعفر: ولِمَ نَفعل ذلك ؟ لنبقى بعدك ! لا أرانا الله ذلك أبداً .

بدأهم بهذا القول العبّاس بن على وتابعه الهاشميّون.

ثمّ نهض أولاد عقيل، ومسلم بن عوسجة، وزهير بن القين، كلّ بدوره، فتكلّموا بكلا كريم ، وأظهروا ببيان عجيب خجلهم لانّهم لا يمتلكون إلاّ روحاً واحدة يؤثرونه بها . [١]

كانت ليلة عاشوراء أشدّ ليلة مرّت على أهل الرسالة، حُفّت بالمكاره والمحن ، وأعقبت الشرّ وآذنت بالخطر و قد قطعت عنهم الحالة القاسية من بنى أُميّة و أتباعهم كلّ الوسائل الحيويّة ، وهناك ولولة النساء وصراخ الاطفال من العطش المبرّح والهمّ المدلهمّ . [٢]

قال الإمام على بن الحسين السجّاد عليه السلام: إنّى جالس فى تلك العشيّة التى قذتل أبى صبيحتها، وعمّتى زينب عندى تمرّضنى إذ اعتزل أبى فى خباء له وعنده حَوّى [٣] مولى أبى ذرّ الغفارىّ (وكان بصيراً بمعالجة

١ ـ «الإرشاد» للمفيد، ص ٢٥٠؛ و«تاريخ الطبرىّ» ج ٤، ص ٣١٧؛ و«الكامل» ج ٣، ص ٢٨٥؛ و«البداية والنهاية» ج ٨ ص ١٧٦ و ١٧٧، و مقتل الحسين المقرم ، ص ٢٣٤ .

٢ ـ «مقتل المقرّم» ص ٢٦٢، الطبعه الخامسه – قم سنه ١٣٩٤ ه .

٣ ـ قال فى كتاب «دمع السجوم» ص ١١٧: حَوِّى بفتح الحاء المهملة والياء المشدّدة على وزن سرّى كما فى نسخة «نفس المهموم» للمرحوم المحدّث القمّىّ، وبضمّ الحاء وفتح الواو بضبط «تاريخ الطبرىّ» .

آلات الحرب وإصلاح السلاح) وهو يعالج سيفه ويصلحه، وأبى يقول :

يَا دَهْـرُ أُفٍّ لَكَ مِـنْ خَلِيلِ كَـمْ لَكَ بالإشْـرَاقِ وَالأصِيلِ
مِـنْ صَـاحِبٍ وَطَالِبٍ قَتِيلِ وَالـدَّهْرُ لاَ يَقْنَـعُ بالبَـدِيلِ
وَإنَّمَـا الأمْـرُ إلَـى الجَلِيـلِ وَكُـلّ حَـيٍّ سَـالِكٌ سَـبِيلِى

فأعادهـا مرّتـين أو ثلاثـاً حتّـى فهمتـها وعرفـتُ مـا أراد، فختقتـنى العبرة فرددتُها ولزمتُ السكوت وعلمتُ أنّ البلاء قد نزل .

وأمّـا عمّـتى فإنّـها سمعـتْ مـا سمعـتُ وهـى امـرأة، ومـن شـأن النسـاء الرقّة والجـزع ، فلـم تملـك نفسـها أن وَثَبَـتْ تَجُـرُّ ذَيْلَـهَا حَاسِـرَةً حَتَّـى انْتَـهَتْ إلَيـهِ وَقَـالَتْ : وَاثُكَـلاهُ ! لَيْـتَ المَـوْتُ أعْدَمَنـى الحَيَـاةَ . إليـوْمَ مَـاتَتْ أُمِّـى فَاطِمَةُ ، وَأَبى علىّ،و أَخِى الحَسَنُ ! يَا خَلِيفَةَ المَاضِى وَثِمَالَ البَاقِى !

فنظرَ إليها الحسين عليه السلام وقـال لهـا: يَـا أُخَيَّـةُ ! لاَ يَذْهَبَـنَّ بِحِلْمِـكَ الشَّيْطَانُ ! لَوْ تَرِكَ القَطَا لَنَامَ .[1]

---

١ ـ قـال فى «دمـع السـجوم» ص ١١٧: القطـا دجاجـة اسمـها بالفارسـيّة إسـفرود، وبالتركيّـة بـا قرقـره ، ومعروفـة باسـم آكلـة الصخـر (سـنگ خـوار) لانـّها توجـد كثـيراً فى المنـاطق الصخريّـة ، وليس لانـّها تأكل الصخر حقّاً ـ انتهى.

وفى المعجـم اللغـوىّ « لغتنامـه دهخـدا » قـال : القطـا دجاجـة يقـال لهـا بالفارسـيّة «سنگخوار»، ويقال إنّ صوت القطا فى الصحراء دليل للمسافرين على وجود الماء .

وفى «جامع الشواهد» فى بيت العبّاس بن الاحنف :

بكيتُ إلى سرب القطا إذ مررنَ بى فقلتُ و مثلى بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من يُعير جناحه لعلىٍّ إلى من قد هويتُ أطيرُ

قيل: القطا كعصا جمع قطاة، بقاف وطاء مهملة وتاء مثناة مثل قناة طائر معروف .

أمّا الميدانىّ فى «مجمع الامثال» ج ٢، ص ١٧٤ تحت رقم ٣٢٣٠ فقال :

«لو تُركَ القَطَا لَنَـامَ لَيْـلاً» مثـلٌ يرجـع أصلـه إلى عمـرو بـن مامـة، فإنّـه نـزل علـى قـومٍ مـن بـنى مـراد فقصـدوه ليـلاً فـأثـاروا طيـور القـطا مـن مخـابئهـا وأمـاكنهـا فطـارت ، فصـاحـت بـه

فقالت :

يَا وَيْلَتَاهُ ! أَفَتَعْتَصِبُ نَفْسَكَ اغْتِصَابَاً ؟ فَذَاكَ أَقْرَحُ لِقَلْبِى وَأَشَدُّ على نَفْسِى !

ثمّ لطمت وجهها وهوت إلى جيبها فشقّته وخرّت مغشيّة عليها . فقام إليها الحسين عليه السلام فصبّ على وجهها الماء، وقال لها :

يَا أُخْتَاهُ ! اتَّقِى اللَهَ وَتَعَزِّى بعَزَاءِ اللَهِ ! وَاعْلَمِىأَ نَّ أَهْلَ الاْرْضِ يَمُوتُونَ؛و أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ لاَ يَبْقُونَ؛و أَنَّ كُلَّ شَىءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهُ اللَهِ الَّذِى خَلَقَ الخَلْقَ بقُدْرَتِهِ؛ وَيَبْعَثُ الخَلْقَ وَيَعُودُونَ وَهُوَ فَرْدٌ وَحْدَهُ (جَدِّى خَيْرٌ مِنِّى ـ خ ل) أَبى خَيْرٌ مِنِّى ؛ وَأُمِّى خَيْرٌ مِنِّى،و أَخِى خَيْرٌ مِنِّى (وَلِى ـ خ ل) وَلِكُلِّ مُسْلِمٍ بِرَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عليهِ وَآلِهِ أُسْوَةٌ .

نيست زينب ، وقت بيهوشى تو

تنگدل شد شه ، ز خاموشى تو

بلبل عشقى ، تو بر گل زندهاى

پيش گل ، بر صد نوا زيبندهاى[1]

زوجته لمّا رأت طيران القطا وحذّرته فقال: إنّما هى القطا. فقالت: لو ترك القطا لنام ليلاً. وهذا المثل يُضرب لمن يجبر على القيام لعمل لا يرتضيه ـ انتهى .

وفى معجم «لغت نامهنوين» (=المعجم الحديث) قال بشأن القطا: القطا جنس من طير الجونيّات (وقال فى مادّة جَونى : ضرب من القطا سود البطون والأجنحة ، ج : جُوْنٌ) . ثمّ قال : واحده قطاة ، أنواعه عديدة جميعها قريبة الشبه من الحمام ، ويُضرب فيها المثل فى الهداية :

والناس أهدى فى القبيح من القطا وأضلّ فى الحُسنى من الغِربانِ

١ ـ يقول : «ليس الوقت مناسباً للإغماء ـ يا زينب، فلقد ضاق بصمتك صدر السلطان أى الإمام الحسين عليه السلام .

وكنتِ كالبلبل العاشق يحيا لاجل الوردة، وكان وجودك يفوق الورد بمئات الاوصاف والمعانى .

گل بدست آمد، كجا شد جوش تو
يا زبوى گل ز سر شد هوش تو؟
بر تــوگريد ديدة گل بى حسـاب
بهر بى‌هوشان ، روا باشـد گلاب[1]

يَـا أُخَيَّـةُ إِنِّـى أَقْسَـمْتُ عليـكَ فَـأَبرِّى قَسَـمِى ! لاَ تَشُـقِّى علـى جَيْبَـاً ؛ وَلاَ تَخْمِشِى على وَجْهَاً ؛ وَلاَ تَدْعِى على بالوَيْلِ وَالثُّبُورِ إذَا أنَا هَلَكْتُ . [2]

يقول الإمام السجّاد عليه السـلام: ثَمّ جـاء بهـا حتّـى أجلسـها عنـدى، ثمّ خرج إلى أصحابه، فقـام الليـل كلّـه يصلّـى ويسـتغفر ويدعـو ويتضـرّع، وقـام أصحابـه كذلـك يصلّـون ويدعـون ويسـتغفرون . فبـاتوا ولهـم هوىّ كـدوى النحل من تلاوة القرآن والدعاء والمناجاة .

قال فى « نفس المهموم » ص ١٤١ بعـد هـذا المطلـب: وكمـا وصفـه ابنـه إمامنا المهدىّ عجّل اللـه فرجه فقال : كَانَ لِلْقُـرآنِ سَـنَدَاً وَلِلأُمَّـةِ عَضُـدَاً، وَفِـى الطَّاعَـةِ مُجْتَـهِدَاً، حَافِظَـاً لِلْعَـهْدِ وَالمِيثَـاقِ؛ نَاكِبَـاً عَـنْ سُـبُلِ الفُسَّـاقِ؛ بَـاذِلاً لِلْمَجْـهُودِ؛ طَوِيـلَ الرُّكُـوعِ وَالسُّـجُودِ؛ زَاهِـدَاً فِـى الدُّنْيَـا زُهْـدَ الرَّاحِـلِ عَنْـهَا ؛ نَاظِرَاً إلَيهَا بِعَيْنِ المُسْتَوْحِشِ مِنْهَا .

١- يقـول : جـاءت الـوردة فـأين صـار حماسـك ونشـاطك ؟! أم لَنّ عطـر الـوردة ألقـاك مغمىً عليك .

ذرفـت الـوردة لاجلـك الدمـوع غـزاراً، فكـانت أشـبه بمـاء الـورد يصـبّ علـى المفمـى عليهم» .

وقد نُقلت هذه الاشعار ـ للمناسبة من ديوان «زبدة الاسرار» ص ١٨٣.

٢ ـ «الإرشـاد» للمفيـد، ص ٢٥١ و ٢٥٢ ؛ و«تـاريخ الطـبرىّ» ج ٤ ، ص ٣١٨ و٣١٩ ؛ و«الكـامل» ج ٣ ، ص ٢٨٥ و ٢٨٦ ؛ و«البدايـة والنهايـة» ج ٨ ، ص ١٧٧ ؛ و مقتـل « مقتـل الحسـين » للمقرّم ، ص ٢٣٩ و ٢٤٠ ، الطبعةالثانية ، النجف .